د. إبراهيم أبو خزام

الحروب وتوازن القوى



دراسة شاملة
لنظرية توازن القوى وعلاقتها الجدلية بالحرب والسلام



الحروب وتوازن القوى

دراسة شاملة لنظرية توازن القوى
وعلاقتها الجدلية بالحرب والسلام



الأهليــة للنشــر والتــوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمـان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هـاتف ٤٦٣٨٦٨٨ - فاكـس ٤٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعـام ١٩٩٩
إبراهيم أبو خـزام / الحـروب وتوازن القوى
الطبعة الاولى

تصميم الغـلاف ®
التنضيـد : مؤسسة ياقوت للخدمات المطبعية

طبــع في لبنـــان

د. إبراهيم أبو خزام

الحروب وتوازن القوى

دراسة شاملة لنظرية توازن القوى
وعلاقتها الجدلية بالحرب والسلام

الأهلية

مقـــدمة

هذا الكتاب هو إستمرار لجزء من كتاب سبق وان نشرته منذ اعوام تحت عنوان (العـرب وتوازن القـوى في القـرن الحـادي والعـشـرين) وهو دراسة استشرافية لواقع القوى العظمى في التسعينيات ، وقد انطلقت تلك الدراسة من إفتراضات نظرية معينة تذهب إلى وجود ثوابت ومتغيرات في السياسة الدولية والثوابت هي ما اطلقنا عليه (قوانين التاريخ) وهي عبارة عن إستنتاجات متكررة طوال التاريخ لاتمتلك الدول تغيير كنهها ولكنها تستطيع استخدامها في اثناء تعاملها الدولي ، ومن المرجح عندنا ، ان نجاح السياسة الخارجية لأية دولة يعتمد على مقدار فهمها لهذه القوانين التاريخية ومدى قدرتها على التعامل معها . . .

ومن المهم أن ننبه إلى اننا لانعني بنجاح السياسة الخارجية ما يتحقق من إنجازات عارضة لسياسي ما ، فمثل هذا النوع من الإنجاز العرضي قد يتحقق بطريق المصادفة أثناء التفاعلات والصراعات الدولية ، ليس بسبب دهاء هذا السياسي وحنكته ، بل يتحقق نتيجة عارضة لعمليات كبرى تجرى على المسرح الدولي ، وهي عمليات لاتهتم - غالباً - بما يجرى على أطراف الصراع ولاتأخذه في الحسبان في أثناء التفاعل الأساسي ، لأن أطراف الصراع تعرف مقدماً أن مثل هذا النوع من النجاح تسهل فيما بعد تصفيته ومحو آثاره كلها في طرفة عين .

إن ما نعنيه بنجاح السياسة الخارجية هو الإنجاز التاريخي الثابت ، أي

خلق سياسية مستقرة تستطيع النفاذ إلى مجمل التاريخ وتفرض سيطرتها كسياسة خلال حقبة زمنية محددة وتخطط للانطلاق نحو حقب أخرى . . .

إننا نستطيع العثور على عشرات الامثلة في طول التاريخ وعرضه للسياسات الناجحة ، غير ان المثال الاقرب الذي يستطيع إبراز هذه المعاني هو (الحرب الباردة) التي وضعت اوزارها منذ وقت قريب . . .

فقد كانت المعركة الكبرى بين الطرفين ، الغرب والشرق ، محاولة كسر حالة توازن القوى القائمة بينهما وفرض سيطرة الكتلة المنتصرة وسياستها على العالم بعد الإجهاز على الخصم الرئيسي في المعركة . . . وذلك هو ماتحقق للغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الإمريكية .

إن هذه المعركة التي أستمرت مايقارب نصف قرن تخللتها هزائم جانبية كثيرة لحقت بالغرب أوالشرق ، وهي هزائم بدت لبعض اللاعبين الصغار إنتصارات عظيمة لهم في ذلك الوقت ، لكنها في نظر اللاعبين الكبار لم تكن سوى جيوب لم يحن الوقت لتصفيتها . . .

ومع انحسار الغبار عن الموقعة الرئيسية عاد المنتصر لتصفية الجيوب ليفرض سياسته على العالم برمته . . .

إن سبب هذه النكسة التي اصابت الأطراف الصغيرة هو عدم الادراك الدقيق لقوانين التاريخ التي هي الثابت الأساسي في السياسة الدولية فهناك أطراف صغيرة أخرى إستطاعت النجاة من هول هذه المعركة بسبب معرفتها ثوابت التاريخ .

وعلى الرغم من وجود ثوابت كثيرة في حركة التاريخ ، إلاّ أننا قد

توقفنا في دراستنا السابقة عند قانونين من التاريخ ، هما ، الصراع وتوازن القوى .

فالصراع في رأينا هو أحد الحقائق الثابتة في حياة الدول طوال التاريخ ، فتنشأ الدول والحضارات وتعيش في خضم الصراع ، ومن الوهم الإعتقاد بأن دولة ما تستطيع ان تعيش دون الصراع المستمر مع غيرها من الدول . . .

غير ان درجات الصراع مختلفة واشكاله متنوعه ، فهو يبدأ بالتنافس السلمي والتعايش بين الدول في ادنى درجاته وقد يرتفع نحو الحرب والصدام الدموي عند الفشل في ادارة الصراع بصورة سلمية ، والواقع ان درجة الصراع ونوعه يرتبط بجملة من العوامل الموضوعية والشخصية أحياناً ، لعل في مقدمتها درجة التطور الحضاري والثقافي وطبيعة السلطة السياسية السائدة في مجتمعات الصراع ومدى شعورها بالمسؤولية وبدرجات التناقض أو التوافق الايديولوجي بين الانظمة السياسية .

إننا لاننوي الخوض الآن في هذه المسألة ، التي فصلناها جزئياً في كتابنا المشار إليه ، غير اننا نود أن نشير ونؤكد على اهمية ادراك مسألة الصراع من حيث هو قانون تاريخي ، ومن العبث في رأينا وقوع رجل الدولة ضحية لوهم نهاية الصراع وإمكانية التفاعل الصحيح في المجتمع الدولي بإلغاء هذا العنصر .

إن هذه النظرة يمكن ان توصف بأنها تشاؤمية ، لكن ما يفرض ذلك هو التحليل الواقعي للتاريخ وحياة الدول ، (فالحرب هي مضخة التاريخ) كما يقول (ريجيس دوبريه) كما ان التاريخ ليس سوى (التدمير المتتابع للدول والحضارات) .

على ان فهم هذه الحقيقة والتفاعل معها هو الذي يمكن ان يحد من مآسي الصراع ، فإذا سلمنا جدلاً بأن الصراع حتمية تاريخية فإن بأيدينا التخفيف من آثاره ، فعلّينا كما يقول نيكسون (أن نتعايش مع خلافاتنا عوضاً عن ان نموت فوقها) . . .

إن البشرية ستكون أكثر عقلانية إذا ذهبت نحو تقنين الصراع وحاولت النزول به إلى ادنى درجاته ، فمن الاجدى تقنين الصراع والهبوط به إلى مستوى التنافس السلمي والمشروع ووضع الآليات العملية لمنع تفاقمه وتصاعده نحو درجاته العليا ، ووقفه عند حدود معينة إذا اندلع أو إنفلت . . .

إن هذه العقلانية المطلوبة صعبة للغاية ولكنها ممكنة ، فكما تمكنت المجتمعات بعد تجارب سياسية طويلة من تأميم صراعاتها الداخلية فإن بإمكانها نقل هذه التجربة إلى المستوى الدولي . إن المجتمعات الوطنية نفسها محكومة بقانون الصراع ، لكن هذه المجتمعات أو معظمها ، إستطاعت تهذيب الصراع وتقنينه ، لأنها وضعت قواعد الصراع على قواعد شبه عادلة ومقبولة ، فأصبح الصراع نافعاً وضامناً لعدم فساد المجتمع نفسه .

إن صراعات مريرة وحروباً دامية قد جرت بين الدول والشعوب نتيجة لسوء المعرفة وقلة التقدير لأهمية ثوابت التاريخ من قبل الساسة وقادة الدول ، ولو قدر لهؤلاء معرفة حدود الصراع وأشكاله لإستطاعوا الهبوط بمستوى الصراع إلى ادنى درجاته ولجنبوا شعوبهم ويلات اراقة الدماء .

فتناقضاتنا محتومة لأسباب عديدة ومتجددة لكن التعايش معها ممكن وحلها مما يستطاع ، وذلك هو جوهر السياسة من حيث هي (فن الممكن) . . .

إن القانون الثاني الذي تناولناه هو قانون (توازن القوى) ، وهو قانون مكمل لقانون الصراع وناشئ عنه ، فالصراع بين الدول يقود ضرورة ، إلى ظهور نسق دولي وحالة من حالات التوازن بين بعض القوى الدولية ، أطلق على هذا النسق (توازن القوى) .

ففي جميع مراحل التاريخ ، ومنذ أن عرفت الإنسانية فكرة الدولة ، عرفت أيضاً بجوارها مسألة (توازن القوى) . . .

إن هذه القاعدة لاتعنى إطلاقاً إهمال بعض مراحل التاريخ التي شذت عن هذه القاعدة لفترات قصيرة ، فقد حدث أن أختل توازن القوى بشكل شديد وظهرت عوضاً عن ذلك حالات من الهيمنة الفردية ، لكن هذه الظاهرة طوال التاريخ لم تكن سوى ظاهرة عارضة ، ليست قابلة للإستمرار إلاّ لوقت قصير ، فسرعان مايفعل قانون الصراع فعله ليصنع من جديد توازن قوى آخر ، فظاهرة التوازن هي الأكثر إستمراراً في حياة الدول . . .

ونظراً لأهمية (توازن القوى) في العلاقات الدولية ، فإنه درس بكل عناية في الغرب ، وأصبح حجر الزاوية في السياسات الدولية للعالم الغربي واشتهرت بإستخدامه دول بذاتها كبريطانيا في معظم تاريخها ، كما استخدمته دول أخرى بنجاح في فترات معينة كالنمسا في عصر (ميترنيخ) مثلاً .

أما في الوطن العربي فإن توازن القوى لم يحظ بالدراسة العلمية الوافية وأظن ان اهمال موضوع توازن القوى في النظرية والتطبيق هو أحد الأسباب الرئيسية للإخفاق السياسي الذي عانته كثير من الاقطار العربية . . .

وهناك اليوم خطان رئيسيان على المستوى الدولي ، يعطى الأول أهمية كبيرة لمسألة توازن القوى ، ويعتقد بأن التوازن هو مفتاح السلام أو الإستقرار الدولي في الاقل ، ويعتمد هذا الخط على الملاحظة التاريخية التي تشير بالفعل إلى ان مراحل الإستقرار كانت ثمرة للتوازنات الراسخة .

وهناك خط مناقض لهذا الخط تماماً ، يذهب إلى ان توازن القوى ليس إلاّ سوى وهماً من الأوهام .

وقد أخذ هذا الخط في التصاعد بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي مبشراً بنظرية جديدة هي نظرية (توازن المصالح) التي حلت آلياً محل (توازن القوى) ولاسيما في العصر الذري الذي لم يجعل مسألة القوة العسكرية العامل الحاسم في السياسة الدولية .

إننا ننتمي إلى الخط الأول الذي يؤمن (بالقوانين التاريخية) محركات رئيسية في السياسة الدولية ، ومع تأثر هذه القوانين بالمتغيرات والمستجدات ، فهذا التأثر لايمس جوهر السياسة نفسها . ولايمكنه النيل من القوانين التاريخية إلاّ إذا تبدلت المعطيات الجوهرية نفسها . . . .

إن محور السياسة الدولية هو الدولة ، تلك هي المعطية الجوهرية (دولة تنشد الديمومة والإستقرار والرخاء والتقدم وهي متصارعة أو متنافسة في الاقل مع غيرها من الدول ومشغولة على الدوام بأمنها ووجودها) . ذلك هو حال الدولة منذ ولادتها حتى اليوم وخلال كل هذه القرون الطويلة . . . أما كيفية الحفاظ على هذا الوجود وأساليبه وأدواته فهذا هو المتغير التاريخي . . . وحتى تحافظ الدولة على وجودها فواجبها ان

تتسلح لذلك بشبكة من العلاقات والتحالفات وبالجيش والسلاح ، الذي يظل سلاحاً سواء كان رمحاً أم سيفاً أم قنبلة ذرية ، فالسلاح هو السلاح والحرب هي الحرب بغض النظر عن درجة التطور ، فالذي كان سلاحاً فتاكاً منذ زمن بعيد هو تحفة رائعة بمتاحف اليوم فحسب ، والمدافع المعلقة على كثير من القلاع الاثرية كانت منذ عقود أسلحة فتاكة ، لكنها تحولت الآن إلى مدافع زينة وقد تستخدم في الاعلان عن لحظة الافطار في أيام صومنا في شهر رمضان المبارك . . .

إن الدولة في رأي افلاطون هي الفرد مكبراً ، وكما تحكم القوانين الثابتة حياة الفرد فإنها تحكم حياة الدولة . . .

إن الفرد محكوماً بحاجاته ، فالإنسان واحد في الخلقة وفي الاحساس ، بغض النظر عن تقلبات الزمان وماتنطوى عليه صروف الدهر .

إن حاجات الفرد هي القانون التاريخي الثابت في حياته ، لكنها متغيرة من حيث الأساليب والكيفية ، فالحاجة تظل حاجة بغض النظر عن كيفية إشباعها . . .

فمنذ أن نشأ الإنسان ، نشأت معه حاجاته ، كالمأكل والملبس والمأوى الخ . . . وهي حاجات متلازمة معه ، غير ان هذه الحاجات مرت ومازالت تمر بمتغيرات كثيرة ، غير ان هذه المتغيرات لم تمس جوهر الحاجة ، فقد استعاض الانسان عن الاعشاب والجذور ، وقد كانت من لذائذ الدنيا لديه ، إستعاض عنها بأشهى الموائد التي يعدها أمهر الطباخين ، كما بدل جلود الخراف والدببة بأرقى ماتقدمه بيوت الأزياء وخرج من الكهوف والاكواخ ليسكن القصور الفارهة والشقق المعلقة في السماء ، لكن هذه

التبدلات مهما كان عمقها مازالت تدور في فلك فكرة الحاجة المنبعثة من وجود الانسان نفسه . . . فهو محور الحياة والمعطيه الجوهرية فيها . . .

ومثلما كان الفرد كذلك تكون الدولة وستظل أسيرة طبيعتها محكومة بقوانينها الثابتة متأثرة بما يحدث من متغيرات . . .

إننا نعتقد بأن توازن القوى هو أحد القوانين الثابتة في العلاقات الدولية وهو الصانع الرئيسي للإستقرار والسلام ، كما أنه المسؤول عن الحروب والكوارث .

إن هذه المقولة تبدو متناقضة أول وهلة ، فكيف يكون توازن القوى مسؤولاً عن الشئ ونقيضه ، أي الحرب والسلام معاً ؟

إن هذا الكتاب محاولة لفك هذا التناقض . . . فمن يتأمل التاريخ يستطيع أن يدرك أن هناك صيرورة ما للحرب والسلام ، تتكرر في التاريخ ، وهي صيرورة مرتبطة في الحالتين بتوازن القوى وأشكاله المختلفة .

وهذا الكتاب محاولة لمتابعة هذه الصيرورة التاريخية . . . ومفتاحنا الرئيسي دراسة توازن القوى باشكاله المختلفة . . . لنستطيع الوصول إلى القواعد الرئيسية التي يمكن ان تساعد في فهم الواقع الدولي وإحتمالات المستقبل ومتى نكون على مشارف السلام أو على حواف الحروب . . .

فقد ثبت لدى ببعض التأمل في التاريخ ، أن أشكالاً من التوازنات تصنع الإستقرار وأن أشكالاً غيرها تقود إلى الحرب ، وهي أشكال لاتصنعها الدول بارادتها ، ولكن التوازنات نفسها تتطور من حال إلى حال . . . وفي ضوء هذا التطور تندلع الحروب أو يرفل العالم في السلام والإستقرار . . . إن هذا هو ماتبغى هذه الدراسة إثباته . . .

فهناك اليوم إمكانية واسعة لصياغة مايشبه النظرية المتكاملة لتوازن القوى ، إذا تتبعنا تطوره في مختلف مراحل التاريخ ، وإذا أمكن الوصول إلى مثل هذه الصياغة ، فإنه يمكن التوصل إلى إستنتاجات عملية مفيدة للغاية في سياسة الدولة . . . فمعرفة حقيقة التوازن وأشكاله المختلفة ، في أي مرحلة ، ستكون مفيدة جداً لقراءة الاحداث والتفاعل معها ، والإستفادة من إيجابيات المرحلة وتفادى سلبياتها وهذا الكتاب محاولة للمشاركة في صياغة لأصول نظرية توازن القوى . . .

أما منهجيته فهي الإعتماد على التاريخ وإستخلاص نتائجه المتعلقة بتوازن القوى وعرضها لإثبات ماسنلخص إليه من إستنتاجات . . .

ومع ان دراستنا ستنصب على دراسة توازن القوى ، فإننا سنلقى نظرة موجزة على الحرب ، ومإذا نعني بها في هذه الدراسة ، ثم نقوم بدراسة الأفكار الرئيسية في توازن القوى ، فنتناول تعريفه ، لأنه مازال غامضاً خاصة في الفكر العربي ، كما نتناول أشكاله الرئيسية ، لأن هذه الأشكال هي مفتاح الحرب والسلام ، ووسائل التأثير في توازن القوى ، كما ندرس دور الموازن (أو حافظ الميزان) في السياسة الدولية ، وسنتوسع في ذلك . . . ويرجع هذا التوسع إلى سببين ، الأول هو الدور الخطير الذي يلعبه حافظ الميزان ، أما السبب الثاني فهو عملي ، يدعو ، العرب أو بعض منهم إلى محاولته ، فمن لم يستطع أن يتحول إلى قوة مؤثرة وقطب مستقل في السياسة الدولية ، فبأمكانه أن يشارك في توازن القوى بطريقة (حافظ الميزان) ، وذلك دور لعبه فيما مضى ساسة كثيرون وحققوا منه فوائد جمة لبلدانهم وشعوبهم . . .

وبعد ذلك نقدم الإستنتاجات الرئيسية والقواعد المستخلصة التي قد تصلح مشروع نظرية لظاهرة (توازن القوى) . . . كما نتناول التوازن الإقليمي ومدى تأثيره في التوازن الدولي بشكل عام .

وأخيراً لابد ان نذكر أن غاية هذه الدراسة تذهب إلى ناحيتين ، أكاديمية وسياسية . . . فهي محاولة لوضع دراسة علمية أكاديمية تتناول ظاهرة سياسية مهمة ، وقد لاحظت خلو المكتبة العربية ، والمنشورات الجامعية بشكل خاص ، من دراسة متكاملة في التوازن الدولي ، فما كتب في الفكر العربي غالبا ، تناول هذه الظاهرة بإقتضاب شديد ، وذلك بغرض تعريف هذه الظاهرة وإدخالها مدارك الطلاب ، ولم تذهب هذه الدراسات إلى محاولة تقديم صياغة متكاملة لهذا الموضوع الخطير . . .

أما السبب السياسي فيحاول خدمة السياسة العربية ولفت عنايتها إلى أهمية تحليل هذه الظاهرة ، وقد بدا لي ان بعض حالات الفشل في السياسة العربية تعود إلى عدم إدراك أهمية التوازن الدولي . . . فدفعنا ومازلنا ندفع ثمن الفهم السياسي الخاطىء ، هذا ماحدث عقب الحرب العالمية الاولى وتكرر بعد الحرب العالمية الثانية وقد يتكرر مرة أخرى بعد أن انتهت الحرب الباردة وأصبح العالم يتشكل من جديد .

إننا في وضع دولي خطر الآن ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، وهو قرن سيشهد مع بداياته تشكل توازن القوى القادم ، وفي هذه المرحلة على السياسي العربي ان يرتفع بوعيه وتفاعله مع الاحداث إلى اعلى الدرجات ، لعلنا نسهم في القرن القادم في السياسة الدولية بالقدر اللائق بأمتنا ، المتناسب مع إمكانياتها ، أو على الأقل تفادي السقوط

من جديد ودفع ثمن المستقبل كما دفعناه في الماضي والحاضر . . . وأظن أن خير مساهمة في الشأن العام هي وضع بعض الدراسات عن الظواهر الدولية المهمة أمام السياسي العربي ، لعلها تعينه ولو قليلاً على مسؤولياته التاريخية الكبرى . . .

والله من وراء القصد

المؤلف ـ خريف عام ١٩٩٨ م

الفصل الأول

معنى الحرب

١ـ بما أن كتابنا يهدف إلى تحديد العلاقة الجدلية بين توازن القوى والحرب والسلام ، فإن الضرورة تقتضى تحديد هذه المفاهيم ، وبما أن الغاية دائماً هي تجنب ما هو بشع فإن المسألة الأولية هي وجوب تحديد معنى الحرب ومعرفة أسبابها . . .

إن الحرب ظاهرة بشعة في تاريخ البشرية ، بل أنها أبشع ما إخترعته البشرية في تاريخها الطويل فمهما كانت مبرراتها وأسبابها فإن ذلك لايمكن أن يقلل من بشاعتها .

لقد ذهب كلاوزفتز منذ زمن بعيد إلى (أن الحرب نشاط إجتماعي) وهي شأن من شؤون الدولة ، فهي عنف منظم تشنه الدولة لمصلحة الدولة وضد الدولة [1] . وهي نشاط تدفع ثمنه الشعوب أنهاراً من الدم وبحور من الدموع والأحزان وكم هائل من القتلى والشهداء والثكلى والأرامل والأيتام ، واكداس من المال يجرى صرفها دون حساب ، لكنها على الرغم من بشاعتها فهي ظاهرة تنقاد لها الأمم والشعوب طائعة مختارة بل ومتحمسة أحياناً ومجبرة مكرهة في أغلب الأحيان ، ويتدافع فيها الجنود لممارسة القتل والتدمير دون عطف أو رحمة ويتسابقون فيها نحو البطولة التي لاتعنى ، في حالة الحرب ، سوى المزيد من البشاعة ، فأكثر الجنود بطولة هو من قتل أكثر ومارس

١) مارتن فإن كريفلد – حرب المستقبل – ترجمة د . السيد عطا – الهيئة اللمصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٥م ص ٥٢ وما بعدها .

العنف في اقصى درجاته ، ولمثل هؤلاء تقام الصروح والتماثيل وتمنح الأوسمة والنياشين وتعزف الاغاني والاناشيد ، ومن غرائب الدهر ان تتحول الحروب إلى مايشبه الاعراس فيتزين لها القادة والجنود ، فيركبون اجمل الخيول المزينة بأجمل السروج ويلبسون ازهى الحلل في ميدان القتال ، أما أشد أسلحة الدمار فتكاً كالقنابل والبنادق والبوارج والطائرات والصواريخ فقد أضحت مما يسر العين ويشرح الخاطر بشكلها الآخاذ وحركتها الرشيقة ، وليس ثمة ماهو أجمل من عروض الجنود في يوم الاحتفال الوطني ، حيث تقرع الطبول وتدق الموسيقى وينبعث الحماس لتمجيد هؤلاء الجنود الذين هم مشروع قتلة أو استشهاد ، وحتى المعارك الحربية على مافيها من مآسي وأهوال أصبحت فرجة للناظرين ، فمنذ القدم كانت ساحات المعارك كميادين الرياضة ، ساحات للبطولات ومتعة للمشاهدين إذ تختلط زغاريد النساء وصياح الاطفال وملاحم الشعراء بصليل السيوف وضربات الرماح وصهيل الخيل ، كلها تشجع على القتل والإيذاء فتسيل الدماء وتقطع الرقاب وسط أمواج الفرح والأحزان . . .

أما حروب اليوم ، التي أتصفت بالإمعان في القتل والتدمير وابتكرت أقصى أدوات الخراب ، فإنها عند كثير من الناس ، مبعث الحبور والسلوى بما تنطوي عليه من صور مثيرة تنقلها الأقمار الصناعية حية على الهواء للناس في البيوت والمخادع . . . فها هي طائرة تنفجر في الهواء ، وبارجة تذهب إلى أعماق اليم ، بمن فيها وما عليها وصاروخ يذهب بدقة نحو هدف منشود فيحصد الالوف في طرفة عين ، وتدك المدن ويختفى العمران في لمح البصر ، دون أسى كبير عند مشاهد شاشة تلفاز قد لاتعنيه مشاهد القتل والدمار وربما ذهب إلى الفراش قرير العين . . .

إن البشرية التي يؤذيها مشهد مصرع انسان بحادث على قارعة الطريق ، وتتألم لمنظر احتضار رجل عجوز وافاه اجل محتوم ، هي نفسها التي تتقبل مآسي الحروب وتذهب إليها مملوءة بالحماس ومتحفزة للقتال . . .

بل أن كبار الساسة ورجال الدولة يعدون الحرب لعبتهم المفضلة ، فقد كان (تيودور روزفلت) لايعشق شئ بقدر حبه لمعركة مثيرة . أما (ونستون تشرشل) فقد كتب عشية الحرب العالمية الأولى رسالة لأحدى صديقاته يصف لها فيها كم هو منفعل متحمس ويشعر بالإثارة إزاء هذه الحرب ، وفي عام ١٩٤٥م شعر مع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية وكأنه مقدم على الإنتحار . وقد كتب (جورج باتون) مرة في يومياته يصف كم يحب الحرب ! .

وقد كتب بعضهم أن رعب القتال يبعث في النفس إنفعالات مثل الإثارة والانتعاش بل وحتى دوخة النشوة ، بل أن رعشة النشوة في القتال قد تكون أشد مما يشعر به المرء في المخدع [٢] .

وهكذا يعتني الناس بالحرب ، ساسة وقادة وشعراء ومطربون وينظر لها المفكرون ، فهذه حرب عادلة وتلك مشروعة وأخرى وقائية وهذا نصر مؤزر وتلك هزيمة مجيدة . . . كل ذلك بغض النظر عن الرعب والأهوال ومنظر الضحايا والمنكودين . . .

هذه هي الحرب التي تخصص لها الأمم والشعوب أعز ما لديها ، زينة شبابها وأغلى أموالها ، فما من أمة على مر التاريخ إلاّ حشدت صفوة رجالها وجعلتهم شبه عاطلين رهينة للحرب ، وما أكثر الأمم التي أقتطعت الأرزاق من أفواه الجائعين تحسباً للحرب وعدة لها ، فالجوعى يمكنهم الانتظار والنمو

---

٢) مارتن فإن كريفلد - حرب المستقبل - ص ١٩١ وما بعدها .

يمكن تأجيله ، أما عدة الحرب فهي دائماً في المقام الأول . . . وهذا من أجل حرب قد تقع وقد لاتقع أبداً .

٢ - ولكن لماذا كل هذا ؟

إن الاجابة على هذا السؤال قد أعيت المفكرين والساسة وقواد الجيوش والأستراتيجين . وقد ذهب بعضهم إلى وصف هذا السؤال بالتبسيط والسذاجة ، فالسائل في هذه الحال هو كمن يسأل لماذا نأكل ؟ أو لماذا ننام ؟ . . . فالحرب إذن ظاهرة طبيعية مثل الأكل أو النوم .

إن هذا السؤال ليس عبثياً على أية حال ، ذلك أن لكل معلول علة ، فللحرب عللها وأسبابها ، وإذا أمكن التعرف على هذه العلل والأسباب ، فإن ذلك يخلق الفرص للتقليل من إحتمالات إندلاع الحرب أو هو في الاقل يشير إلى قرب وقوعها مما يمكن من تفادى بعض أهوالها ، فالناس لاتذهب إلى الحرب عبثاً ولاتفجرها دون اسباب .

إننا نطرح بعض الأسئلة المهمة مبكراً ، فما أسباب الحروب ؟ وهل تندلع الحروب لأسباب شخصية تدفع إليها أهواء الساسة والزعماء ، الذين يمكنهم اعلان الحرب أو الذهاب للسلام ؟ أم ان الحروب تندلع لأسباب موضوعية تقود إليها حتماً ؟ ومأأثر توازن القوى في صنع الحرب والسلام ؟

وماذا نعنى أولاً بالحرب ؟

الحرب والنزاع...

٣ - إننا نعنى بالحرب تلك المعارك الواسعة التي تؤثر في المجرى العام للتاريخ ، فالحرب على وفق ما نعنيه في هذا الكتاب ، ليست كل صدام

مسلح بين دولتين ، متى كان هذا الصدام محدوداً في آثاره بين طرفي النزاع دون تأثير جوهري في الاوضاع الدولية بشكل عام وذلك بغض النظر عن المدى الزمنى الذي تستغرقه أو حجم ماتخلفه من ضحايا ودمار . . . فنحن في هذه الدراسة لانعنى بالحرب معناها الحرفي ، فما يجرى بين السنهاليين والتاميل في سيريلانكا هو حرب بالمعنى الحرفي ، لكن ما تأثيراته الجوهرية على المستوى العالمي أو الاقليمي؟ إنها تأثيرات معدومة أو محدودة ولذلك فإننا نصفه نزاعاً وليس حرباً ؟ إن مايجرى في رواندا أو بورندى هو شئ من هذا القبيل ، صراع مسلح بين قبائل التوتسي والهوتو محدود الآثار ومعروف الأسباب ، فهو نزاع وليس حرباً وحتى ماجرى في البلقان من صراع بين الصرب والكروات ومسلمى البوسنة والهرسك كان يمكن ألاً يرتفع إلى مصاف الحرب لو لم تتورط فيه القوى الكبرى ويحدث ما حدث من آثار على المستوى الاقليمي والعالمي .

إن هناك جملة من الحروب الصغيرة التي جرت والتي ستجرى لأسباب ظاهرة ومعروفة ، دينية أو قومية أو نزاعات على الحدود أو الموارد بين الدول أو في داخلها ، فهذه وإن سميت حروباً إلاّ أنها لاتخرج عن حدود النزاع والصراع ، وهي تبدأ وتنتهي دون آثار عامة على مستوى العالم أو حتى على المستوى الاقليمي .

إن ما نعنيه بالحرب ، التي تستدعى البحث والتعليل ، هي الحروب الكبرى والصدامات العالمية والإقليمية التي تبدل مجرى التاريخ وتغير موازين القوى وتخلق المنعطفات الهائلة في الاوضاع الدولية . . .

إن من طبيعة هذه الحروب أن تخلف الكثير من الضحايا وتحدث الكثير

من الدمار وتخلق اللحظات الفاصلة في التاريخ ؛ وليس من الضروري ان تتخذ هذه الحروب طابعاً عالمياً فتنجر إليها بصورة مباشرة كل الأطراف الدولية الفاعلة ؛ فإن كانت هذه هي الصورة الغالبة لمعنى الحرب ، إلاّ أن هناك الكثير من الحروب الإقليمية التي تحدث آثاراً مشابهة للحروب العالمية الكبرى ، لأنها تؤثر في مجرى التاريخ العام وتسهم في تشكيل توازنات القوى العالمية والإقليمية وتغير جهة التاريخ نحو مسار جديد ؛ ومن هذا القبيل الحروب الأوربية في القرنين الماضيين ، وحروب الشرق الأوسط المتتابعة ، وحربي الخليج الأولى والثانية ، وحروب فيتنام وكوريا . . . الخ ، فهذه الحروب جميعاً انعكست على النظام الدولي وساهمت في إرساء توازنات القوى وشكلت بالنسبة إلى التاريخ علامات واضحة لتؤرخ نهاية حقبة و بداية آخرى . . .

ذلك هو المعنى المقصود بالحرب التي نبحث في عللها وجراثيمها .

٤ - وقد انقسم المفكرون والسياسيون والإستراتيجيون في البحث في أسباب الحرب مذاهب شتى ، فمنهم من لم يجهد نفسه في البحث في أسبابها ومنهم من أخضعها لأسباب مباشرة وعلل عابرة ومنهم من حاول الغوص في الاعماق لتقصى اسباب الحروب الدفينة والعلل التي تؤدي إليها .

ويمكن تقسيم هذا الفكر ـ بغض النظر عن التفاصيل ـ إلى تيارين رئيسيين ، يذهب الأول ، إلى أن الحروب هي مسائل استثنائية عارضة ، مرهونة بإرادة رجال الدولة والمسؤولين عن الحكم ، فالحوب ليست سوى شأن من شؤون الأمراء ، قد تجرى لأسباب عميقة كما قد تتم لأسباب تافهة لاتخلو من النوازع والأهواء ، أما التيار الثاني فيذهب إلى أن للحروب أسبابها العميقة ومقدماتها الضرورية ، فليس من اليسير أن تنقاد الأمم والشعوب إلى

الحرب وتتحمل كل آلامها لسبب تافه أو استجابة لغواية أمير طائش ،فهذه الأسباب قد تقود إلى النزاع والصدام ، لكنها لاتصنع الحرب بالمعنى الذي حددناه . . .

ويذهب هذا الاتجاه نحو (توازن القوى) بإعتباره قانوناً يصنع الحرب كما يصنع السلام .

إننا نؤمن بأن لكل معلول علة يدور معها وجوداً وعدماً ، فالحرب كأي ظاهرة أو شئ آخر لابد وأن ترتبط بعلة ما تدور معها وجوداً وعدماً ، ونحن مع المذهب الذي يضع عينه على (توازن القوى) ، فهو علة الحرب والسلام معا ، سواء على المستوى الدولي أو الإقليمي . . .

٥ - إن المسألة هنا تنطوى على تناقض ظاهري ، فكيف تشكل علّة واحدة وضعين متناقضين . . .

نقول أن التناقض ظاهري ، لأن (توازن القوى) ليس صيغة واحدة ولاهو بقالب جامد ، إنه متعدد الأشكال والألوان فمنه مايقود إلى الحرب ومنه ما يصنع السلام غير أن هذه الحقيقة لن تتضح بصورة جلية إلاّ مع اكتمال البحث . . .

لكنا قبل ذلك سنعرض وجهات النظر المختلفة التي بحثت في الحرب وأسبابها ونتوقف عند بعض النماذج الفكرية والسياسية والعسكرية البارزة . . . دون أي إدعاء بأن هذه النماذج تمثل مسحاً كلياً للفكر السياسي والعسكري .

ليدل هارت وجرثومة الحرب...

٦ - من الممكن إعتبار (هارت) أحد النماذج الفكرية البارزة التي أولت

جهداً ملحوظاً للبحث في علة الحرب وأسبابها ، غير أنه لم يتوصل - في إعتقادنا - إلى أسبابها الحقيقية ، فقد ذهب (ليدل هارت) إلى ان الحروب تنشأ نتيجة الأخطاء والهفوات ، فهي مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، فالحرب (تنشأ لأن الأحقاد والمصالح والأطماع والنزوات لطالما اعمت الأبصار وأشعلت الحرائق وأراقت الدماء ، ومن شأن قصر النظر أن يولد ضيق الأفق وانقباض الصدر وسرعة الانفعال) (٣) .

إن هذا المؤرخ المرموق يرجع الحروب إلى هذه الانفعالات الإنسانية ، فإذا تخلص الساسة من أحقادهم وأطماعهم ونزواتهم ، فإننا يمكن أن نتجنب الحرب .

ولكي يدعم (هارت) وجهة نظره فإنه يعود إلى الوقائع التاريخية ويحاول تحليلها ، ولكنه عوضاً من البحث العميق يلجأ إلى الأسباب الظاهرية ، فيبحث في القشة التي قصمت ظهر البعير عوضاً عن الأسباب الحقيقية التي هيأت ظهر البعير كي تقصمه القشه .

فهو مثلاً يرجع أسباب إندلاع الحرب العالمية الأولى ، إلى نزوات الحكام والوزراء والجنرالات ، فيقول (ولو أردت أن تسلط الاضواء على الطرائق العلمية التي تؤدي إلى تفجير الحروب الدامية الطاحنة الكبرى ، فإنك لن تجد مقدمة أفضل وأوضح من دراسة تاريخ السنوات الخمسين التي سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م . ولكنك سوف لاتعثر على الجذور الغائرة والأسباب الحقيقية في التقارير الحكومية والوثائق الرسمية التي كتبها أو جمعها الحكام والوزراء والجنرالات ، بل هوامشهم الجانبية وأحاديثهم

٣) ليدل هارت - التاريخ فكراً استراتيجياً - تعريب طالب مشتاق - بغداد - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م ، ص ٤٨ .

الشـخـصـيـة . وحين ذاك سـوف تطلع على عـصـبـيـاتهم الغـريزية ونزواتهم الإنفعالية ، وإفتقارهم إلى الحرص على الحقيقة الموضوعية الدقيقة الكاملة وإستهتارهم المريع بالأقوال المحسوبة والتصريحات الواضحة المدروسة . . . الخ[٤]

ويخلص إلى أن بذور وأسباب جراثيم الحرب كامنة في أنفسنا ، وليس في الأقتصاد أو السياسة أو حتى الدين بحد ذاته ، فكيف نأمل أن يتحرر العالم من الحرب ، إذا لم نحرز أنفسنا أولاً من الأسباب التي تولدها والدوافع التي تفجرها ، وهي الطمع والتعصب والغرور والجهل[٥] .

وبعد تحليله النظري هذا فإنه يقوم بتفسير الحرب العالمية الأولى فيرجعها إلى أسباب تافهة ، فهي نتاج غرور قيصر ألمانيا (غليوم الثاني) الذي أعماه الحقد والحسد على الامبراطورية البريطانية ، وإلى مقتل ولي عهد أمبراطورية النمسا الأرشيدوق (فرانز فرديناند) ، ففي نظر هارت ، فإن إقدام حفنة من الشباب الصرب المتعصبين على اغتيال الإرشيدوق هو الذي فجر الحرب العالمية الاولى . . .

فاغتيال ولي العهد النمساوي دفع بقيصر المانيا إلى تحريض النمسا ، لأن مقتل أميرها هو اعتداء على هيبة الملكية في أوربا برمتها (أنظروا إلى هذه الذريعة الصغيرة) ، وإعلان النمسا الحرب على صربيا ، والتي هي شوكة في ظهرها ، دفع روسيا إلى دخول الحرب دفاعاً عن الصرب ، إبنها المدلل وذلك بعد ان تثبتت من تحالف فرنسا ، الذي دفع المانيا إلى إعلان الحرب على روسيا وفرنسا ، وبما ان هزيمة فرنسا ، تتطلب الإلتفاف عليها من الاراضي البلجيكية ،

---

٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

٥) المرجع السابق ص ١٥٠ .

فإن الاعتداء على بلجيكا يخرق حيادها وهو ما دفع بريطانيا إلى دخول الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا .

إن هارت يرجع الحروب في الغالب إلى العنصر الشخصي الكامن في قصور رجال السياسة والقادة العسكريين ، ومعظم الحروب في نظره لم تكن ضرورية ، لو تحلى هؤلاء بالصبر والحكمة . . . غير أن نظريته هذه كثيراً مابدت له نظرية قاصرة ، فيعترف احياناً أن الحرب تنشأ بسبب المصالح وموازين القوة . . .

ويدعو هارت إلى دراسة التاريخ بصورة جيدة ، إذ لا توجد وصفة سحرية لمنع الحرب ، لكن استقراء التاريخ وتحليل الماضي ، وإستنباطاً للدروس المفيدة ، وإستخراجاً للنتائج والعبر ، هو ما يمكن ان يعطينا بعض المؤشرات إلى منع الحرب ، ويعارض هارت المقولة الرومانية (إذا أردت السلام فاستعد إلى الحرب) بالقول (إذا اردت السلام فافهم الحرب) ، أما هو وقد صرف معظم عمره في دراسة ظاهرة الحرب فيعطى خلاصة مستنبطة من كتاب المفكر الصيني (صن تزو) الصادر عام ٥٠٠ ق .م فيقول هارت (ادرس ظاهرة الحرب ، وتعلم من تاريخها ، كن قوياً إذا أمكن . ولكن كن هادئاً في جميع الظروف والاحوال . تمسك دائماً بالصبر الجميل والنفس الطويل والنظر البعيد . لاتسد المنافذ والمخارج والابواب على عدوك من جميع الجهات ، وساعده إذا استطعت على انقاذ ماء وجهه . ضع نفسك في مكان عدوك ، فتفهم كيف ينظر إلى العالم من حوله ولماذا يتصرف كما يفعل . . . الخ) [٦]

وهكذا فإن أي تامل لفكرة التاريخ يقود إلى تأكيد المسائل المعنوية والاخلاقية وطغيان العنصر الشخصى .

---

٦) المرجع السابق ص ١٧٠ .

ولقد وقع هارت في تناقضات شديدة واخضع التاريخ إلى منطق التبسيط ، فليس من المقبول ان تجر الأم للحروب والفضائع بسبب القادة وغرورهم ومصالحهم الشخصية ، وكيف يمكن ان تجر الجيوش برمتها وفيها ما فيها من القادة ، سياسيين وعسكريين ، نحو نزوة عابرة ، وكيف يقبل الجند الصراع والموت من اجل أهداف ليست واضحة؟ وكيف يموتون من اجل مصالح لاتتحقق الا بعد موتهم ؟ وهل هناك مصلحة لما بعد الموت ؟ ان منطق هارت قاصر للغاية عند تفسيره للحرب ، ومقولته (إذا اردت السلام فافهم الحرب) لاترتقي إلى قوة المنطق الروماني (استعد للحرب) فهذا هو الاستنتاج التاريخي الاعمق ،اما تفسيره الحرب العالمية الاولى ، فهو تفسير قاصر ، لأن هذه الحرب لم تندلع بسبب مقتل الأرشيدوق النمساوي ولاغرور قيصر الالماني ، بل اندلعت بسبب (توازن قوى من نمط معين) هو في الواقع جرثومة الحرب ، وسنعطي تفسيرا للحرب العالمية الاولى وغيرها من الحروب بعد تحليل ظاهرة توازن القوى ومعرفة اشكالها ، لأن ذلك هو الذي يفسر الحرب بشكل علمي .

جراثيم الحرب الأخرى...

٧ - يقدم (جيمس لي ري) في كتابه (الحروب في العالم) خلاصه محاولات أخرى للحد من الحرب . . . فهي تبدو ظاهرة ليست عقلانية في تاريخ البشرية ، وقد بذل المفكرون جهوداً ذهنية ضخمة لمعرفة اسبابها والعمل على ابطال مفعولها وهم وان لم ينجحوا بعد في تعرف جراثيمها فإنهم يشيرون إلى مايمكن ان يضعف احتمالاتها ، وعلى وجه الخصوص (الاقتصاد ، أو زيادة التبادل التجاري بين الشعوب ،وتقدم التكنولوجيا الذي سيخلق الجودة المرعبة للاسلحة ، وتحقيق السلام عبر التقدم الاخلاقي وذلك عبر القبول بان

شن الحرب ليس مقبولا على الاسس العقلانية والاخلاقية ، واخيرا تحقيق السلام عبر الديموقراطية ، فالديموقراطيات نادراً ما تصطدم احداها بالأخرى) (٧)

السلام عبر التبادل التجاري...

٨ -خلاصة هذه النظرية امكانية تحقيق السلام من خلال خلق شبكة من العلاقات الاقتصادية بين الدول وتوسيع حرية التبادل التجاري بينها ، فقد كانت الحرب تندلع بسبب التناقضات الاقتصادية بين الدول كما أن تكلفة الحرب نفسها زهيدة مقارنة بما يجنيه من يربح الحرب بالحصول على الموارد الطبيعية واليد العاملة . . . أما عند ضمان تبادل تجاري حر يخلق علاقات اقتصادية متشابكة ومنافع متبادلة فضلاً عن التكاليف الباهضة للحرب اليوم ، فإن هذه الأوضاع الاقتصادية ستضعف احتمالات الحرب(٨) .

إن هذا الطرح يمثل استجابة – وان كانت متأخرة . للتحليل الماركسي للتاريخ الذي يحصر الصراع الانساني –سواء على المستوى الوطني أم الدولي – في العوامل الاقتصادية .

ويشير (ري) إلى أنصار هذه النظرية ودعائمها ، كما يطرح وجهة النظر

---

٧) جيمس لي ري – الحروب في العالم (الاتجاهات العالمية ومستقبل الشرق الاوسط) مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية – الطبعة الاولى ١٩٩٥م ص ٨ وما بعدها .

٨) ان ذريعة التشابك الاقتصادي والتجاري كطريق للسلام هي إحدى اللذرائع التي يطرحها دعاة الشرق أوسطية وذلك بحجة أن قيام العلاقات الاقتصادية بين العرب والكيان الصهيوني ستضعف كثيرا من احتمالات الحرب بين الطرفين فاعتمادهما المتبادل على بعضهما بعض يجعل الحرب فكرة خاسرة بالنسبة الى الطرفين . . ولتنفيذ هذه الحجة يمكن مراجعة كتابنا – العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين – منشورات مكتبة طرابلس العالمية – طرابلس ليبيا – ١٩٩٥م ص ٦٨٥ .

المناقضة التي تدل على أن هذا العالم لم ينجح ، غالبا ، في نزع فتيل الحرب ، بدليل أن معظم الحروب الدولية اندلعت بين امم تتشابك مصالحها الاقتصادية . . . فالحربان العالميتان اندلعتا بين الأمم الاوربية ، وهي أمم عرفت اوسع مصالح اقتصادية متشابكة ومرونة كبيرة في التبادل التجاري .

ان التبادل التجاري قد يصلح لتفسير اسباب الحرب ، لو كانت المصالح الاقتصادية وحدها هي المسؤولة عن الحرب والسلام ، غير أن أسباب الحروب المباشرة كانت في غالب الاحوال عوامل أخرى ، قومية ودينية في الاخص ، فكثيرا ما اندلعت الحروب بين أمم متجاورة تربطها مصالح اقتصادية واسعة ، بل أن الحروب الاهلية التي تجري بين شعب واحد لايشك في اعتماده على بعضه البعض .

ان هذه الفكرة سبق وأن نادى بهما عدد من المفكرين الأوربيين وعلى رأسهم (جيرمي بنتام) الذي أفزعته الحروب الأوربية فنادى بنوع من الوحدة في العالم المسيحي وهي وحدة يجب ان تستند إلى التبادل الحر وإزالة القيود الجمركية بين الدول الأوربية وتمتين العلاقات الاقتصادية .

إنه لا يمكن إلغاء فعالية العامل الاقتصادي في حركة التاريخ بما فيها من الحروب والنزاعات ، غير أن الواقع التاريخي لايسمح بإعطاء هذا العامل أكثر من حجمه ، فإذا توافرت للحرب أسباب قوية فإن الدول تصرف النظر عن المنافع المادية البحتة .

٩ - إن هذا العامل على أي حال ينطوي على بعض الأهمية لكنه لايستطيع أن يعلل لوحده ظاهرة الحرب ولايستطيع أن يطفئ فتائلها ، وأمامنا اليوم عدد لايحصى من الأمثلة على تراجع قيمة مثل هذا العامل ، ولعل من

أبرز الأسئلة هو الصراع العربي الصهيوني وموقف الأطراف الدولية منه ، على الرغم من الامكانية الاقتصادية للوطن العربي وحجم المصالح التي ينطوي عليها بالنسبة إلى أي طرف دولي ، فإن دولاً عديدة في مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية اختارتا الانحياز للعدو الصهيوني انطلاقا من مصالح استراتيجية وثقافية رأت أن تضعها في المقدمة وبنتا عليها سياستيهما .

وخلاصة الأمر أن هناك شكّاً عاماً في قيمة هذا العامل في نزع فتائل الحروب ، بل إن هناك من ذهب إلى أن الاعتماد المتبادل بين الدول قد يؤجج النزاعات ، لأن الاعتماد المتبادل لايلغى فكرة التنافس الاقتصادي بين الدول ، وذلك هو الحال اليوم بين الولايات المتحدة الامريكية وأوربا واليابان . . . [٩]

الديموقراطية والحرب...

١٠ - هناك أيضا بعض الاعتقاد الشائع بأن نمو الديموقراطية في العالم سيقلل من فرص الحرب ، فوصول الشعوب إلى درجة متطورة من الديموقراطية سيخلق حالة من التفاهم بين الشعوب .

إن انصار هذا الرأي ينطلقون من الافتراض بأن الحرب هي نتيجة للتناقضات الفكرية والسياسية والحضارية وكلما خطت الشعوب صوب الديموقراطية فإن هذه التنناقضات ستخف ، كما أن الديموقراطية تنتج بطبيعتها مؤسسات مسؤولة تجعلها أكثر تقديراً للمجازفات ، أما الأنظمة الدكتاتورية فإنها بطبيعتها تضع أخطر القرارات ، بما في ذلك قرارات الحرب ، بين يدي فرد أو قلة عديمة المسؤولية ، ويدعم هذا الاستنتاج ، بان معظم الحروب التي جرت كانت تصادما بين أنظمة متناقضة وكانت حصة الدكتاتوريات هي الأكبر في

---

٩) انظر في عرض هذه الآراء - جيمس لي ري - الحروب في العالم - سبق الاشارة اليه - ص ١٢ .

إشعال الحروب . فانه لا يمكن الاستخفاف بمثل هذا الرأي ، غير أن الوقائع التاريخية لاتنطوي على تأكيد كبير له ، فتناقضات الأنظمة لاتدفع إلى الحرب ضرورةً ، كما أن تماثلها لم يمنع الحرب .

فالحروب الأوربية التي اشتعلت طوال القرنين الماضيين ، جرت بين أنظمة متشابهة في تكوينها الحضاري والثقافي ، كما أن تحالفات عديدة جمعت أطراف متناقضة لمواجهة رأي عام تجمعه مع بعض أطراف التحالف قيم واحدة ومؤسسات متشابهة . .

فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى بين الأمم الأوربية ، ليس بسبب تناقضاتها السياسية أو الحضارية ، ولكن بسبب الأطماع والصراع على مناطق النفوذ وذلك بصرف النظر عن أنماط الحياة السياسية الداخلية ، وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت بين أطراف متناقضة نسبيا ، الا أن السبب لايرجع إلى هذا التناقض ، بل يعود إلى الأسباب نفسها ، وهي الرغبة في التوسع والسعي للإخلال بموازين القوى ، فقد كان من المحتم أن تندلع الحرب أيّاً كانت المؤسسة الحاكمة في المانيا ، ومهما كانت درجة التطور الديمقراطي فيها ، ومن المشكوك فيه أن تسكت المانيا على الظلم التاريخي الذي لحق بها من جراء معاهدة فرساى والخلل الخطير في ميزان القوى الذي وجدت نفسها فيه ، فسواء حكم هتلر أو براندت أو كول ، فإن الحرب كانت واقعة لا محالة .

كما أن تحالفات هذه الحرب تسقط حجة تماثل الأنظمة ، فقد تحالف الغرب (الديمقراطي) مع روسيا الشيوعية ، ضد ألمانيا النازية ، وقد كان تقارب الأنظمة وتماثلها يوجب تبديلات اساسية في هذه التحالفات . . . .

إن الحرب الباردة تقدم أمثلة جديدة ، فالتناقض الأيديولوجي لم يدفع

إلى الحرب الساخنة ، وتشابه الانظمة لم يرسم خطوط التحالف ، فقد كانت الدول الغربية ، مهما كانت ظواهر الأمور ، على خلافات واسعة تقل قليلاً من الخلافات السوفيتية الأميركية ، كما أن التماثل الأيديولوجي بين الاتحاد السوفيتي والصين لم يدفعهما للتحالف التلقائي .

هذا من جهة ، أما من جه أخرى ، فما الديموقراطية التي يمكن أن تمنع الحروب ؟ اننا نعتقد ان ديموقراطية حقيقية واسعة ، تقوم على اشتراك الشعوب بصورة جدية في الحكم يمكن أن تسهم في تحقيق السلام ، فمن غير المعقول أن تنساق الشعوب نحو الحروب لأسباب تافهة أو مصالح ظرفية عارضة ، كما أن الشعوب لاتنام عن الأحقاد في المواجهة مع بعضها ، غير ان أي ديموقراطية هزيلة ، بما في ذلك ديمقراطية الغرب المزعومة لايمكن ان تقود إلى السلام . . . فما زال طريق الديموقراطية طويل ، ومازالت هذه الديموقراطية عاجزة عن وضع المسؤولية بين يدي أكثر الرجال جدارة بالحكم .

ومن المؤسف حقا أن معظم المآسي الإنسانية وفي مقدمتها قرارات الحروب قد أثارتها هذه الديموقراطية الهشة ، فالديموقراطية الأميركية على سبيل المثال هي التي أشعلت الحرب في فيتنام وهي سبب معاناة الشرق الاوسط وهي التي تفجر المذابح في افريقيا وهي التي حرضت على حروب البلقان وصنعت مجازر الناس والتصفيات العرقية في كل مكان . . . وهي التي ستقود عالم الغد ، إذا انعقد لها اللواء ، نحو المجاهل المظلمة[١٠] .

١٠) يمكن ان ينظر في جرائم هذه الديمقراطية مؤلفات ناعوم شومسكي - قراصنة واباطرة ، وردع الديمقراطية ، والاول من ترجمة ومنشورات حوران للنشر - دمشق ط ١ - ١٩٩٦ - اما الثاني فهو ترجمة ومنشورات مركز دراسات الوحدة العربية بيروت - ط ١ - ١٩٩٧م

ان ديموقراطية الغرب تتناقض بشكل سافر مع شعاراتها ومبادئها المعلنة وهي من أكثر النظم خداعاً ، ومن الذي لايذكر شعارات (ويلسون) ومبادئه المعلنة التي تدخل على اساسها في الحرب العالمية الاولى ، فقد كان الشعار (جعل العالم آمناً وديموقراطياً) ، وعندما وضعت الحرب اوزارها اتضحت الحقيقة ، حيث كبلت الدول بالاتفاقيات الظالمة ، وهي الاتفاقيات التي بذرت بذور الحرب العالمية الثانية ، كما ان عصبة الامم ، وهي المحاولة الأكثر جدية لاقامة نظام عالمي قد سقطت نتيجة رفض الكونجرس التصديق عليها .

إن ابشع الجرائم الانسانية قد ارتكبها قادة هذه الديموقراطية المزعومة ، فترومان وليس هتلر هو من امر بالقصف الذري ، وريغان وليس بريجينيف هو من امر ببرنامج حرب النجوم ونقل الحروب إلى السماء بعد ان ضاقت به الارض على ما اتسعت .

انها خديعة كبرى ان يقال ان الديموقراطية الغربية هي نظام لانتاج القادة الأكثر مسؤولية ، فمعظم الحروب والمآسي الاستعمارية والمذابح والنهب والسلب تمت بأوامر مباشرة من هؤلاء الذين يوصفون بانهم قادة عقلانيون . . . فظاهرة الاستعمار الحديث هي من صنع الديموقراطية البريطانية العريقة والثورة الجمهورية في فرنسا التي قامت على شعارات الأخاء والعدل والمساواة ، اما الثورة الاميركية فقد كانت محصلتها الأخيرة المحو النووي والقصف الجوي بقنابل النابالم في فيتنام . . . اما الديموقراطيون الصغار ، فقد ساروا على خطا أسيادهم وحملوا الرسالة من بعدهم ، ومهما كان خداع وسائل الاعلام فإنها لاتستطيع التاثير على ذاكرة التاريخ التي تحتفظ لهذه الديموقراطية بابشع الصور المسجلة في القرن العشرين ، كمذابح صبرا وشاتيلا وقانا في لبنان وشهداء

التمييز العنصري في ناميبيا وجنوب إفريقيا وملايين البائسين في آسيا وافريقيا وأمريكيا اللاتينية .

١١ - إن من يتأمل صفحات تاريخ الغرب المخزية ، من الصعب عليه ان يقبل الادعاء بان الديموقراطية الغربية ستقود نحو السلام أو انها تنتج القادة المسؤولين أو المؤسسات العاقلة ، فالديموقراطية التي انتجت (بوريس يلتسن) ليقصف البرلمان عند اول معارضة ، (وبل كلنتون) دون جوان العصر الحديث لايمكنها ان تكون قادرة على تحقيق السلام ، وهي على أية حال الديموقراطية نفسها التي قادت هتلر وموسليني إلى كراسي الحكم ، وهي الديموقراطية نفسها التي جعلت الكونجرس الاميركي يتحول إلى اداة للتحرش بالشعوب بعد ان انجبت للبلاد أفضل رئيس من حيث التحرش بالنساء .

ولقد حاول الغرب ، بعد نهاية الحرب الباردة ، الترويج لفكرة الربط بين الديموقراطية والسلام ، وانطلق بعض مفكريه للترويج لهذه الفكرة ، وذلك بتحريض مباشر من اجهزة المخابرات ، فقد اطلق (فوكو ياما) شعاره المعروف نهاية التاريخ ، الذي ينطوي على الادعاء بان انتصار النموذج الديموقراطي الغربي وتعميمه سيؤدي حتماً إلى عالم أكثر استقراراً .

غير أن فوكوياما نفسه يعترف بأن افتراض نشر الديمقراطيه على المستوى العالمي لن ينهي حاله التوتر ، لأن الحرب ليست دائماً جهاد من أجل قضيه عادله ، فالسلام والرخاء أيضاً يولدان الملل ، بل أن هذا الملل ينطوي على عواقب أخطر من عواقب الحرب ، وهو يستدعي أحداث فرنسا عام ١٩٦٨م التي انتهت إلى إنسحاب الجنرال(ديغول) من الحياه العامة ، فقد عاشت فرنسا أفضل سنوات الحرية والرخاء ، إذ لم يكن ثمة سبب عقلاني يدفع إلى

التمرد ، كما لم يكن للمتمردين رؤية متماسكة بوضوح للمجتمع الأفضل ، ومع ذلك حدث التمرد ، ويعيد(فوكوياما) السبب إلى غريزة الصراع الكامنه في أعماق الفرد ، فيقول (ولكن لنفرض انه العالم (امتلأ) بالديموقراطيات الليبراليه ولم يعد بعد طغيان أو استبداد ملموس يمكن الجهاد ضده ، تفيد التجربه بانه متى لم يتمكن الناس من الجهاد في سبيل قضيه عادلة بسبب انتصار تلك القضيه العادلة في جيل سابق ، فإنهم سيجاهدون ضد القضيه العادلة ، سيصارعون من أجل الصراع . أي أنهم سيصارعون لشعورهم بالملل حيث إنهم لايتخيلون الحياة في العالم دون صراع . فإن تميز الشطر الأعظم من العالم الذي يحيون فيه بالديموقراطية الليبرالية والسلام والرخاء ، فسيجاهدون ضد هذا السلام وهذا الرخاء وهذه الديموقراطية (١١) .

وغير (فوكوياما) ظهرت في الغرب مقالات كثيره تحتفل بنهاية الحرب الباردة ، وتدعو إلى إعادة صياغه العالم على اسس جديدة تتوشح بافكار نشر الديمقراطيه وحقوق الانسان وتحرص على محاربة الأنظمة والدول والقوى المناهضة لسياسات الغرب وليس لقيمه .

إن هذه الحملة تعيد إلى الأذهان سيرة الغرب الإستعمارية خلال القرنين الماضيين ، إذ بررت القوى الإستعمارية (وهي قوى وصفت نفسها بانها ديموقراطية) بررت حملتها البشعه بما اسمته (عبء الرجل الابيض) إذ يتوجب على الغرب حمل مشاعل الحضارة والتنوير إلى الشعوب المتخلفة ، أما النتيجه فقد كانت ، مئات الملايين من الضحايا وحقبة من التخلف فرضت على هذه الشعوب المنكوبة .

---

١١) فرنسيس فوكوياما - نهاية التاريخ وخاتم البشر - ترجمة حسين امين - مركز الاهرام للترجمة والنشر القاهرة (ط ١ - ١٩٩٣م) ص ٢٨٦ .

١٢ - ومثلما ظهرت دعاوي الديموقراطيه ، فإن هناك من يميل إلى الاستنتاج بأن التطور التكنولوجي قد يؤدي إلى إرساء دعائم السلام ، وهناك حجج عديدة لدعم هذا الرأي ، غير أن أهم هذه الحجج يتعلق بالأسلحة النووية ، فهذه الأسلحة لم تجعل الحرب مسأله مكلفة وحسب بل انها ستقود إلى الانتحار الشامل .

إن هذا السلاح المرعب ربما تحول إلى أداة عاجزة في أيدي أصحابه ،ذلك بعض من نظرية (هنري كيسنجر) الذي واجه مبكراً هذه المعضلة ، وحاول الخروج منها بابتكار نظريات استراتيجية تحول العجز النووي إلى أداة فعالة في ايدي الدبلوماسية .

إن الجدل ما زال مستمراً حول أهمية السلاح النووي لتحقيق السلام ، وانه لمن سخرية القدر أن تتحول أداة الرعب إلى أداة للسلام ، إذا نجحت الأسلحه النووية في ذلك .

ويستعرض(جيمس لى رى) في كتابه الحروب في العالم أهم الأراء في هذا الشأن ، فمنذ تفجير القنابل النووية الأولى (في لحظه غضب كما يقول)[١٢] عام ١٩٤٥م اقلعت الدول الكبرى والأمم الصناعيه المتطوره عن شّن الحروب بعضها ضد بعضها الآخر ، ولم تخض دولتان تملكان أسلحة نووية

---

١٢) من الواضح ان الالحاح على وصف القصف النووي بانه جرى في لحظة غضب هو محاولة لنفي قلة المسؤولية عن الديمقراطية الاميركية ، بارجاع القصف الى عامل ضعف انساني ، ان هذا لا يمكن تصديقه بالطبع فقرار القصف النووي هو قرار استراتيجي بعيد الخطورة ومن المؤكد انه خضع لمناقشات مستفيضة من رجال القمة وعدد كبير من المستشارين والمؤسسات ولا يتصور عملياً ان يشترك هؤلاء جميعا في لحظة ضعف إنساني ويندفعون في اتجاهها في اللحظة نفسها .

حرباً مطلقاً احداهما بإزاء الأخرى ، فضلاً عن أن الحلفاء الرسميين للدول العظمى لم يخوضوا حروباً بين أعوام ١٩٦٠ و ١٩٨٠ حتى أنهم لم يتورطوا في اشتباك عسكري محدود ضد بعضهم بعضاً . وبالتالي يخلص عدد من المفكرين إلى القول بان للأسلحه النوويه اثاراً قويه في تحقيق السلام [١٣] .

غير أن هذه النظرة ، على الرغم من صحة الوقائع نسبياً ، تواجه بمعارضة واسعة ، فيرى(مويلر) أن العبء وحجم الدمارلا يقودان إلى السلام ،فما خلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية من دمار وخراب كان كافياً لتحقيق السلام لو أنه ارتبط فعلياً بهذا الدمار والخراب ، أما ما تحقق من استقرار نسبي فهو ثمرة لما أسماه بعضهم (النظرة العالمية للعصر الراهن)[١٤] .

انه التيار الأكثر واقعية في اعتقادنا ، هو ذلك التيار الذي لا يربط بين السلام وتطور الاسلحة ، فالسلاح يظل اداة حرب مهما كان شكله ، والرعب نفسه لايلغي احتمالات القتال ، فالموت هو الموت بالنسبة للفرد سواء كان مصدره خنجراً أم سلاحاً قادماً من الفضاء ، وما كان بالأمس سلاحاً فتاكاً يحصد الجموع هو اليوم أداة متخلفة موضوعة في المتاحف .

أن ذلك لا ينفي بالطبع جعل قرار الحرب أكثر عقلانية ، ولكنه لاينزع خيار الحرب من عقول المسؤولين عن أقدار الشعوب .

ان الوقائع التاريخية القريبة تدعم هذا الاستنتاج ، فوجود الأسلحة النووية لم ينف احتمالات المواجهة ، وهناك حالتان على الاقل وضع العالم فيهما على حافة الحرب النووية ، فقد ولدت ازمة برلين عام ١٩٦١م الحالة الاولى ، كما

---

١٣) جيمس لي ري - الحروب في العالم - سبقت الاشارة اليه ص ١٤ .

١٤) المرجع السابق ص ١٥ .

ولدت ازمة كوبا بعد ذلك بعام واحد الحالة الثانية .

ومن المؤكد ان ازمة برلين شهدت وضع الخطط الفعلية للمواجهة النووية بين دول الناتو ووارسو ، فعلى الرغم من أن (مكنمارا) وزير الدفاع الاميركي في ذلك الوقت يذكر بان البدء باستعمال الأسلحة النووية لم يكن خيار الغرب مهما بلغت حدة التأزم ، وقد كان ذلك مضمون نصيحته للرئيس (كندي) ، إلاً أن رئيس أركان الجيش الاميركي وضع خطته التي تنتهي بتوجيه ضربة نووية هائلة وشاملة ، وهذه الخطة وان عدلت فيما بعد لتفضى إلى نظرية الرد المرن ، ولكن هذه الخطة أيضاً تقوم على القصف النووي[١٥] .

ان أزمة برلين انتهت دون مواجهة نووية ، وقد كانت احد الحسابات التي دفعت إلى ذلك ، هو حجم الخسائر البشرية من الاوربيين والاميركيين التي كان بمقدور الاتحاد السوفيتي ان يلحقها بخصومه حتى بافتراض تدمير قواته النووية تدميراً شاملاً ، ومع كل ذلك فإنه لايمكن الاستنتاج بان السلاح النووي ابطل مفعول الحرب .

ان الحالة نفسها تكررت في كوبا عام ١٩٦٢م فقد حبس العالم انفاسه لأسابيع قبل ان تتم التسوية السلمية . . ومازالت استراتيجيات الغرب تقوم على افتراضات المواجهة النووية التي يجرى تطوير أسلحتها دون توقف .

اننا لن نناقش كثيراً مسألة دور الأسلحة النووية في تحقيق السلام ، فمع أن حرباً نووية لم تندلع خلال نصف قرن ، إلاً أن ذلك لا يلغى احتمالاتها في المستقبل ، وها هو روبرت مكنمارا يعلن بكل وضوح أن المواجهة النووية كانت

---

١٥) جون كونل – خط ماجينو الجديد – دار الحمراء – بيروت – ط ١ – ١٩٩٠م ص ١٣٨ . .

قاب قوسين أو أدنى عند الأزمة الكوبية ، فهو يقول أنّه اشترك بنفسه في كثير من القرارات التي تخص الإستخدام النووي ، وهي قرارات كانت في نظره منطقية ولامهرب منها .

لقد كانت الحرب النووية ممكنة ووشيكة إلى الدرجة التي جعلت مكنمارا يشك ذات يوم بأنه سيشهد عطلة نهاية أسبوع أخرى . وفي ندوة مصغرة عقدت في موسكو عام ١٩٨٩م حضرها مسؤولون سابقون أمريكيون وسوفيت لاعادة مناقشة (ازمة صواريخ كوبا) واستخراج العبر منها يقول (مكنمارا) أن مضيفيه السوفيت اخبروه انهم خططوا لنقل عائلاتهم خارج موسكو إلى الريف توقعا لضربة اميركية فوق موسكو .[١٦]

وما من شك لدينا ان العلاقة ضعيفة بين تطور الأسلحة والسلام ، فحجم الرعب والدمار قد يجعل قرارات الحرب أكثر عقلانية لكن الأمر لايمضى إلى ماهو أبعد من ذلك .

١٣ - ان الدور الذي يمكن ان تلعبه التكنولوجيا في تحقيق السلام قد يأتي من جهة أخرى ، وليس من تطور الاسلحة ، فمن الممكن أن يؤدي التطور التكنولوجي إلى فتح حوارات أكثر بين السياسيين مما يؤدي إلى نزع فتائل الأزمات المؤدية إلى الحرب ، وهي حوارات تتصف بالتبادل الواسع للمعلومات في زمن قصير ، فمهما كانت اسباب الحروب فإن بعضها يرجع إلى سوء التقدير والإفتقار إلى المعلومات وقلة الصلات المباشرة بين السياسيين ، فقد اثبتت الاحداث طيلة الحرب الباردة وما بعدها ان الأزمات الدولية الحادة يمكن

---

١٦) يراجع - روبرت مكنمارا - ما بعد الحرب الباردة - ترجمة محمد حسين يونس - دار الشروق للنشر والتوريع - ط ١ - ١٩٩١م ص ٨٩ وما بعدها .

ايجاد الحلول لها بالعمل الدبلوماسي والإتصال السياسي السريع .

إن الإتصال السياسي على أعلى المستويات اثبت انه وسيلة ناجحة في مسائل السلم والحرب ، وذلك هو ما قاد القوتين العظمتين أيام الحرب الباردة ، إلى استحداث (الخط الساخن) بين موسكو وواشنطن لمعالجة الأزمات الحادة بشكل مباشر وذلك عقب أزمة صواريخ كوبا مباشرة .

لكن بغض النظر عن مسألة الاتصال السياسي يمكن للعلم والمعرفةأن يساهما في تحقيق السلام وقد ذهب (الفن توفلر) إلى أهمية المعرفة في تحقيق السلام فكما ان الحروب اعتمدت على المعرفة ، فإن حرباً مضادة يمكن أن تشن ، وهي السلام الممكن إعتماده على المعرفة أيضاً ، فكما أن الجيوش بدأت بالتفكير استراتيجيا باستخدام المعرفة ، فإن استراتيجية سلام متماسكة ، وان كانت مفقودة اليوم ، يجب ان ترتكز على المعرفة (١٧) .

إن المعرفة المجردة ليست بكافية لتحقيق السلام فهي يجب ان تردفها مبادئ سياسية مثل حرية الوصول إلى المعلومات العسكرية ، فهذا يمكن ان يخفف الحذر وينبه الفرقاء إلى التطورات المهددة للسلم .

ويشير توفلر إلى بعض الافكار المؤدية إلى السلام اعتماداً على المعرفة ، كاقتراح ايزنهاور القديم عام ١٩٥٥م المعروف (بالاجواء المفتوحة) .

ان هذا المقترح الذي رفضه الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت ، أصبح ممكنا اليوم بواسطة الاقمار الصناعية والكواشيف المتطورة ، بغض النظر عن ارادة الحكومات .

---

١٧) الفن وهايدي توفلر - الحرب والحرب المضادة (الحفاظ على الحياة في القرن المقبل) - تعريب د . صلاح عبدالله الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان - الجماهير العظمى - ط ١ - ١٩٩٥م - ص ٣٣٩ .

ان الكشف المتطور قد جعل الأجواء مفتوحة فعلاً ، فقد أصبح سطح الارض ليس وحده مكشوفاً ، بل أن أعماق البحار والارض غدت أكثر شفافية ، لذا فإن الإرادة الإنسانية في تحقيق السلام هي الشيء الناقص ، فما نحتاجه (يقول توفلر) هو اتفاقيات من اجل تقاسم تصاميم المعلومات وتكلفتها . . . وعلى سبييل المثال فإن (سجل التسلح) بمنظمة الأمم المتحدة ربما يكون نموذجاً لتبادل المعلومات . (١٨)

ومن المؤسف ان هذه الدعاوي ليس لها أي صدى من قبل الدول الكبرى ، وهي نفسها دول المعرفة ، وقد احترفت هذه الدول فن التحايل على الدعاوى الإنسانية ، ومهما غلفت مبادئها بغلاف أخلاقي ، فإنها تفعل ذلك في الواقع بما يمكنها من زيادة قوتها وسلطتها ، وعلى سبيل المثال ، فإن دعواها بمنع انتشار اسلحة الدمار الشامل ونزع هذه الأسلحة ، لايهدف إلى خدمة السلام ، بل يهدف إلى ضمان إحتكارها لهذه الأسلحة لتكريس هيمنتها العالمية .

إن هذه الدول ، ولاسيما الغربية منها ، لا تنقادوفق القيم الأخلاقية فيما يخص الحرب والسلام ، بل أن هاجسها الطاغي هو الربح الاقتصادي في كثير من الأحيان . . . وتشكل معارضة الولايات المتحدة الاميركية لمنع الألغام المضادة للأفراد ابرز مثال على ذلك ، على الرغم من المآسي الانسانية التي تلحقها هذه الالغام بالمدنيين الابرياء ، بعد انتهاء الحروب في الغالب ، وعلى الرغم من الحملات الدولية المخلصة التي انتجت اجماع شبه عالمي على تحريم هذه الألغام ، تعارض الولايات المتحدة ذلك بشدة ، بسبب الإنعكاسات

---

١٨) المرجع السابق – ص ٣٢٤ .

الاقتصادية على عدد من شركاتها الصانعة للالغام . . . ومتى كان الأمر كذلك فإنه من الصعب الاستناد إلى المعايير والقيم الأخلاقية لتحقيق السلام .

١٤ - ان افكاراً أخرى مازالت مطروحة لتحقيق السلام عبر (التقدم الاخلاقي) فتطور القيم قضى على الكثير من الظواهر غير العقلانية ، كالرق مثلاً ، وبما أن الحرب هي مظهر غير عقلاني ، لأنها تتناقض مع قدسية حياة الانسان ، فإنها تسير نحو العدم مع التطور في مضمار الفلسفة . . . .[١٩] .

كما أن هناك من من يذهب إلى ان الحروب تقع بسبب ظروف البؤس والحرمان والفساد والظلم ، فإذا أرتقت البشرية في المجالات الاقتصادية والإجتماعية والثقافية فإن الحروب لابد وأن تتراجع أيضاً . . .

إن هذه الأقوال لاتخلو من التبسيط ، فمع أن الحروب كانت تنشأ قديماً لبعض هذه الأسباب ، فإذا ضاق الاطار الوطني بسكانه أو عانى هذا الإطار من القحط والمجاعة ، فإن الحرب كانت هي السبيل للخروج من مثل هذا المأزق . . . لكن الحروب الحديثة بالذات لايمكن تسويغها بهذه الأسباب ، فحروب اليوم ، والتي شنت معظمها خلال القرنين الماضيين ، الدول الأوربية ، هي حروب الرفاهية ، فقد تمت من قبل دول هي الأوفر حظاً في درجات التقدم الإقتصادي ، وعلى العكس فإن موضوع هذه الحروب كان الشعوب الفقيرة التي بدأت بالكاد تتلمس طريقها نحو النمو . . .

ومهما كانت إدعاءات الغرب ومزاعمه ، فإن حروب الحضارة الغربية بالذات هي حروب الطمع والتوسع ، وقد شاع في أدب الغرب وفكره السياسي تمجيد الحرب ، فمجد (رودكيبلنغ) الإستعمار والحروب ، وأثنى (هيجل) على الحرب التي بدونها يصبح الإنسان لين العريكة ومستغرقاً في ذاته وسيتدهور

---

١٩) جيمس لي ري - الحرووب في العاللم - ص ١٦ .

المجتمع فيصبح مستنقعاً لإشباع الملذات الأنانية وتنحل الجماعة نتيجة ذلك ، فعلى الدولة أن تفرض الخدمة العسكرية وأن تستمر في خوض الحروب .

توازن القوى هو جرثومة الحرب ...

١٥ - عرضنا فيما مضى معظم الآراء التي بحثت عن جرثومة الحرب وأسبابها ، وهي أسباب لا تفسر في رأينا الحروب الكبرى - بالمعنى الذي حددناه - فهذه الأسباب قد تصلح لتفسير الحروب الصغيرة والنزاعات المسلحة فهذه قد تنشأ لأتفه الأسباب ، فقد يشعل الحرب مغامر أو مستبد ، وقد تدفع إليها مصالح إنتخابية ضيقة أو بسبب التآمر والحقد بل انها قد تندلع لخطأ تقني أو إنساني طفيف يرتكبه شخص قليل المسؤولية أو بسبب القحط والمجاعة أو غير ذلك من الأسباب الكثيرة التي يمكن عدّها الأسباب الظاهرة والمباشرة للحرب .

أما الحروب الواسعة والصدامات الكبرى التي تغير مجرى التاريخ فهي نتيجة حتمية لنمط معين من أنماط توازن القوى ، فما أن يرتسم هذا التوازن حتى تظهر علامات الحرب . . .

إننا نؤمن أن توازن القوى هو الجرثومة الحقيقية للحرب ، وسنبين ذلك فيما بعد وندعم هذا الإستنتاج بالوقائع التاريخية .

إن هذا الإستنتاج ليس بجديد ، وقد يكون الجديد فيه ، هو تحديد نوع التوازن الذي يشكل جرثومة الحرب ، وأشكال التوازن التي تؤدي إلى الإستقرار ، على ما سنبين في الفصل الثالث ، وهناك الكثير من الكتاب الذين يدعمون فكرة الربط بين توازن القوى والحرب فيذهب(كريفلد) إلى أن إندلاع القتال يقتضي في معظم الأحوال ، على الصعيد العملي درجة من التكافؤ والتوازن [٢٠]

٢٠) مارتن كريفلد - حرب المستقبل - ص ٢٠١ .

إن ذلك لايعنى أن النزاعات المسلحة لاتندلع إلاّ بين طرفين متوازنين ، لكن ذلك إذا حدث فليس من الدقيق تسميته حرباً ، فيوصف بأنه معركة أو مذبحة أو غزو أو حتى جريمة أحياناً .

١٦ - لما كانت الحرب ، كما يقول (كلاوزفتز) هي إستمرار للسياسة بوسائل أخرى فإنها منطقياً لاتقع إلاّ بين طرفين يعيشان حالة من حالات التكافؤ النسبي ، فعلى الرغم من أن الحرب هي نشاط سياسي ، إلاّ أنها يقيناً من أبشع صور الممارسة السياسية ، وسواء في العالم المتحضر أو حتى عند أكثر الجماعات بدائية ، فالحرب تكون دائماً هي الخيار الأخير .

ومع أن الدول تعيش في ظل الصراع وتناقضات المصالح ، فإنها تسعى دائماً إلى إختيار أدوات الصراع الأخرى لتوسيع مصالحها على حساب الآخرين ، وتمتلك الدول وسائل ضغط متنوعة على غيرها من الدول الأخرى وهي تمارسها بإستمرار لتحقيق مصالحها ، ولاتقع الحرب إلاّ عندما تفشل الوسائل السياسية الأخرى ، وهذه لاتفشل دائماً .

والواقع ان فشل السياسة لايتم إلاّ بين قوتين متكافئتين ، فإذا كان احد الأطراف أقوى بدرجة ملحوظة فإنه يستطيع أن يملي على الطرف الضعيف سياسته كما أن الطرف الضعيف يضطر إلى القبول بهذا الإملاء ، فهو يعرف أن ذهابه إلى الحرب ينطوى على الانتحار الكلي ، كما يعرف ان نتيجة الحرب ستؤدي إلى تسليمه بشروط خصمه ، ومع أنه يتجاوب مؤقتاً مع الوضع الظالم إلاّ أنه سيسعى لتغييره عن طريق زيادة قوته ، فإذا وصل إلى حالة من التكافؤ مع الخصم فإنه سيعلن تغيير شروط التعامل ، ويعمل على ذلك بالوسائل السياسية الأخرى فإذا فشلت فستكون الحرب هي الخيار النهائي .

إن هذه الصيرورة هي ما يحكم العلاقات الدولية ، وهي التي تفسر أكثر الحروب ، لكنها ليست صيغة جامدة أو آلية مبرمجة ولذلك تتعذر في الغالب ملاحظتها ، كما تتداخل معها اعتبارات أخرى كثيرة ، كمهارة الدبلوماسية والقدرة على القيادة وإدارة الأزمات والإعتبارات الدولية والاقليمية ومدى العزم على خوض الحروب . . .

إن عالم اليوم ملئ بالصراعات وتناقضات المصالح ، وهي تناقضات لاتتم تسويتها بالحروب ولابالإرادات الحسنة والتفاوض المهذب ، فهي دائماً تسوى بالضغوط الهائلة وغير المحسوسة التي تمارس في الغرف المغلقة بين رجال يحرصون على سلامة المظهر ، ففي الغرف المغلقة وعلى موائد التفاوض تمارس الحرب غير الدموية بالضغط الدبلوماسي والإقتصادي وتبرز أحياناً التلميحات بإستخدام القوة ، ومن ثم تتشكل القرارات والوثائق التي تعكس قوة الأطراف المتفاوضة ، لذا شاع في عصرنا إستخدام بعض المصطلحات التي تنم عن فهم حقائق الصراع وجوهره ، كوصف السياسة بانعدام الأخلاقية أو سياسة الكيل بمكيالين أو إزدواجية المواقف ، فهذه جميعاً ظواهر كامنة في العلاقات الدولية لأنها تقوم على علاقات القوة .

إننا نرجح توازن القوى على غيره من العوامل الأخرى علّة للحرب ، تدور معه وجوداً وعدما فمهما كانت الأسباب الظاهرية للحروب ، فإن سببها الحقيقي هو وجود توازن قوى من نمط معين ، فإذا تشكل هذا التوازن فإن الحرب ستبدأ لامحالة ، فما توازن القوى ، وما أنواعه التي تقود إلى الحرب ، وما أنواعه التي تصنع الإستقرار والسلام وماهي وسائل التأثير فيه ؟ هذا ما سنبحثه في الفصول الآتية .

الفصل الثاني

معنى توازن القوى

١٦ - معنى التوازن بشكل عام ...

يعنى التوازن في مفهومه ، الحالة المستقرة ، فيتحدث الناس دونما تفكير عن التوازن كرمز للحالة المعتادة المستقرة وهذه الحالة ليست بالضرورة مثالية دائماً ، ولكنها توحي بالاستقرار وعدم التوتر ، ولكنهم في كثير من الاحيان وعند تدقيق معانيهم يشيرون إلى ما هو ابعد من الاستقرار المعتاد اي إلى الحالة المثالية ، فحين نصف الرجل العاقل أو السياسي الحكيم بانه ذو شخصية متزنة فإننا نعنى الشخصية الخالية من كل مظاهر التطرف ، كما نقول استعاد فلاناً توازنه للإشارة إلى عودته للحالة الطبيعية . وتستخدم جميع العلوم مصطلح التوازن ، رمز للحالة المعتادة المستقرة ، فيستعمل علم النفس ، مصطلح التوازن النفسي للتعبير عن الحالة العادية للانسان العادي ، ويستخدم علم الاجتماع مصطلح التوازن الاجتماعي لوصف المجتمع الخالي من التوترات ، ويكثر علم الاقتصاد من استخدام التوازن لوصف الاوضاع المقبولة ، فيقول التوازن بين العرض والطلب ، والتوازن في التنمية ، والتوازن بين الصادرات والواردات ، والتوازن التجاري ، والتوازن بين التكلفة والسعر . . . الخ ويستخدم علم السياسة أيضاً مصطلح التوازن للإشارة إلى الحالة المستقرة على أسس عقلانية ، فيقول (النظام قائم على توازن السلطات . . . كإشارة إلى نظام لايخضع لهيمنة سلطة واحدة ، كما يستخدم مصطلح ، قوى سياسية متوازنة . . . للتدليل على استقرار النظام السياسي كما يستخدم المصطلح

(توازن القوى الدولية) لوصف المجتمع الدولي المتسم بالاستقرار .

إن التوازن إذن في المعنى العام يشير إلى الحالة المستقرة التي لا تسيطر عليها قوى التطرف .

فهو يصف الحالة الوسطى تقريباً بين وضعين متناقضين ، انه يشير على الاجمال إلى حالة من حالات الاعتدال النسبي ، وهي الحالة المقبولة في حياة الافراد والمؤسسات والجماعات والدول ، (ان التوازن هو الحالة المثالية بين كل وضعين متناقضين) فاليسر هو الحالة المثالية بين الفقر المقذع والغنى الفاحش ، والصحة هي الحالة المثالية بين الإعتلال والقوة المفرطة ، والايمان هو الحالة المثالية بين الكفر والدروشة ، والقناعة هي الحالة المثالية بين الزهد والطمع ، والعلم هو الحالة المثالية بين الجهل والادعاء ، وربما كان الانسان هو الحالة المثالية بين الشياطين والملائكة . . . وهكذا .

إن هذه الحالة المثالية لاتنشأ الاً كمحصلة لاستمرار الصراع بين وضعين متعارضين ، فإذا توقفت مقاومة احد هذين الوضعين أو تغلب عليها الوضع الآخر فمن المحتم زوال الحالة المثالية (حالة الاعتدال والتوازن) . . .

فإذا زاد العرض عن الطلب توقف الانتاج في نهاية المطاف بحكم تدني السعر مما يجعل الانتاج غير مجد ، وإذا زاد الطلب عن العرض شاع الغلاء ، وإذا تغلب الفقر زاد البؤس وإذا تغلب الغنى ساد الفساد والبطر . . . .

١٧ - ان الحياة نفسها شكل من اشكال التوازن ، وقد عثرنا على تعريف رائع للجنرال ديغول لوصف الحياة (بانها مجموعة القوى التي تقاوم الموت) ، فالموت هو الاصل (كل ما عليها فان) اما الحياة ، وهي حالة مثالية بنظر الانسان ، فإنها ليست سوى صراع مستمر ضد قوى الموت ، وحين تتغلب قوى

هذه الاخيرة ، فإن حالتنا المثالية تنتهى وتزول . . . .

غير ان التوازن بمعناه العام لايجب ان يعني نقطة التعادل التام ، فهو عبارة عن خط متسع الطول بين الوضعين المتعارضين ، قد يقترب من احدهما أكثر من الآخر ،لكن حالة التوازن تظل قائمة طالما لم يقترب بشكل جسيم من احد الوضعين ، أما إذا حدث ذلك فإن التوازن يختل بشكل ظاهر وقد يجبر الوضع الآخر على الاستسلام ووقف الصراع فينتهي التوازن كلياً بما يترتب على ذلك من نتائج . . .

فحالة اليسر هي منطقة ما بين الفقر المقذع والغنى الفاحش ، ولكنها ليست نقطة التعادل التام ، فحين نصف اشخاصاً ما بانهم ميسورون ، فإن من المحتم ان بعضهم لديه مئات من الدنانير وبعضهم الآخر لديهم الالوف أو عشرات أو مئات الالوف ، غير انهم يشتركون جميعاً في معنى اليسر ، ولكن بعضهم اقرب إلى الفقر بينما الآخر اقرب إلى الغنى ، فلا يختل توازن احدهم الاّ إذا انعدمت نقوده أو امتلك منها الملايين ، وعند ذلك لايصبح ميسوراً ، بل يصبح معدماً أو مبطراً بحسب الأحوال . . .

إن الحياة تقع ايضا على خط ما بين النمو والمرض المميت ، فعندما نصف اشخاصاً ما بانهم معافون ، فإنهم يقعون على نقاط مختلفة ،لكن بعضهم اقرب إلى الحيوية والشباب وبعضهم الآخر يقترب من لحظة الاحتضار . . .

ولتقريب هذا المعنى ينقل (هانز جي- مورجنتاو) [٢١] ما كتبه (وولتر - بي - كانون) في حكمة الجسد ، عن الجسد البشري الذي يقوم هو ايضا على

---

٢١) هانز .جي . مورجنتاو - السياسة بين الأمم - تعريب خيري حماد-الدار القومية للطباعة والنشر - جـ ١ - ط٢ - ص ٢٣٨ .

شكل من اشكال التكافؤ ، فالجسد في اثناء عملية نموه يمر بجملة من التبدلات التي يقابلها الجسد نفسه بعمليات تكيف مستمرة تتناسب مع هذه التبدلات ، وذلك هو ما يضمن نمو الجسد ، وعدم حدوث الإضطراب فيه طالما استمرت هذه التبدلات بصورة معقولة تجعل الجسد قادرا على مواجهتها ، ولكن إذا تعرض هذا الجسد لإضطراب جسيم ، سواء بفعل ذاتي أم نتيجة تدخل خارجي ، فإن الجسم يضطرب بشكل عنيف . غير انه يحاول اعادة التكافؤ ، بزيادة فاعلية اعضاءه ، ليعيد الجسم إلى المستوى نفسه أو إلى اي مستوى آخر يمكن ان تستمر معه الحياة ولو على صورة أخرى ، ولكنه إذا عجز عن اعادة التكافؤ إلى اي مستوى فإن الحياة برمتها تكون قد وصلت نهايتها . . .

تعريف توازن القوى وتاريخ ظهوره...

١٨ - لقد شرحنا فيما مضى معنى التوازن بشكل عام في محاولة لرسم صورة ليست بعيدة عما اصطلح عليه علماء السياسة الدولية لشرح مفهوم (توازن القوى) .

ولابد من الايضاح مبكراً ان مفهوم توازن القوى مازال ملفوفا بالغموض عند الكثير من علماء السياسة والعلاقات الدولية ، ومبعث هذا الغموض اسباب كثيرة ومتعددة ، منها فهم توازن القوى على انه نقطة تعادل بين قوتين متعارضتين ، ومنها افتراض جمود توازن القوى وانعدام حركيته ، أو على الاقل تحركه ببطء شديد ، ومنها افتراضه كسياسة دولية مقصودة لذاتها باعتبارها اداة لحفظ الاستقرار الدولي .

إن كل ذلك في اعتقادنا غير صحيح على اطلاقه ، فتوازن القوى نظام

دولي معقد يتصف بالحركية وربما يؤدي إلى الاستقرار ، نقول ربما لأن للتوازن اشكال متعددة يودي بعضها للاستقرار ويقود بعضها الآخر إلى الحرب وذلك ما سنبينه فيما بعد .

أن هذا الغموض تعكسه التعريفات المختلفة والمتباينة لمفهوم توازن القوى ، كما يعكسه الاضطراب الشديد في الفكر العربي عند تناول هذا الموضوع ، وهو الاضطراب الناشئ عن عدم محاولة تجاوز ما ارساه الفكر الغربي ، منذ وقت طويل ، فمعظم الشراح العرب لم يتجاوزوا في الحقيقة افكار (مورجنتاو) ، وهي على أهميتها تحتاج إلى كثير من التأمل والتحليل ، بل أن بعض الفكر العربي عمد إلى تلخيص هذه الافكار وانطلق منها كمسلمات تقود إلى نتائج محددة ومعروفة .

إننا سنحاول تجاوز ذلك ، وسنقدم في هذا الفصل التعريفات المختلفة لتوازن القوى ، وتاريخ نشوءه ، وسنفصل الاشكال المختلفة له ، لأن هذه الاشكال هي المفتاح الحقيقي لمعرفة نتائج وفهم مسالة توازن القوى .

أولاً .. التعريفات المختلفة لتوازن القوى ...

١٩ - ليس هناك تعريف محدد في الفكر العربي الكلاسيكي لمعنى توازن القوى ، فاغلب الكتاب العرب يصفون نظام توازن القوى وصفاً مجرداً ، ويتناولون باقتضاب اشكاله الرئيسية دون تحديد لماهية التوازن ، ما هو معناه اولاً ، وذلك ناشئ عن الاضطراب والغموض حول مسالة توازن القوى ، الذي يصفه بعضهم بانه (نظام) وبعضهم الآخر بانه (سياسة) مما يوحي بان توازن القوى هو ترتيب مقصود في السياسة الدولية ، والواقع ان الامر غير ذلك ، فتوازن القوى هو وضع دولي ينشأ عن الصراع بين الدول ، ومن خلال هذا

الصراع تتفوق مجموعة من الدول على غيرها ، فينشأ بين الدول المتفوقة حالة من التكافؤ النسبي ، فتصبح هذه الدول متكافئة ، فيمنع بعضها بعضاً من الهيمنة مما يخلق احياناً فترة من الاستقرار النسبي في العلاقات الدولية ، فتجبر الدول جميعا على التصرف وفق شرعية محددة يخلقها توازن القوى نفسه . . . .

أن بداية التوازن تنبثق من فكرة الصراع ، وهذا ما يذهب إليه الفكر العربي ، فمجمل الاتجاهات تذهب إلى ان توازن القوى هو حاصل (قانون الصراع) غير ان الإشكاليات تبدأ بعد ذلك ، فما التوازن؟ وما اشكاله؟ وما يترتب على كل شكل من هذه الاشكال؟ وما أثر القوى الأخرى؟ وكيف تتصرف أطراف التوازن؟ وكيف يتصرف الآخرون في ظل توازن ما؟ . . . الخ ٢٠ – إن هذه التساؤلات لاتلقي سوى اجوبة مقتضبة .

أن احد اشهر الذين كتبوا بإفاضة نسبية هو الدكتور (أسماعيل صبري مقلد) في كتابه المعروف العلاقات السياسية الدولية ، وعلى الرغم من القيمة العلمية لكتابه ، الاً انه لايقدم اجابات متكاملة حول مسالة توازن القوى ، ومن المحتمل ان سبب ذلك يعود إلى الطابع الاكاديمي التعليمي لمؤلفه المخصص لطلاب من المستوى الجامعي ، قد يتجاوز مداركهم الخوض في القضايا السياسية العميقة . . . انه على أي حال ينطلق من فرضية الصراع كمنتج لتوازن القوى فيقول (الفكرة الكامنة وراء نظام توازن القوى في العلاقات الدولية ، وهي ان الطابع المميز لهذه العلاقات هو الصراع ، وهذا الصراع لاتمليه عوامل الاختلاف في المصالح القومية للدول فحسب ، وانما ينبع في الجانب الأكبر منه من محاولة كل دولة زيادة قوتها القومية على حساب غيرها من

الدول ، ويترتب على ذلك انه إذا امكن لدولة واحدة ان تحصل على تفوق ضخم وساحق في قواها ، فإن هذا سيدفع بها إلى تهديد حرية الدول الأخرى واستقلالها ، وهذا التحدى هو الذي يدفع الدول المحدودة القوة إلى مواجهة القوة بالقوة عن طريق التجمع في محاور أو ائتلافات قوى مضادة ، أو بعبارة آخرى ، فإن محاور القوى المضادة ، المتعادلة أو شبه المتعادلة ، لاتمكن دولة أو مجموعة من الدول الاعتداء على غيرها تحت وهم الاعتقاد بانها تتمتع بالتفوق الذي يتيح لها مثل هذه السيطرة . ومن هنا يحقق توازن القوى بمفهومه هذا اثرين هامين يتعلق اولهما بحفظ السلم الدولي ، بينما يتعلق ثانيهما بحماية استقلال الدول الاعضاء في هذا المحور والتكتلات)[٢٢]

٢١ - إننا نتفق من حيث نقطة الانطلاق التي تفترض ان الطابع المميز للعلاقات الدولية هو الصراع ، الذي يجر كل الدول إلى محاولة زيادة قوتها على حساب غيرها من الدول الأخرى ، وهذا الأمر بذاته ودون أية اضافة أخرى هو الذي يقود إلى التوازن ، لأن دولاً محدودة تستطيع الوصول في اوقات متقاربة إلى حالة من التعادل أو شبه التعادل .

غير ان الدكتور مقلد يفترض ان التوازن ينشأ في حالة (إمكانية دولة واحدة ان تحصل على تفوق ضخم وساحق في قواها مما يهدد حرية الدول الأخرى ويدفعها إلى التجمع في محاور مضادة) . . .

والواقع ان هذه الصيرورة ليست صحيحة دائما ، وهي لاتتحقق كما سنرى فيما بعد- الاّ في مرحلة تحلل توازن دولي قديم ونشوء توازن آخر على

٢٢) د . اسماعيل صبري مقلد - العلاقات السياسية الدولية - منشورات ذات السلاسل - الكويت - ط ٤ - ١٩٨٥م ص٢٦٥

انقاضه ، ففي هذه الحالة من الممكن ان تحطم قوة ما توازن القوى القائم لتخرج منه قوة ذات تفوق ساحق وطرف مهيمن ، مما يجر القوى الأخرى إلى اعادة التحالف ، بغض النظر عن تناقضاتها ، لوقف هيمنة القوة المسيطرة وتشكيل توازن دولي جديد ، كما يحدث الآن بعد نهاية الحرب الباردة .

أن هذه احدى طرق تكوين التوازن الدولي وليست الطريقة الوحيدة ، وهي طريقة تكوين توازنات ما بعد الحروب الدولية ، وسنعطي الكثير من الأمثلة التاريخية فيما بعد في محاولة لتفسير هذه الظاهرة تاريخياً .

إننا على أي حال لم نعثر على تعريف محدد لتوازن القوى وان كنا قد حصلنا على وصف لأحدى طرق حدوثه . . .

٢٣ - أما بعض المؤلفين العرب فلا يتوقف عند التعريف باعتباره مفهوماً مجرداً ، ويصف توازن القوى بأنه (سياسة) ترمز إلى المدرسة الواقعية في السياسة الدولية ، وهي المدرسة التي تعني بظاهرة القوة (وان الدول حينما تسعى للحفاظ على وجودها وأمنها ومركزها الدولي من خلال عملية الصراع على اكتساب القوة ، فإن رائدها في ذلك هو تحقيق توازن القوى وهو في الوقت عينه سلاحها في تنظيم استخدام القوة والسيطرة عليها)(٢٣)

إن نقطة الانطلاق هنا صحيحة ايضا ، من حيث اهمية الصراع في تشكيل توازن القوى ، وهو صحيح فيما يخص علاقته بالمدرسة الواقعية في السياسة الدولية التي تعتبره من اهم عوامل الاستقرار الدولي ، غير ان توازن القوى ليس (سياسة) بحد ذاتها تسعى الدول إلى تحقيقها وتجاهد من اجلها ، فالدول لاتسعى إلى التوازن بل تسعى إلى التفوق والهيمنة ، مما يقودها إلى

---

٢٣) خليل اسماعيل الحديثي - الوسط في التنظيم الدولي - جامعة بغداد - ١٩٩١م ص ٣١ .

نشوء توازن القوة ، فتوازن القوى ليس حالة مقصودة بذاتها بل هو حالة يتم الوصول إليها بشكل عرضي من خلال السعي إلى التفوق ، فالدول الساعية إلى التفوق تجد نفسها في وضع الدول المتوازنة في لحظة تاريخية ما .

إن حالة التوازن هذه تفرض على الدول المتوازنة إنتهاج سياسة واقعية ، وترسم قواعد اللعبة السياسية بينها ـ وعندها يبدو (التوازن) وكانه سياسة تستهدف تنظيم استخدام القوة بين الدول المتوازنة . . . .

إن توازن القوى ليس هو خاتمة المطاف ، فالوصول إلى حالة التوازن بين الدول لا يوقف اللعبة السياسية من اجل التفوق ، ولكنه يضع قواعد هذه اللعبة ، حيث لايمكن للأطراف الدولية الخروج عنها ، فذلك يعرض الاوضاع الدولية المستقرة للخطر . . . فالتفوق يظل هو الهاجس المستمر للدول المتوازنة ، غير ان تحقيق التفوق يجب ان يتم ضمن اطار نظام ما ، فكل دولة تعرف ان غريمتها ستحاول زيادة قوتها والاخلال بالتوازن لمصلحتها ، وهكذا تجبر الدول على السعي للتفوق ، ولكن ضمن شرعية مقبولة يرسيها التوازن نفسه . . . .

٢٣ - ولشرح هذا المعنى يمكن استدعاء مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية كمختبر لفكرة التوازن . .

فقد بدأت الحرب العالمية الثانية بين طرفين متوازنين تقريباً ، هما الحلفاء والمحور ، وقد اندلعت هذه الحرب نتيجة لخروج احد الأطراف (المحور) عن القواعد الواقعية التي ارساها التوازن الدولي ، فاطماع هتلر وعزمه على التوسع وزيادة قوته بشكل مفرط ليست سوى محاولات سافرة للإخلال بتوازن القوى ، ان ذلك دفع بالقوى الموازنة (الحلفاء) إلى الحرب كنتيجة حتمية لمواجهة اطماع هتلر ، ومن المحتمل ان تصرفات هتلر كانت ستقبل لو تصرف

بواقعية وضمن الشرعية التي اقامها توازن قوى ماقبل الحرب ، حتى مع عدم الاقرار بشرعية طموحاته . . .

فمن حق الأطراف الدولية زيادة قوتها بطريقة ليست محسوسة ، إذا اتسمت سياستها بالواقعية والحذر ، اما سعى طرف ما إلى زيادة قوته بطريقة سافرة تخرج عن قواعد التوازن فإنه يدفع الطرف الآخر على اتخاذ المسلك نفسه . . .

فقد تفجرت الحرب ليس اعتراضاً على محاولة الاخلال بالتوازن (من قبل المانيا النازية بل أن الإعتراض الجوهري هو على الطريقة الثورية المتبعة لتحقيق التفوق . . . .

ومن المرجح ان أطراف التوازن الدولي في ذلك الوقت كانت ستقبل ، بل أنها قبلت فعلاً ، بعض تصرفات المانيا النازية للخروج عن ترتيبات الحرب العالمية الاولى والاندماج في المجتمع الدولي كقوة كبرى وطرف من أطراف التوازن . . .

غير ان المانيا افرطت في طموحاتها وتصرفاتها ، وسعت إلى تحطيم التوازن الدولي مما دفع الأطراف الأخرى لمحاربة المانيا التي خرجت من الحرب مهزومة وأصبحت خارج اطار توازن القوى . . .

إن فترة ما بعد الحرب شهدت تشكل ميزان قوى آخر ، وهو توازن تكون عقب نهاية الحرب مباشرة بإنقسام حلفاء الحرب إلى كتلتين متصارعتين ومتوازنتين .

فعلى الرغم من ان الولايات المتحدة خرجت من الحرب متفوقة على القوى الأخرى ، إلاّ ان هذا التفوق النسبي لم يضعها في مرتبة القوة المهيمنة ،

كما ان الأطراف الأخرى لم تتكتل ضدها لمنع الهيمنة وتشكيل التوازن الجديد ، بل على العكس فإن بعض أطراف توازن مابعد الحرب (بريطانيا وفرنسا) انضمتا فوراً إلى الولايات المتحدة لخلق كتلة غربية تطورت بعد وقت لتشكل (حلف الناتو) . . . .

٢٤ - ان الفكرة التي يتبناها بعض المفكرين العرب بالقول ان التوازن ينشأ في حالة امكانية حصول دولة واحدة على تفوق ضخم ، يهدد حرية الأطراف الأخرى مما يجعلها تتجمع في محور مضاد [٢٤] . هي فكرة ليست صائبة ، فتوازن القوى هو نتيجة حتمية للصراع الدولي ، وهو صراع ديناميكي نظراً للتحالفات التي تنشأ خلال هذا الصراع .

٢٥ - ان الواقع الدولي اليوم ، يؤكد صحة هذا الاستنتاج ، فها هي الولايات المتحدة الاميركية ، برزت كقوة مهيمنة ، وهي تهدد حرية الأطراف الأخرى ، بما في ذلك القوى الكبرى ، كفرنسا وروسيا والصين ، غير ان هذه الحالة الدولية لم تدفع بالأطراف المذكورة إلى التحالف ضد أمريكيا ، أو حتى التعاون فيما بينها لاعادة الميزان إلى وضعه المعتاد .

إن هذه الحالة (حالةالهيمنة) ستنتهي حتماً ، لكن ليس بسبب تحالف الأطراف المتضررة ، بل بسبب قواعد الصراع الدولي ، فمن المؤكد ان هذه الأطراف ستسعى إلى زيادة قوتها ، وذلك يجري بالفعل في الوقت الراهن ، ولن يمر وقت طويل حتى تتمكن هذه الأطراف أو بعضها للوصول إلى نقطة

---

٢٤) د . اسماعيل صبري مقلد - العلاقات السياسية الدولية - مرجع سبقت الاشارة اليه - ص ٢٦٥ .

التعادل مع الطرف المهيمن ، وعندها سيتشكل توازن القوى الجديد الذي سيشهد حتما تحالفات ما بينها وصراع مع الأطراف الأخرى .

٢٦ - إننا سنشرح فيما بعد باسهاب ، طرق تشكل توازن القوى والنتائج المترتبة عليه ، ولكننا هنا سنكتفي بعرض التعريفات المختلفة لهذا النظام ، ونبين خصوصاً غموض الفكر العربي وربما ايضا السياسية العربية ازاءه ، فالفكر العربي عموماً مازال غامضاً ازاء فهمه لمسالة توازن القوى ، وهو لم يعط الاهتمام الكافي لهذا النظام المهم .

إننا سنعرض هنا بعض النماذج الفكرية لتعريف (توازن القوى) ، وهي تعريفات تعكس مقدار الغموض الذي يلف هذه المسالة . . .

فيعرف احد الباحثين العرب توازن القوى بانه (حالة تعادل وتكافؤ جميع القوى المتضادة المؤثرة على جسم ما والتي يسعى هذا الجسم الى تحقيقها بقوته الذاتية ، سواء اثناء الثبات أم الحركة ، وقدرته على العودة إلى هذه الحالة التعادلية ، عندما تتغير إحدى هذه القوى المؤثرة عليه سلباً أو ايجابا لتحقيق حالة إستقراره)[٢٥] .

إن هذا التعريف الذي ياتي بعد إستعراض الباحث للمفاهيم االعامة للتوازن ، يكشف مدى الغموض في الفكر العربي ، فالتوازن لا يمكن ان يكون حالة تعادل بين جميع القوى ، كما ان التعريف يذهب إلى ان التوازن هو غاية مقصودة وهي مرهونة بارادة الأطراف التي عليها العودة إلى الحالة التعادلية عند أي تغير في القوى المؤثر عليه سلباً أو ايجاباً . ان توازن القوى هو

---

٢٥) د . مصطفى كامل محمد - التوازن الاستراتيجي في الشرق الاوسط ودور مصر - مركز الاهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ط١ - ١٩٩٥م ص ١٨ .

شيء آخر تماماً غير ما يشير إليه الباحث الذي يعترف مقدماً بغموض مفهوم التوازن [٢٦] .

٢٧ - ونظرا لهذا الغموض فإن باحثا عربيا آخر وجد ان أفضل طريق لتعريف التوازن هو حصر التعريفات المختلفة والمعاني المتعددة ، فيذهب إلى ان التوازن يعني إحدى الاشياء الآتية :-

١ - ان ميزان القوى هو تعبيرعن أية صورة من صور توزيع القوة في المجال الدولي . وهو بهذا المعنى يذهب إلى توزيع القوة بغض النظر عن مدى اتزان القوة أو عدم اتزانها ، فقد يكون ميزان القوى مائلاً لصالح قوة ما ، ومع ذلك فإن فكرة التوازن تظل قائمة .

٢ - وقد يعني توازن القوى (تعبير عن وضع من اوضاع التعادل أو التكافؤ في القوة) أي حين تكون القوة موزعة توزيعا متساوياً على وضع يقترب من التكافؤ بحيث لاتتفوق دولة ما تفوقاً إلى حد يمكنها من تهديد الدول الأخرى .

٣- وقد ينصرف معنى ميزان القوى إلى معنى الهيمنة ، أي تحقيق دولة ما لهامش من التفوق ، وهو مايطلق عيه هامش الأمان ، فالدول في الوقع لاتسعى للتوازن ، ولكنها تنزع للتفوق .

٤ - وقد ينصرف معنى التوازن إلى التعبير عن حالة الاستقرار والسلام . . . ذلك ان كثيرا من المفكرين يربط بين توازن القوى والسلام ، ذلك ان توازن

---

٢٦) ان هذا التعريف وضع بواسطة عسكري كبير محترف ، والمفترض ان العسكريين هم الاقرب إلى فهم مدلولات التوازن ، بحكم ان توازن القوى ، مهما كانت عناصره ، فإنه ينصرف في الغالب للقوة العسكرية .

القوى هو اداة تثبيت السلام والإستقرار ، وقد عبر عن هذا المعنى ميترينخ بالقول :- (ان الإستقرار دون الاتزان هو محض خيال) .

٥ - وعلى العكس فإن ميزان القوى قد ينصرف إلى التعبير عن عدم الاستقرار والحرب ، فيرى عدد من المفكرين ان توازن القوى غالباً مايكون مدعاة لعدم الاستقرار ونشوب الحروب ، وقد استنتج هؤلاء ان الفترات التي نعمت فيها أوربا بالهدوء والاستقرار هي فترات الهيمنة لبعض القوى الاوربية ، اما الفترات التي شهدت توازن القوى فقد اتسمت بعدم الاستقرار وكثرة الحروب .

٦ - وقد ينصرف معنى التوازن إلى (سياسة القوة) ، فبما ان البيئة الدولية قائمة على الصراع فإن كل دولة تسعى إلى زيادة قوتها ، لأن الصراع يجري من اجل القوة .

٧ - وقد ينصرف معنى توازن القوى إلى اعتباره (قانوناً طبيعياً) للعلاقات الدولية . . . . فيذهب عدد من المفكرين إلى ان توازن القوى هو قانون تاريخي يحكم تطور الدول والمجتمعات السياسية ، أي أنه ناموس طبيعي يحكم سير التفاعلات السياسية والدولية ، ويتحقق من خلاله اتزان أو انتظام هذه التفاعلات بصورة آلية . بل ان بعض انصارهذا الاتجاه يرى أنه (إذا كان ثمة نظرية متميزة للسياسة الدولية فإنها لن تكون سوى نظرية توازن القوى)[٢٧] .

---

٢٧) اننا مبدأءياً من انصار هذا الاتجاه ، وننظر إلى توازن القوى كقانون طبيعي يحكم العلاقات الدولية ، فهو احد الثوابت السياسية الدولية الذي يسهم مع غيره من الثوابت والمتغيرات في مجرى التاريخ ، وذلك امر سيتضح مع إطراد هذا البحث ويكتمل مع استنتاجاته .

٨ – وقد ينصرف معنى توازن القوى إلى انه نسق أو موجه لسياسات الدول . فالعلاقات الدولية عبارة عن مباراة أو لعبة بين الدول يتوجب وضع قواعد لتنظيمها ، ويعتبر توازن القوى هو القاعدة الرئيسية الموجهة لسلوك الدول ، فهو مرشد لصانعي السياسة الخارجية ، ففي ظل عالم يسوده الصراع بين الدول ، ويفتقر إلى السلطة العليا فإن ميزان القوى هو القاعدة الرئيسية التي يمكن للدول ، من خلال الالتزام بها ، ان تكفل بقاءها وتحول دون هيمنة احداها على الباقي .[٢٨]

وبعد استعراض هذه المعاني المختلفة والمتناقضة احيانا ، فإن هذا الباحث يستنتج ان تعريف توازن القوى يمكن ان ينحصر في ثلاثة معان هي : المدلول العلمي لتوازن القوى ، والمدلول النمطي لتوازن القوى ، والمدلول الأيديولوجي لتوازن القوى . . ومعنى ذلك : –

أولا .. المدلول العلمي لتوازن القوى...

٢٨ – وهو ما يطلق عليه المدلول الموضوعي ايضا . . . ويعني توازن القوى بهذا المعنى ، الحالة التي يتسم بها توزيع القوة بين عدد من الدول بشكل متعادل نسبيا ، حيث لا تكون لأية دولة القدرة على فرض هيمنتها على ما عداها من الدول . ووفق المعنى العلمي فإن توازن القوى يتم بشكل تلقائي وبصورة عفوية ، دون ان تسعى الدول إلى تحقيقه بصورة ارادية . . فهو توازن

---

٢٨) انظر في هذه الاراء د .ممدوح محمود مصطفى منصور – سياسات التحالف الدولي – منشورات مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩٧م ، ص ٨٨ وما بعدها . . . وهو من أفضل المراجع العربية التي تعرضت لمفهوم توازن القوى بشئ من التفصيل وإقتربت من اعادة صياغة هذا المفهوم بشكل اوضح .

يتحقق نتيجة للصراع الدولي . . ومن اشهر انصار هذا التعريف ، ابو القانون الدولي (فاتيل) .

ثانياً .. المدلول النمطي لميزان القوى...

٢٩ - ويذهب المعنى النمطي إلى تعريف ميزان القوى كسياسة يراد تحقيقها ببرامج عمل ارادية تطبقها الدولة في المجال الخارجي تحقيقا لهدف معين ، فهو على العكس من المعنى العلمي ليس حالة تلقائية ولكنه توازن مقصود ، اي ان الدول الأطراف تسعى مجتمعة إلى ايجاد توازن فيما بينها يضمن الاستقرار الدولي . .

ثالثاً .. المدلول الأيديولوجي لميزان القوى...

٣٠ - ويذهب المعنى الايدولوجي إلى وصف السياسات التبريرية والدعائية لدولة ما ، فعندما يكون الميزان في صالحها فإنها تدعى وجود توازن للقوى لتبرير المحافظة عليه ، وعندما يكون الأمر عكس ذلك فإنها تحاول تبرير سياساتها الهادفة إلى تعديل الوضع القائم بالادعاء بإختلال توازن القوى ووجوب تعديله . . فتتخذ الدول في هذه الحالة ميزان القوى كسند للدفاع عن صورة معينة لتوزيع القوة في المجال الدولي أو التنكر لها على مقتضى مصالحها الوطنية .(٢٩)

٣١ - ان هذه المعاني الثلاثة هي الشائعة الاستخدام لشرح مفهوم توازن القوى ، غير ان المعنى الحقيقي في اعتقادنا هو المدلول العلمي الأول ، فتوازن القوى ، ليس سوى توزيع متعادل نسبياً للقوى وينشأ نتيجة للصراع الدولي من

---

٢٩) د .ممدوح محمود مصطفى منصور -سياسات التحالف الدولي -ص ٩٨ وما بعدها .

اجل القوة والنفوذ وبصورة تتم رغم ارادة أطراف هذا التوازن ، بدليل ان هذه الأطراف لا تستسلم لحالة التوازن ، بل انها في زمن التوازن لا تتوقف عن السعي للإخلال به لمصلحتها . فالتوازن لايلغى الصراع والتنافس من أجل القوة ولكنه يفرض على اللعبة السياسية مجموعة من القواعد التي يتوجب الالتزام بها ، وسنزيد هذا الامر وضوحا عند حصرنا للاستنتاجات الرئيسية لنظام توازن القوى . .

أما المعنيان النمطي والأيديولوجي ، فعلى الرغم من استخدامهما من قبل السياسيين ، ولأغراض سياسية بهدف تبرير الأوضاع الدولية ، الا انهما خاليان من الدقة من زاوية البحث العلمي والاكاديمي .

٣٢ -غير ان الواقع الاكاديمي هو غير ذلك ، إذ كثيرا ما يتغلب السياسيون على الاكاديميين ويفرضون عليهم اصطلاحاتهم ومفاهيمهم ، وعلى سبيل المثال فإن موسوعة السياسة تعرف توازن القوى بأنه ،(نظام العلاقات الدولية المبنى على أساس فرضية أن حفظ السلام الدولي يشترط عدم رجحان كفة دولة أو تحالف دولي على كفة الدول أو التحالفات الأخرى المقابلة ، لأن ذلك يغري بالهيمنة والعدوان وبالتالي فإن التوازن في القوى يضمن عدم الاخلال بالوضع الدولي الراهن وتوزيع النفوذ بالتراضي بين الدول المعينة . ومن هنا يفترض هذا النظام ان تساند القوى الدولية أية دولة تتعرض للعدوان من دولة أخرى ضمن هذا النظام ، لأن من شأن الامتناع عن ذلك نمو قوة الدولة المعتدية ودفعها إلى العدوان والتوسع على حساب الأطراف الأخرى بما يخل بالنظام الدولي ويعرضه للزوال . وظلت سياسة التوازن هذه ، الدليل الرئيسي الذي يستهدي به رجال السياسة الاوربيين في القرن التاسع عشر ويتوسلون للحفاظ على السلام حتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وكانت الصعوبة الرئيسية التي تعترض هذه السياسة هي تعذر التأكد من ان التوازن قائم بالفعل ، على ان مفهوم التوازن تعرض لهزة عنيفة عندما حاول الرئيس الامريكي ولسون ان يستعيض عنها بمنظمة دولية . ومع ذلك فإن سياسة توازن القوى بمعناها العام العريض لا تزال حتى اليوم اساس السياسات العالمية الاً ان نظرية توازن القوى لا تفترض ديمومة القوى نفسها لأن الانتاج والقدرة على الحفاظ على القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية مسألة تخضع لاعتبارات وظروف متغيرة . ثم ان توازن القوى لا يمنع الصراع والقضم التدريجي الذي يعتبر في النهاية من التوازن نفسه . وبالامكان استخدام التعبير للمقارنة والمعادلة النسبية بين قوتين فلا يقتصر على الدول الكبرى أو حتى على النواحي العسكرية)[٣٠]

ومن الواضح ان تعريف توازن القوى على هذا النحو ينصرف إلى المدلولين النمطي والأيديولوجي فهو يصور توازن القوى على انه سياسة مقصودة لأطراف التوازن ، وليس ظاهرة سياسية تنشأ بصورة تلقائية . .

٣٣ - أن مصدر الخلط يعود في اعتقادنا إلى سببين رئيسيين هما ، الخضوع لتصورات السياسيين وديناميكية توازن القوى نفسه . .

فالسياسيون يستخدمون مفهوم التوازن لتبرير اجراءاتهم السياسية ، بغض النظر عن المدلولات العلمية للظواهر السياسية ، فهم مثلا يستخدمون مصطلح (النظام العالمي الجديد) لوصف مرحلة ما بعد نهاية الحرب الباردة ولتبرير سياسات بعينها ، على الرغم من أن مايجري في هذه الحقبة لا يعكس من

---

٣٠) د .عبد الوهاب الكيالي وآخرون - موسوعة السياسة -المؤسسة العربية للدراسات والنشر -الجزء الأول ص٧٩٧ .

الناحية العلمية وجود نظام دولي بالمعنى المعروف ،[٣١] لكن هذا الاستخدام يخدم مصلحة سياسية واضحة للولايات المتحدة الامريكية كطرف مهيمن على السياسة الدولية ، فهو محاولة للايحاء بان هذه الهيمنة منبثقة من شرعية دولية ارساها هذا النظام الدولي . وهكذا فإن الاكاديميين انفسهم يضطرون لاستخدام اصطلاحات السياسين ، بوعي أو من دونه وذلك هو ما حدث لمفهوم توازن القوى في معظم الفكر العربي .

٣٤ - أما السبب الثاني لهذا الاضطراب ، هو حركية نظام توازن القوى ، ان هذه الحركية تجعل نظام توازن القوى يمر بمراحل مختلفة في شكلها وفي نتائجها ، وعلينا التمييز بين مرحلتين على الاقل ، هما مرحلة نشوء توازن القوى ، ومرحلة حياته . . فالخلط بين المراحل يقود حتما نحو الخلط في الاستنتاجات . . .

ففي مرحلة النشوء لا يمكن الحديث عن توازن القوى على انه سياسة مقصودة ، فمن غير الممكن ان تتفق دول بعينها على توزيع القوة بينها بشكل متكافيء للحفاظ على الاستقرار الدولي ، فهذا الامر يتنافى مع طبيعة الدولة ، فالدول بطبيعتها تسعى للتفوق والهيمنة وتبذل اقصى جهودها للوصول إلى هذه الغاية ، غير انها غالباً لاتستطيع ادراك ذلك ، وحتى إذا ادركته فإن غيرها من الدول سيحاول اللحاق بها وذلك هو ما يحدث فعلا فينشأ توازن القوى كحاصل للتنافس والصراع .

ان بعض الدول تتمنى احيانا ان ينشأ توازن قوى لخدمة مصالحها ، بل

---

٣١) انظر في ذلك كتابنا - العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين ص ١ - ٢٨ .

انها قد تسعى بطرق عديدة لخلقه إذا اختل في فترات تاريخية معينة ، ولكنها لا تستطيع لوحدها اللحاق بالطرف القوي ، فتسعى إلى التحريض والتحالف من اجل ايجاد توازن قوى يصلح لاستخدامها . اننا سنشرح فيما بعد هذه الحالة ونعطي الامثلة التاريخية عليها ، غير اننا نشير على عجل إلى تجربة ميترنيخ في بداية القرن التاسع عشر ، فقد سعى بالفعل إلى ايجاد توازن دولي يخدم مصالح النمسا ويجنبها خطر السقوط ، لأن بلاده في ذلك الوقت لم تكن قادرة بنفسها على ان تكون قوة عظمى . . .

ومثلما فعل ميترنيخ ، فإن سياسة بريطانيا خلال القرون الماضية انتهجت الوسائل نفسها ، فقد كانت سياستها دائما هي المحافظة على توازن القوى والتحكم فيه . اننا سنفيض في شرح هذه الحالة عند بحثنا (للموازن) بشكل تفصيلي فيما بعد . غير ان التوازن الدولي في ذلك الوقت لم تصنعه سياسات ميترنيخ وحدها ولا سياسات بريطانيا ، فقد نشأ التوازن دائما كنتيجة حتمية للصراع والتنافس بين القوى الكبرى .

٣٥ - ففي مرحلة الولادة والنشوء فإن توازن القوى لا يمكن ان يكون سياسة مقصودة ، اما المرحلة الثانية التي تشهد قيام توازن القوى ، فإن هذا النظام يغدو شكلا من اشكال السياسة المقصودة ، ذلك ان توازن القوى يضع للأطراف المكونة له قواعد محددة للتصرف ، فلا تستطيع هذه الدول الخروج على هذه القواعد ، لأن من شأن ذلك الاضرار بالمصالح الحيوية للأطراف الأخرى وبمصالحها هي نفسها ، إذ أن الخروج عن قواعد اللعبة سيعرض الدولة الخارجة عن القواعد إلى خطر تحالف الأطراف الأخرى مجتمعة ضدها واخراجها من مجمل النظام .

وذلك هو ما حدث بالفعل لالمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية ،

والاتحاد السوفيتي اثناء الحرب الباردة . . فقد تحالفت كل القوى العظمى (بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ، ثم فيما بعد الولايات المتحدة الامريكية) ضد المانيا ، لانها خرقت قواعد اللعبة التي يفرضها التوازن الدولي في ذلك الوقت .

ان التوازن لا يلغي الصراع ، ولكن على أطرافه التصرف بعقلانية لزيادة رصيدهم ، فهذه هي احدى قواعد التوازن ، لكن المانيا النازية تصرفت بما هو خارج بشكل عنيف عن هذه القاعدة ، مما دفع بالأطراف الأخرى إلى التحالف ضدها على الرغم من خلافاتهم الأيديولوجية والسياسية العميقة .

ان ذلك قد تكرر مرة أخرى اثناء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي ، فقد كانت احدى قواعد توازن الحرب الباردة هي تقاسم مناطق النفوذ ، فترك للاتحاد السوفيتي التصرف في أوربا الشرقية ، كما كانت أوربا الغربية منطقة للنفوذ الاميركي ، الطرف الآخر من أطراف التوازن ، اما غير ذلك من مناطق العالم فأصبحت ميداناً للتنافس بين الطرفين ، على ان يدور هذا التنافس في طار شرعية توازن القوى نفسه وبصوره سلمية ليست محسوسة ، وقد جرى هذا التنافس بالفعل في إفريقيا وآسيا وأمريكيا اللاتينية ، لكن اشارات اختراق خارج القواعد قد ظهرت من الاتحاد السوفيتي وخصوصاً في كوبا وفي أوربا وفي افغانستان . . . فمحاولات نصب الصواريخ النووية في كوبا كانت مثال لإختراق قواعد التوازن ، لمساسها الخطير بالمصالح الحيوية الامريكية ، وهي خارج التصرف العقلاني التي تفرضها سياسة التوازن ، وهكذا كانت المواجهة النووية محتملة بين القطبين لو لم يعد الاتحاد السوفيتي إلى التصرف بعقلانية . . .

ان غزو افغانستان [٣٢] كان نموذجا آخر للخروج عن قواعد التنافس ، فافغانستان ليست منطقة نفوذ سوفيتي ولكنها منطقة تنافس بين القطبين ، وهكذا فإن الغزو إعتبر خروجاً عن القواعد فتمت مواجهته بأسلوب مختلف عما حدث عند غزو الاتحاد السوفيتي للمجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، لأن هذه الدول هي ضمن نطاق مناطق النفوذ السوفيتي ، بل على العكس فإن تصرفات الولايات المتحدة في هذه البلدان قبل الغزو السوفيتي كان غير عقلاني لانه استهدف الاضرار بالمصالح الحيوية للاتحاد السوفيتي الذي تصرف بقوة لرد الميزان لوضعه الاصلي ، وتلك خطوة عقلانية ، مهما بدت عنيفة ، لانها تتناسب من حيث الغايات مع التصرف الشرعي لنظام توازن القوى .

٣٦ - والخلاصة اذن هي وجوب التفريق بين مرحلتين ، مرحلة النشوء التي لا يعد فيها توازن القوى سياسة مقصودة ومرحلة اكتمال التوازن ، التي يمكن النظر إليها كمرحلة تتسم بسياسة ما يفرضها توازن القوى . . .

ولذلك فإنه من الخطأ في اعتقادنا تعريف توازن القوى خارج ما هيته ومدلوله العلمي الموضوعي . . . والمنهجية الصحيحة هي تحديد المفهوم اولا ثم البحث في نتائجه بعد ذلك وعلى هذا الاساس فإننا نقترب من تحديد هذا المفهوم . . . غير اننا قبل ذلك سنعرض إلى مفهومه في الفكر الغربي .

---

٣٢) اعتبر الغرب غزو الاتحاد السوفيتي لافغانستان عام ١٩٧٩ م جزءا من استراتيجية توسعية ، ومع ذلك فإن الاتحاد السوفيتي غزا افغانستان بدافع الخوف وليس بدافع الطمع ، فقد خشى الاتحاد السوفيتي قيام جمهورية اسلامية أخرى موالية لأمريكيا اعتبر ذلك خطأً أحمر في السياسة السوفيتية . انظر حول افغانستان د . بشرى القبيسي وموسى مخول- الحروب الأزمات الإقليمية في القرن العشرين-دار بيسان للنشر والتوزيع - لبنان - ط١ - ١٩٩٧م ص ٢٩٨ وما بعدها .

٣٧ - أعطى الفكر السياسي الغربي اهتماما خاصا لمسألة توازن القوى ، منذ زمن طويل فإذا كان المفهوم بشكله الحديث يرجع إلى وقت قريب نسبيا ، الا ان توازن القوى استخدم منذ قرون ، ويمكن ارجاع فضل اكتشافه إلى (نيقولا ميكافيلي) ، الذي تعد رسالته الشهيرة إلى ارنستو دي مديتسي ، والتي عرفت فيما بعد بكتاب الامير ، تعتبر الدرس الأول في مسألة توازن القوى ، حيث اعتمدت هذه الرسالة على استخدام فن التوازن في ادارة الصراعات سواء كانت دولية أم داخلية وقد ورد في الأمير (على الامير ان يتجنب الارتباط في قضية مشتركة مع أمير آخر اقوى منه لالحاق الضرر بأمير ثالث ، الا إذا اجبرته الضرورة على ذلك . . وعلى الأمراء ان يتجنبوا ، بقدر طاقتهم ، الوقوع تحت رحمة غيرهم وارادتهم وأهوائهم)[٣٣] وإذا كان ميكافيلي في رسالته لم يستخدم مصطلح التوازن ، لأنه لم يكن شائعاً في عصره ، إلاّ أن استخدام هذا القانون يشكل احد لبنات بناءه . . وقد سار على النهج نفسه تلميذ ميكافيلي (فرانشسيكو جويكارديني) ويعد الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون) اول من استخدم مصطلح (التوازن) بمعناه السياسي المعروف حاليا ، فورد في احدى مقالاته : - (فليس في الامكان اولا ، وضع قاعدة عامة ، فبالنسبة إلى الدول المجاورة مهما اختلفت الاوضاع والحالات ، سوى تلك التي تقول : ان على الأمراء ان يظلوا يقظين ساهرين ، حتى يحولوا دون افراط احدى جاراتهم في النمو ، أما عن طريق التوسع في اراضيها أو تعزيز

---

٣٣) نيقولا ميكافيلي - الامير - ترجمة د . فاروق سعد - دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ١٨ - ص١٧٨ .

تجارتها ، أو الاستيلاء على بعض المنافذ والطرق الاساسية ، بحيث تصبح مصدر ازعاج لهم .

وكانت مثل هذه اليقظة قائمة في عهد الثالوث الملكي الذي مثله هنري الثامن ملك بريطانيا وفرانسوا الأول ملك فرنسا والامبراطور شارل الخامس ، بحيث لايستطيع اي منهم ان يكسب شبرا واحدا من الارض ، الا ويسارع الآخرون إلى اعادة (التوازن) أما عن طريق اقامة اتحاد تعاوني أو عن طريق الحرب إذا تطلب الأمر ، ولا يقبلان بأي سلام على حساب مصالحهما[٣٤] .

ومنذ القرن السادس عشر شاع اصطلاح التوازن وأصبح جزءا من اللغة السياسية ، وأحد المفاتيح المهمة في السياسات الدولية الناجحة ، أما على الصعيد النظري فقد اهتم به المفكرون ودرسوا اشكاله المختلفة والنتائج المترتبة على وجوده . . ويعرف أشهر كتاب القانون الدولي في كتابه (قانون الدول) يعرف توازن القوى بأنه : - (المخطط الذي يفهم عن طريقه ، وجود ذلك الوضع الذي لا يمكن اي دولة من السيطرة سيطرة مطلقة وفرض قوانينها على الدول الأخرى) [٣٥] ويعرفه البروفسور (سدني -ب - فاي) في دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية بأنه (تعادلا صحيحا في القدرة ، بين اعضاء أسرة الأمم ، بحيث يمنع واحد منها ان يصير قويا أكثر مما ينبغي فقادرا على ان يفرض ارادته على الآخرين) [٣٦] ويعرفه (دانيال كولار) بأنه (السياسة التي لا يجوز بحسبها ان تمتلك دولة ما قوى تجعل جيرانها في عجز عن الدفاع عن مصالحهم بوجهها ،

---

٣٤) هانز - جي - مورجانتور - السياسة بين الامم - ص ٢٥٨ .

٣٥) المرجع السابق - ص ٢٩٦ .

٣٦) انظر بعض التعريفات لدى د . اديب نصور - ميزان الدول - منشورات جامعة قار يونس - بنغازي - ليبيا ط١ - ١٩٩١ م ص ٣٠ .

يقوم على حسن النية والحذر ، يسمح للأطراف بالمحافظة على استقلالها وعدم الوقوع تحت سيطرة قوة عظمى . . وهو مبدأ يشكل أداة تجريبية لتثبيت العلاقات الدولية .)[٣٧]

ولم تعرف الموسوعة البريطانية ميزان القوى تعريفاً دقيقاً ولكنها وصفته مجرد وصف فيرد في الصفحة ١٠٥٦ من الموسوعة عن ميزان القوى أنه مصطلح استخدم منذ القرن السادس عشر للتعبير عن نوع من العلاقات الدولية ، حين تعمل دولة أو مجموعة من الدول لحماية نفسها من أمة أو مجموعة من الأمم من خلال عملها على أن تكون لها قوة تعادل قوة الطرف الآخر ، وتعترف الموسوعة بأن إستخدام هذا المصطلح في العصور الحديثة لايمنع من أنه كان معروفاً منذ القدم ، وتنسبه الى الفيلسوف السياسي الهندي (كاوتيليا) الذي قدم أفضل تحليل له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وتذهب الموسوعة الى التركيز على الصراع الداخلي ، فالتوازن لايقتصر على العلاقات الدولية بل أنه ينشأ حيثما وجدت مجاميع إجتماعية تسعى للحفاظ على نفسها في مواجهتها مع الآخرين ، فيتطلب الأمر تكتل القوى في مواجه القوى المنافسة وفي نظر الموسوعة يمثل النظام الدستوري الامريكي النموذج الأبرز لنظام توازن القوى .

والواقع أن وصف الموسوعة البريطانية لتوازن القوى الدولي يقتصر على وصف توازن القوى التقليدي القائم بين دولتين متصارعتين ، حيث يتوجب على كل واحدة منها أن تسعى لزيادة قوتها أما بضم أراضي جديدة أو بالتحالف مع قوة أخرى .

---

٣٧) دانيال كولار – العلاقات الدولية – ترجمة د . خضر خضر – دار الطليعة – بيروت – ط٢ ص ٧١ .

إن البحث الأعمق في توازن القوى ومعرفة أشكاله وفنونه قد جاء متأخراً ، أما أفضل من بحث في ذلك في العصر الحديث فهو العالم الامريكي (هانز . جي . مورجنتاو) .

- نظرية مورجنتاو في توازن القوى...

٣٨ - من بين كتاب العصر فإن أفضل من كتب عن توازن القوى هو (هانز . جي مورجنتاو)(٣٨) في كتابه المعروف (السياسة بين الامم) ، وهو عالم سياسي بارز ، الماني الاصل ، امريكي الجنسية ، وقد كتب هذا الكتاب في ضوء خبرته السياسية الناشئة عن كونه أحد شهود العصر على الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، واللتين ارجعهما إلى توازن القوى الذي سبقهما نظرا لافتقار هذه التوازنات الى اليقين والواقعية والكفاية المذهبية فلو توفر لهذه التوازنات العناصر المشار إليها لما اندلعت الحروب . وقد نشر (مورجنتاو) كتابه عقب الحرب العالمية الثانية واعيدت طباعته مرات عديدة وترجم إلى العديد من اللغات وأصبح احد الاثار السياسية البارزة في القرن العشرين وبهذا الكتاب أصبح (مورجنتاو) رائد المدرسة الواقعية في السياسة الدولية ، ووصفت مدرسته بانها تشاؤمية ، وقد يعود ذلك إلى آلام التمزق التي ربما عاناها على الصعيد الشخصي ، فلا شك ان هزيمة امته (المانيا) مرتين خلال جيل واحد وما عاناه شعبه من ويلات الحروب قد اثرت في وجدانه كما ان انتصار دولته (أمريكيا) خلال الحربين ربما اصابه ببعض الزهو ، فهو على أية حال انتصار للقيم التي انحاز إليها بالتجنس . . .

---

٣٨) دانيال كولار - العلاقات الدولية - ترجمة د . خضر خضر _ دار الطليعة - بيروت - ط ٢ - ص ٧١ .

أن تشـاؤمـيـة (مـورجنتـاو) تبـدو مـفـهـومـة ، بغض النظر عن العناصر الموضوعية ، وهي عناصر قد لا تفرض التشاؤم ولكنها تلزم بالواقعية التي اتسمت بها مدرسته فالواقع الدولي ، على مر العصور ، لا يدعو للتفاؤل ، وما زالت القيم التي تدعو لهذا التفاؤل بعيدة المنال . وما دام الامر كذلك فإن الواقعية هي الاتجاه الامثل . . وقد خصص(مورجنتاو) القسم الرابع من مؤلفه لتوازن القوى كأحد الكوابح الرئيسة للبحث عن السلطان القومي وبالتالي كطريق للاستقرار والسلام ، وتلك هي النقط الرئيسية التي جلبت عليه المعارضة ، فبعد الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة للانتصار الامريكي الساحق فإن مدرسة أخرى قد نمت وهي مدرسة تدعو للهيمنة وتعزيز القيادة الامريكية للعالم ، وقد ذهبت هذه المدرسة إلى ان الهيمنة وليس توازن القوى هي مايمكن ان يحقق السلام (٣٩) .

على ان كل ذلك لا يمكن ان يقلل من أهمية (مورجنتاو) العلمية ومكانته في ارساء مفاهيم جديدة للسياسة الخارجية . . . فقد اثرت مفاهيمه عن توازن القوى في جيل كامل من الساسة الذين لعبوا أبرز الأدوار في السياسة الخارجية الامريكية ولعل في مقدمتهم الرئيس الامريكي (ريتشارد نيكسون) ووزير خارجيته (هنري كيسنجر) .

٣٩ - وتذهب خلاصة افكار(مورجنتاو) إلى ان توازن القوى هو ظاهرة

---

٣٩) ولعل ابرز اتباع هذه المدرسة اليوم هو زبغنيو بريجنسكي الذي عنون احد مؤلفاته بـ (أوهام في توازن القوى) والذي عارض فيه بصورة اساسية سياسة نيكسون الرامية إلى الحفاظ على توازن الأقطاب المتعددة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وأوربا واليابان كطريق للسلام ، فعارض بريجنسكي هذا التوازن اللاواقعي في نظرة ودعي كبديل لذلك خلق سياسة تعاونية بين أمريكيا والاتحاد السوفيتي وذلك للحد من الصراع الدولي وسنتعرض فيما بعد لافكار بريجنسكي بشيء من التفصيل .

طبيعية في حياة الدول ، فالسياسة الدولية ليست سوى صراع من اجل القوة ، وتوازن القوى هو نتيجة حتمية لهذا الصراع . .

يقول مورجنتاو (يؤدي التطلع إلى السلطان من جانب دول عديدة تسعى كل واحدة منها أما إلى الحفاظ على الوضع القائم أو إلى الاطاحة به)[٤٠] ، يؤدي بحكم الضرورة إلى صورة أو تشكيلة تسمى بتوازن القوى وإلى سياسات تهدف إلى الحفاظ عليه . وهو يؤيد ايضا بأن السياسة الخارجية التي تقوم على توازن القوى ليست الا واحدة من عدة سياسات خارجية محتملة[٤١] .

ويعترف مورجنتاو مقدما بصعوبة تعريف توازن القوى ، نظراً لأن اطلاقه كثيرا مايؤدي إلى فهم متعدد ، ويقول انه هو نفسه سيستخدمه بأربعة معاني ، فقد يستخدمه كسياسة تهدف إلى حالة معينة من الاوضاع ، وقد يستخدم للاشارة لوضع فعلي ، اي ان نتحدث عن توازن معين في زمن محدد ، وقد يعني به التوزيع التقريبي المتكافئ للقوة ، وقد يعني مجرد توزيع القوة ، وذلك بغض النظر عن كيفية توزيع هذه القوة ومقدار التكافؤ بين قوة الأطراف .

٤٠ - إننا سنتعرض كثيراً لافكار (مورجنتاو) عن توازن القوى ، غير اننا هنا سنقتصر على تعريفه للتوازن ، وهو تعريف ينطوي على افكار جوهرية

٤٠) تشير مقولة مورجنتاو هذه إلى ديناميكية توازن القوى ، فهو ليس بتوازن جامد ينجم جموده عن رضا الأطراف الدولية به ، فالواقع ان توازن القوى يحظى بالحيوية لآن بعض الأطراف الاقوى تسعى للحفاظ عليه ، لأن الوضع القائم يخدم مصلحتها بينما تسعى الأطراف الأخرى إلى تعديله لمصلحتها أو الاطاحة به كلياً خدمة لمصلحتها وهكذا فإن التوازن يشهد جملة من التفاعلات والتحالفات وهي المسؤولة عن تبدل أشكاله .

٤١) مورجنتاو - السياسة بين الامم - ص ٢٣٧

مختلفة عن كل الذين سبقوه ، فمعظم الذين سبقوا (مورجنتاو) ركزوا على خصيصة اساسية تتعلق بالعلاقة بين التوازن والإستقرار ، فالتوازن بنظرهم هو الوضع الذي ينعدم فيه الإغراء باللجوء إلى العمل العسكري نتيجة لوجود أقطاب متكافئة قادرة على ردع بعضها بعض بصورة متبادلة . . .

إن حالة الردع المتبادل هي ما يخلق الإستقرار ولذلك فقد إعتقد بعضهم بإن الإستقرار هو هدف التوازن ومرادف له . . فكلما نشأت حالة إستقرار ظنوا أن هناك وضع دولي متوازن .

غير ان المعضلة هي ان الحروب كثيرا ما تندلع مع وجود توازن قوى ، كما ان الاستقرار قد يتحقق دون وجود توازن ، فإذا كان الاستقرار هو الهدف ، فإن هذا الهدف يمكن تحقيقه في ظل سيطرة طرف دولي واحد . . . ولذلك فإن مورجنتاو يشترط لوجود التوازن ، الحفاظ على الاستقرار والحفاظ على ظاهرة التعدد في الوقت نفسه . . فالعناصر المكونة للتوازن ضرورية ويجب ان يكون لها الحق في الوجود . . ومن هذا المنطلق فإن (مورجنتاو) يقدم تعريفاً أكثر اكتمالاً لتوازن القوى فهو (نظام يهدف إلى الحيلولة دون أي عنصر من تحقيق التفوق على العناصر الأخرى ، يحفظ الاستقرار دون تحطيم ظاهرة التعدد في العناصر التي تؤلفه ، فضمان الاستقرار ليس هو وحده هدف التوازن ، فالاستقرار يمكن ان يتحقق عن طريق السماح لعنصر واحد بتحطيم العناصر الأخرى والتغلب عليها والحلول محلها ، هدف التوازن هو الاستقرار مضاف إليه المحافظة على العناصر المؤلفة للنظام .)[٤٢]

---

٤٢) مورجنتاو – المرجع السابق ص ٢٤٠

٤١ - هنري كيسنجر .... التوازن والاستقرار.

من المحتمل ان يكون (هنري كيسنجر) هو ابرز اكاديمي ثم كسياسي يبدى إهتماماً بمسألة توازن القوى ، وقد يعد الوريث الرئيسى لاطروحات (مورجناتو) .

وعند دراسة كيسنجر ، من الأفضل الاهتمام بصورة اكبر بطوره الأكاديمي ، فقد كان في هذا الطور أكثر تأملا في فلسفة التاريخ بشكل صاف ، أما فيما بعد فإن الممارسة السياسية افسدت الكثير من صفاء المؤرخ وفكره .

ان ذلك مستمد من طبيعة الدولة ، والدولة الكبرى خصوصاً ، فإذا كانت الدول على عمومها مجبولة على الصراع ، فإن هذه الغريزة تصبح جامحة بالنسبة لقوة عظمى ، فصراعات الكبار خطرة للغاية ، ومن الصعب على سياسي يستخدم ادوات الصراع فعلياً ان يخضع لتأملات مفكر ، حتى لو هجع الأخير في أعماق السياسي نفسه . .

ان كيسنجر السياسي سعى لتحطيم توازن القوى الذي وجده بين يديه ، فهو احد الذين شاركوا في تحطيم توازن ما بعد الحرب الباردة متنكرا بذلك للمعتقدات الفكرية التي سبق وان عبر عنها ، ومع ذلك فإنه نادى فيما بعد بضرورة العودة إلى التوازن ولو بخلقه إذا لم يظهر بطريقة طبيعية (٤٣) . فشعار كيسنجر المسيطر (لا إستقرار بدون توازن) .

---

٤٣) عبر كيسنجر عن ذلك مرارا ويمكن على سبيل المثال العودة إلى مقاله (جدول اعمال ما بعد الحرب) الذي كتبه بعد نهاية حرب الخليج الثانية وانهيار الاتحاد السوفيتي ،يمكن مراجعة المقال لدى – صبحي حديدي – حرب العالمين الاولى – منشورات الارض – قبرص – ط ١ – ١٩٩١ م ص ١٧٩

إن هذا الشعار هو من صنع (ميترنيخ) وزير خارجية النمسا أوائل القرن التاسع عشر ، والذي صنع مع (كاستلري) الوزير البريطاني قرن أوربا الدبلوماسي (١٨١٥ - ١٩١٤م) .

إننا سنعرض فيما بعد تجربة ميترنيج بشئ من التفصيل عند بحثنا للموازن . . لكننا في هذا المقام نشير إلى التأثير الكبير الذي احدثته هذه التجربة في فكر كيسنجر .

ان كيسنجر هو الإمتداء العصري لمترنيخ ، ففي الاطروحة التي اعدها كيسنجر تحت عنوان (عالم يعاد بناؤه) [٤٤] وذلك لنيل درجة الماجستير استطاع وضع يده على جوهر نظرية ميترنيخ وهي الربط بين ، الاستقرار وتوازن القوى . . وقد كان ميترنيخ أمينا على معتقداته ، فقد استطاع المشاركة في صنع استقرار أوربا عن طريق بناء توازن قوي من نمط خاص استمر لقرن من الزمان . .

٤٢ - وقد حاول كيسنجر اعادة تكرار دور ميترنيخ ،غير انه فشل عملياً في ذلك على الرغم من اجادته لفهمه ، ومن المحتمل ان سبب الفشل يعود إلى مقدار القوة التي وجدت بين يدي الطرفين . فبينما وجد ميترنيخ نفسه وسط قوى اوربية متعددة ، وكانت بلاده مجرد قوة من هذه القوى ، فإن كيسنجر وجد نفسه وبين يديه قوة هائلة اغرته بإستخدامها بشكل يتناقض مع معتقداته السياسية عن توازن القوى .

إن وجود النمسا ضمن قوى متعددة ، ولم تكن هي اقواها قد اجبر

٤٤) ترجم هذا الكتاب للعربية تحت عنوان (درب السلام الصعب) وهي ترجمة امينة ومعبرة عن مضمون الكتاب وهو من ترجمة د . علي مقلد ومن منشورات الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت ١٩٨٤م .

ميترنيخ على لعبة التوازن التي حفظت لبلاده دورها المرموق كما سنرى فيما بعد ، وذلك هو مصدر اعجاب كيسنجر بميترنيخ ،غير ان كيسنجر اراد ان يمارس الدور نفسه بصنع توازن قوى يعطي بلاده مكانتها المرموقة أيضاً ، غير ان الظرف التاريخي تغير كليا ، فالولايات المتحدة الامريكية وجدت نفسها الاقوى في توازن قوي ثنائي ، فأغرته هذه القوة بالسعى إلى تحطيم التوازن لمصلحة بلاده ، وقد تحطم هذا التوازن بالفعل بعد ان ذهبت عنه مسؤلياته وخروجه من البيت الابيض . .

غير ان ذلك لم يغير معتقد كيسنجر بالربط بين (التوازن والاستقرار) ، ففي عدد من المقالات التي كتبها بعد انهيار توازن الحرب الباردة ، وجدناه يحن إلى ضرورة اعادة بناء التوازن .

إن الربط بين التوازن والاستقرار هو الفكرة الجوهرية لدى كيسنجر ، فمنذ البداية في كتابه (عالم يعاد بناءوه) يؤكد كيسنجر على هذه الحقيقة ، فالإستقرار الذي شهدته القارة الاوربية قبل الثورة الفرنسية هو ثمرة توازن اوربي انتج شرعية مقبولة لدى كل الأطراف ، أما الثورة الفرنسية فهي محاولة ليس فقط لتحطيم الملكيات الاوربية بل لتحطيم التوازن .

إن ما صنعه ميترنيخ وكاستلري بعد هزيمة نابليون هو خروج من الفوضى والعودة إلى التوازن الذي هو شكل من اشكال النظام الدولي . .

إن عبقرية ميترنيخ وكاستلري التي صنعت القرن الدبلوماسي ترجع إلى فهم الرجلين لقوانين التاريخ ، فما صنعاه كما يقول كيسنجر ليس ثمرة استبصار فردي ولكنه نتيجة للإلمام بالحقائق السياسية ، وقد كان هم كاستلري بناء نظام تتوازن فيه القوى اما غاية ميترنيخ فهي تقوية هذا التوازن

وتنصيب نفسه حارسا له [٤٥] .

وبما ان كيسنجر هو امتداد ميترنيخ الذي درس شخصيته وتبنى افكاره واعجب بها ، فإن علينا اذن إن نتتبع الجذور ، والاعتقاد المطلق في مسألة التوازن كان مذهب ميترنيخ ، وقد كتب يقول (أن الدولة المنعزلة ، ليست الا تجريدا من فلاسفة مزعومين ، في مجتمع للدول ، لكل منها مصالحها . . . التي تربطها بالأخريات . وبديهيات العلم السياسي تنبثق من الاعتراف بالمصالح الحقة لجميع الدول دون استثناء . وضمان الوجود لا يمكن ان يرتكز الا على المصالح العامة ، في حين ان المصالح الخاصة أي المصالح التي يجدها الافراد المضطربون أو المحدودون عاقلة وجديرة بالرعاية - تعتبر ذات اهمية ثانوية ، ان التاريخ المعاصر يدل على وجوب تطبيق مبدأ التضامن والتوازن . . وعلى وجوب بذل الجهود التضامنية بين الدول في نضالها ضد هيمنة دولة وحيدة ، حتى يمكن فرض العودة إلى القانون المشترك . . .)[٤٦]

٤٣ - إن العالم في نظر ميترنيخ وكيسنجر لا يحتمل غير وضعين ، اما وضع دولي يقوم على هيمنة دولة وحيدة أو نظام دولي يقوم على توازن القوى . . . اما حالة الهيمنة فإنها تقود للاضطراب اما حالة التوازن فإنها تصنع النظام الدولي المستقر .

وقد ناضل ميترنيخ ضد الهيمنة التي حاول فرضها نابليون ، وصنع توازن القوى الذي انتج النظام الدولي ، وعلى الرغم من إختلاف بعض الظروف فإن كيسنجر يدعو إلى نظام التوازن ، ففي احدى مقالاته الاخيرة يدعو بلاده إلى

---

٤٥) هنري كيسنجر - درب السلام الصعب - سبق الاشارة إليه - ص ٢٤ .

٤٦) هنري كيسنجر - المرجع السابق - ص ٣٥ .

السعي لتشكيل النظام الدولي على اساس التوازن ، وذلك على الرغم من أنها القوة المهيمنة في الوقت الراهن ، وينطلق كيسنجر في رأيه من ان تلك هي مصلحة الولايات المتحدة ، ليس لانه لايرغب في هيمنتها ، ولكنه كما يقول ، لن تكون قادرةً عليها إلى أمد طويل .(٤٧)

إن كيسنجر أكثر وضوحاً في دعوته لاقامة توازن قوى جديد ، وذلك في آخر كتاب نشره (الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا) فبعد إستعراضه للنظام الدولي والشعارات التي قام عليها فإنه يخصص الفصل الأخير المعنون بـ(النظام العالمي الجديد أو رؤية جديدة) لطرح وجهات نظره التي تقوم على الدعوة إلى التوازن ، لأن التفرد بأحوال العالم من قبل أمريكيا مسألة ليست مقدور عليها إلى اجل طويل ، رغم انتصار أمريكيا وتفوقها الساحق .

وفي ذلك يقول (تمخضت نهاية الحرب الباردة عما اطلق عليه بعض المراقبين عالم (أحادي القطب) أو عالم(قوة عظمى وحيدة) . غير ان الولايات المتحدة على الصعيد الواقعي ليست بحال يؤهلها لإملاء جدول الاعمال الكوني لوحدها ، أفضل مما كانت عليه مع تباشير الحرب .

نعم انها أكثر تفوقا مما كانت عليه قبل عشر سنوات ، غير ان القوة باتت ويا للسخرية اقل فاعلية في عالم اليوم . وهكذا تضاءلت قدرة أمريكيا عمليا على تسخير القوة لقولبة بقية انحاء المعمورة)(٤٨) .

---

٤٧) هنري كيسنجر – المرجع السابق ص ٣٥ .
٤٨) هنري كيسنجر – الدبلوماسية من الحرب الباردة إلى يومنا هذا – ترجمة مالك فاضل البديري – الاهلية للنشر والتوزيع – الاردن – ط١ – ١٩٩٥ م ص ٥٣٢ .

وما دام الأمر كذلك ، فإنه لا بديل عن اقامة توازن قوي جديد يرسى نظام دولي كالذي أرسته معاهدة وستفاليا ودام قرن ونصف ، والذي أرساه مؤتمر فينا ودام قرن من الزمان .

فيقول كيسنجر (يتجلى مفهوم توازن القوى واضحا في ذهن طالب التاريخ الأوربي . بيد أنه ، مثلما هو حال مصلحة الدولة ، شيء ناشيء في آخر قرنين ونطق به اصلا الملك الانجليزي (وليام الثالث) لكبح التوسع الفرنسي . وليس مما يدهش في حد ذاته ائتلاف قوى لتشكيل ثقل مقابل للقوة الاقوى ، لأن توازن القوى يقتضي تحرك متواصل فجدير بقادة أمريكيا في القرن الآتي اطلاع شعبهم على مفهوم المصالح القومية وايضا في كيفية بلوغها - في أوربا وآسيا - عن طريق المحافظة على توازن القوى . فستعترى أمريكيا حاجة لشركاء لحفظ التوازن في عديد من مناطق البسيطة ، وليس من المتاح انتقاء هؤلاء الشركاء وفق اعتبارات اخلاقية وحسب . فيتحتم ان يكون التعريف الواضح للمصالح القومية دليلا للسياسة الامريكية .

كان اطول ردح دام به نظام دولي دونما اندلاع حرب كبرى ذاك الذي اعقب مؤتمر فينا فقد جمع بين الشرعية والتوازن والقيم المشتركة ودبلوماسية توازن القوى ، وبه حجمت القيم المشتركة نطاق مطالب الأمم فيما قلص التوازن درجة الاصرار عليها . بيد ان أمريكيا حاولت في القرن العشرين ان تنشيء نظاما عالميا قائما على قيمها وحدها تقريبا . فهي تبذل مجهودا بطوليا مسؤولا عن معظم ماهو خير في العالم المعاصر . غير ان من المحال ان تغدو الولسونية الاساس الوحيد لحقبة ما بعد الحرب الباردة) [٤٩] .

---

٤٩) المرجع نفسه ص ٥٤٣ .

إن دعوة كيسنجر هنا واضحة في الدعوة إلى توازن القوى كوسيلة لحفظ المصالح القومية الامريكية ، التي لا يمكن الحفاظ عليها بواسطة الهيمنة ، وهو يذهب إلى ما هو ابعد من ذلك بالدعوة إلى تربية النشئ في أمريكيا على هذا الاساس بإعادة ايضاح وترسيخ مفاهيم المصالح القومية وتوازن القوى مثلما ترسخت هذه المفاهيم عند النشئ الأوربي ، ذلك ان كيسنجر يعرف ان شعبه ما زال قليل الخبرة باصول ممارسة السياسة الدولية ، وهو يخشى بأن حالة القوة والهيمنة مضاف إليها الخبرة السياسية القليلة قد يقودان شعبه نحو نزعة الفوضى ، مماسيقود الكبار الآخرين إلى الصدام معها . . . وذلك ينطوي على خطورة بالغة .

وخلاصة الأمر فإن توازن القوى هو مفتاح الاستقرار في نظر كيسنجر ، فهذا بنظره احد دروس التاريخ البليغة ، لكن ما نوع التوازن الذي يرسى الاستقرار ؟ وما مواصفاته وخصائصه؟ اننا سنجيب عن هذه الاسئلة في الفصول القادمة .

٤٤ -غير ان مايجب ان نشير إليه في خاتمة هذه الفقرة ، هي ان محاولة الاعتقاد بمسألة توازن القوى أصبح نهجاً واقعياً في السياسة الدولية كما في الدراسات الاكاديمية ، وقد استطاعت هذه الدراسات كسب قادة كبار في الساحة السياسية ، فلم يتوقف تأثير هذه المدرسة على الاكاديميين من امثال (مورجنتاو وكيسنجر) بل امتد إلى السياسيين المثقفين ، ولعل ابرزهم الرئيس الاميركي الراحل (ريتشارد نيكسون) الذي تبنى الكثير من اطروحات وزير خارجيته ، بل ان هذه المدرسة يمكن ان يقال انها أصبحت تيارا فاصلا بين الجمهوريين والديموقراطيين في الولايات المتحدة الامريكية ، فبينما يؤمن الجمهويون بتوازن القوى أحد مفاتيح الإستقرار الدولي ، فإن الديموقراطيين

يعارضون طروحات هذه المدرسة ، وإذا كان كيسنجر ونيكسون هم رموز التوازن فإن (زبغنيو بريجنسكي) هو ابرز المعارضين لمسألة التوازن وقد مد تأثيراته لمعظم الديموقراطيين في الولايات المتحدة ، وفي كتابه (أوهام توازن القوى) دعوة واضحة للهيمنة طريقاً للإستقرار[٥٠] .

تعريفنالتوازن القوى....

٤٥ – إستعرضنا في ما سبق التعريفات المختلفه لتوازن القوى وبغض النظر عن الإختلافات بينها فإنها جميعا تعكس وجود نظام دولي تتوزع فيه القوة بين عدد من الأطراف الدولية ، كما ان معظمها ينطلق من فرضية وجود الصراع الدولي كظاهره تؤدي بطبيعتها إلى تشكيل هذا التوازن . غير ان الاختلافات تنشأ فيما بعد حول الاستنتاجات الرئيسة التي يؤدي إليها هذا النظام ، وذلك في أعتقادنا ناشئ عن تعدد أشكال التوازن لا التوازن نفسه .

إننا نعتقد أن تعريف (مورجنتاو) أكثر اكتمالاً من تعريفات الذين سبقوه وقد يرجع ذلك إلى تكريسه لجزء غير قليل من جهده لدراسة هذه الظاهرة فدراسته كانت رائد ة في هذا المجال .

إننا ننظر إلى توازن القوى على انه نتيجة حتمية لظاهرة الصراع الدولي ، فرأينا يذهب إلى ان الصراع ظاهرة طبيعية في حياة الدول ، فهو غريزة من غرائز الدولة ، فما من دولة نشأت إلا وكانت غايتها المستمرة هي زيادة قوتها ونفوذها إلى اقصى حد ، ومن الوهم الاعتقاد بوجود تلك الدولة العاقلة إلى الحد الذي يجعلها قانعة بما لديها من قوة ، فهي ان فعلت ذلك سرعان ما تقع ضحية لسلطان الدول الأخرى . .

٥٠) زبغينيو برجنسكي – اوهام توازن القوى – مرجع سبق الاشارة إليه – .

وبما ان الصراع ظاهرة طبيعية فمن البديهي ان تصل مجموعة من الدول إلى غاياتها نسبياً لتبلغ درجة من القوة المتقاربة فيتشكل من بينها توازن القوى الذي يصنع النظام الدولي . . .

ان هذا التوازن ، لايتصف بالجمود ، فهو حركى بطبيعته ، فالأطراف التي تشكله تظل متصارعة وراغبة في التفوق ، غير أن تعادلها النسبي في القوة يفرض عليها الالتزام بمسلك معين ، فكل منها سيحاول زيادة قوته بطريقة غير محسوسة لاتثير حفيظة الآخرين ، وسنتعرض فيما بعد إلى اساليب التأثير في توازن القو ، غير ان أهم الوسائل المشروعة لزيادة القوة ، هي سياسات التحالف الدولي وذلك هو ما يجعل التوازن حركيا ، فهو يشهد طيلة بقائه تبدلات نوعية تسير به نحو حتمية معينة أيضاً تؤدي في نهاية المطاف إلى تحطيمه وقيام توازن جديد .

٤٦ - اننا على أية حال نعرف توازن القوى بإنه (حالة من التوزيع المتعادل أو شبه المتعادل للقوة والتأثير بين القوى ، الدولية الأساسية ، توزيعاً يخلق نظام دولي يجعل هذه القوى المؤثرة ، تتصرف في ضوء مجموعة من القواعد المحددة ، بما يحفظ الاستقرار الدولي ويحافظ على وجود الأطراف الاساسية في زمن التوازن) .

ان هذا التعريف ينطوي على العناصر الرئيسية لتوازن القوى ، فكل توازن يجب ان ينطوي على الخصائص والشروط الآتية : -

أ - وجود عدد من الأقطاب الدولية الأساسية .

ب - توزيع متعادل أو شبه متعادل للقوة والتأثير بين هذه الأقطاب .

ج - وجود قواعد للتصرف يفرضها التعادل في القوة .

د - الحفاظ على الأطراف الدولية في زمن التوازن .

هـ - خلق حالة من الاستقرار النسبي .

تلك هي في أعتقادنا العناصر الاساسية لتوازن القوى ،فهو يشترط وجود عدد من الأطراف الدولية المتعادلة في القوة ، بحيث لايقل عن طرفين في أي وقت ، سواء أتخذ هذان الطرفان شكل الدول أم الكتل الدولية ، فإذا انحصر الأمر في قطب واحد ، سواء كان دولة أم كتلة فإن حالة التوازن تنعدم تماماً ليتحول العالم نحو حالة الهيمنة وهي منافية للتوازن .

كما يشترط في التوازن ان تتوزع القوة والتأثير بين هذه الأقطاب ، بحيث لايتغلب احدها بصورة واضحة على الآخرين ، فإذا حدث ذلك فإن التوازن ينقلب إلى حالة الهيمنة . . .

إن التعادل في القوة ، لا يعني مطلقاً التعادل التام ، بل التعادل النسبي بحيث يكون كل طرف قادراً بصورة منفردة أو بالتحالف مع آخرين ، بردع الطرف الآخر ودفعه إلى التصرف بصورة عقلانية . . .

إننا نعني بالقوة ، مجموع القدرات العسكرية والاقتصادية والسياسية المتاحة لكل طرف من أطراف التوازن ، فعلى الرغم من أهمية القدرة العسكرية في التعرف على توازن القوى ، إلا انها ليست العامل الأوحد ، فقد تتفوق دولة ما في قدراتها العسكرية غير ان قصورها في المجالات الأخرى يضعف تأثيرها ، لكنها تظل مؤثرة في توازن القوى بثقلها العسكري وقد تستمد دولة أخرى تأثيرها من دهائها السياسي أو وزنها الاقتصادي ، غير ان أي قدرة لابد ان تكون مدعومة بقوة عسكرية لها وزنها ، فالعامل العسكري يظل مهماً عند تقدير مقدار قوة الدولة . . . فما زالت اليابان خارج لعبة التوازن على الرغم من

ثقلها الاقتصادي ، إننا نضيف التأثير إلى القوة ، فأطراف التوازن يجب ان تكون مؤثرة بدرجة ما ، فالقوة وحدها لاتكفي ، فهي إذا وضعت بين ايدي ضعيفة وارادة سياسية غير صارمة فإن الطرف القوي يصبح قليل التأثير بحيث لا يمكن حسابه ضمن موازين القوى ، ولعل أبرز مثال لهذه الحالة هو روسيا في الوقت الحاضر ، فهي على الرغم من قوتها العسكرية الموازنة تقريبا للولايات المتحدة الا ان ارادتها السياسية الضعيفة واوضاعها الاقتصادية المنهكة حرمتها من المشاركة في توازن القوى ، فهي قوة ولكنها ليست مؤثرة [٥١] .

إن التوازن بطبيعته يقود إلى شرعية ما تفرض قواعد محددة للسلوك ، فالقوى المتعادلة تمارس الردع بشكل تبادلي مع غيرها من الأطراف ، فكل طرف لايستطيع احراز نصر حاسم كما ان قوته وكبريائه لايسمحان له بالتسليم ، فهو مضطر للتعايش مع أضداده وفق قواعد محددة وشرعية مقبولة منهم .

إن هذا التصرف هو الذي يقود للإستقرار الدولي مع مواصلة الأطراف المتعارضة رحلتها الخاصة نحو غاياتها بصورة بطيئة نسبياً وغير محسومة تهدف إلى الإخلال بتوازن القوى في نهاية المطاف ودون السماح ، ما أمكن ، لأي لاعب جديد من الدخول إلى حلبة صراع الكبار ، وذلك هو ما يسمح لجميع عناصر التوازن بالبقاء طيلة زمن التوازن ، غير ان بعض الأطراف يصاب في نهاية الامر بالارهاق ، كما ان قوى أخرى متوسطة القوة ، إذا مارست بذكاء سياسة واقعية ، ومستفيدة من الصراعات القائمة بين الأقطاب الكبرى ، تستطيع ان تفرض نفسها ذات يوم لاعباً جديداً ، وعند سقوط البعض

---

٥١) يراجع في العناصر المكونة للقوة - اكرم ديري - آراء في الحرب - المؤسسة العربية للدراسات بيروت ط ٤ - ١٩٨٤ ص ٤٩ وما بعدها .

ونهوض الآخر ، يرتسم توازن دولي جديد ، سيسير حتما على القواعد نفسها .

٤٧ - ذلك هو بنظرنا تعريف توازن القوى وخصائصه الرئيسية ، غير ان للتوازن أشكال مختلفة ، يؤدي كل شكل منها إلى حالة دولية محددة المعالم ، فالتوازن قد يقود إلى الاضطراب والحرب وقد يؤدي إلى الإستقرار والسلام وتلك هي المعضلة الرئيسية التي سنبحث في الفصل القادم .

الفصل الثالث

في اشكال توازن القوى .... ونتائج ذلك

٤٨ - ليس لتوازن القوى صورة واحدة ، فعلى الرغم من أن فكرته الجوهرية هي توزيع القوة بين الأطراف الدولية ، إلا ان هذه الأطراف قد تزيد أو تنقص ، ففي اثناء الصراع قد يصل عدد قليل من الدول إلى حالة من التعادل النسبي في القوة ، فيتشكل بينها توازن للقوى ، يعتمد على تعدد الأقطاب الدولية ، وقد اطلق على هذا النوع من التوازن (التوازن المتعدد الأقطاب ، أو التوازن المركب) واحياناً التوازن المعقد ، بحكم تعقد العلاقة المعتمدة على كثرة التحالفات بين الأقطاب انفسهم . . . .

وقد يسيطر على توازن القوى دولتان قويتان أو كتلتان دوليتان ، فيصبح التوازن ثنائي الأطراف ، وقد اطلق على هذا التوازن (التوازن البسيط) ، فهو توازن يقوم على وضوح بروز قوتين عظميين ، وتأتى البساطة من طبيعة العلاقة التي يفرضها هذا النوع من التوازن بين هاتين القوتين ، فخطوط العلاقات الدولية في هذا النوع يصبح أكثر وضوحاً بالنسبة للأطراف الدولية الأخرى .

تلك هي الصور الرئيسية لتوازن القوى ، لكنه كما يقول ارسطو ، ليس هناك من الرياح سوى الشمالية والجنوبية ، اما بقية الرياح فهي مشتقة منها ، فكذلك التوازن هو بسيط أو مركب لكن هذين الشكلين الرئيسيين للتوازن ، ينتجان انواعاً آخرى ، مثل التوازن المرن والتوازن الجامد ، أو توازن الأنظمة المتجانسة وتوازن الأنظمة المتنافرة وتوازن الانظمة المعتدلة والأنظمة الثورية . . .

٤٩ - إن هذه الاشكال من التوازنات هي مجرد اوصاف ملحقة بالنوع الاصلي للتوازن ، فقد يكون التوازن البسيط توازناً مرناً أو جامداً ، معتدلاً أو ثورياً ، قائم بين انظمة متجانسة أو متنافرة وهكذا فإن هذه الاوصاف تلحق أيضاً بالتوازن المتعدد الأطراف .

فالتوازن مهما كان شكله ليس من طبيعة واحدة ، فطبيعة التوازن ، كما يقول (ريمون آرون) لاتنبع فقط من عدد الأطراف ، بل تخضع أيضاً لطبيعة الدول والاهداف التي يلتزم بتحقيقها ، اولئك الذين يسيطرون على السلطة .

ويعتقد بعض علماء العلاقات الدولية ، ان قضايا الحرب والسلام ، تتعلق بهذه الاوصاف ، فالتوازن المرن ، أياً كان نوعه كثيراً مايؤدي إلى الاستقرار ، لأن الأقطاب المسيطرة فيه هي اقطاب متجانسة ، فالتناقض بينها ليس حاداً إلى درجة التصادم ، اما التوزان الجامد ، فهو بحكم التناقض الشديد بينها ، لاسباب حضارية اوثقافية أو ايديولوجية يؤدي إلى التصادم وعدم الاستقرار ، لأن العلاقة بينها تقوم على الشكوك في شرعية القواعد التي يقوم عليها التوازن .

٥٠ - إننا لانستخف بهذا الرأي لكننا لانقبله ، فمسائل الحرب والسلام في رأينا مرتبطة بالنوع الاصلي للتوازن ، وفي رأينا ان التوازن البسيط بمختلف اشكاله هو توازن الحروب والصدامات اما التوازن المتعدد الأقطاب ، فهو الذي يرسي النظام الدولي الأكثر استقراراً .

إن التجانس بين الدول وتشابهها الحضاري والثقافي والايديولوجي ، يساعد بلاشك على الاستقرار لأطول مدة ممكنة ، ويمنح الفرصة للحلول السياسية والدبلوماسية بشكل اكبر حتى في ظل التوازنات الثنائية ، لكن

التوازن الثنائي يقوم على الصدام بطبيعته ، فمهما كانت المرونة بين الأطراف ، فإن التناقص الرئيسي يقود إلى الصدام ، وعلى العكس من ذلك فإن التوازن المتعدد الأقطاب حتى إذا قام بين انظمة متنافرة فإنه يمتلك القدرة الذاتية على خلق الاستقرار . . . . وذلك هو ماسنثبته بالتحليل وبالوقائع التاريخية .

إننا في هذا الفصل سنركز على شرح النوعين الرئيسيين للتوازن ، كما سنخصص بنداً بالأشكال الأخرى وسنتابع تحليل النتائج .

٥١ – لكننا قبل ان نذهب إلى ذلك ، من الضروري ان نشير إلى ان نشوء التوزان وميله نحو شكل محدد ليس عملية مصادفة تاريخية ، بمعنى ان يقود الصراع نفسه إلى هذا النوع أو ذاك من التوازن ، بل ان هناك آلية محددة تصنع هذا النوع ، الذي سيقود هو نفسه (بفعل الصراع) إلى نوع آخر ، وهذا ناجم عن الخصيصة الرئيسية للتوازن وهي حركيته المستمرة . . .

إن هذه الملاحظة ليست مهمة اكاديمياً وحسب بل انها اهم من الناحية السياسية ، فإذا سلمنا بالقواعد الرئيسية التي تحكم التوازن فإننا نستطيع بعد ذلك معرفة نوع التوازن الذي سيسود خلال مرحلة تاريخية مقبلة ، وتأسيساً على ذلك سنعرف ان هذه الفترة التاريخية ستتسم بالاستقرار ام ان عوامل الصدام فيها ستكون هي الارجح ، وهذا في رأينا مهم للغاية في كيفية تصرف رجل الدولة .

ان هذه الملاحظات ستتضح بصورة اكبر مع نهاية هذا الفصل وذلك في ضوء الامثلة التاريخية .

أولاً ـ التوازن المتعـدد الأقطاب

تـوازن الاستقرار والسلام

٥٢ - درج علماء السياسة على دراسة التوازن البسيط اولاً دون سبب ظاهر ، وقد يرجع الامر إلى كونه الصورة الأوضح لتوازن القوى ، اننا هنا نتبع منهجية مختلفة ، قد ترجع إلى اهمية هذا النوع من التوازن في تحقيق الاستقرار والسلام .

تعريف التوازن المتعدد الأقطاب...

٥٣ - يعرف د . اسماعيل صبري مقلد توازن القوى المتعدد الأقطاب بانه التوازن الذي يتكون من مجموعة قوى كثيرة وتعمل هذه المجموعات على موازنة بعضها مع بعض ، وليست هناك حدود قصوى على عدد تلك المحاور والتجمعات في ظل النظام المتعدد لتوازن القوى (٥٢) .

ولا يعرف (مورجنتاو) توازن القوى ، وهو اشهر الباحثين فيه ، ولكنه يشرح صورته فهو في نظره توازن لاتقل أطرافه عن ثلاثة يترتب عليه الاستقرار وحفظ استقلال هذه الأطراف مهما كان احدها ضعيفاً ، فبأفتراض وجود الدول (أ) و (ب) و (ج) ، فإن الدولة (أ) أو الدولة (ب) لاتستطيعان السيطرة على الدولة (ج) لأن القوة التي تحتاج إليها اي منهما للسيطرة على (ج) تتوازن مع قوة الدولة الأخرى ، فيتحقق الاستقرار وحماية استقلال الدولة (ج) الذي هو ثمرة علاقة السلطات القائمة بين الدولتين الآخرتين ، لكن إذا تفوقت

---

٥٢) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - المفاهيم والحقائق - مؤسسة الابحاث العربية ط٢ - ١٩٨٥م - ص١٢٧ - وأيضاً الكاتب نفسه - العلاقات السياسية الدولية - مرجع سبقت الاشارة إليه .

احدى القوتين بشكل واضح فإن استقلال ـــج(يتعرض للخطر بحكم زوال مسألة التوازن .

لكن التوازن في نظر (مورجنتاو) يتطلب وجود طرفين ، في اي حال ، دولة امبريالية ذات طموحات توسعية ودولة رادعة هي مايسميه دولة الوضع القائم ، اي الدولة الراغبة في الحفاظ على توازن القوى القائم . . .

ويتحقق الاستقرار واسقلال الدولة (ج) في حالتين هما ، حين يميل الميزان لمصلحة دولة الوضع القائم أو حين يتحول هدف الدولة الامبريالية نحو هدف آخر هو الدولة (د) ، اما إذا مال الوضع نحو الدولة الامبريالية فإن أستقلال (ج) يتعرض للخطر(٥٣) .

ان (موجنتاو) الذي يعرف التوازن بشكل عام لم يحدد انواعه ويقتصر على وصف التوازن البسيط بانه التوازن القائم على (المعارضة المباشرة) لأن طرفيه يتعارضان بشكل مباشر دون وجود طرف ثالث ، اما التوازن المتعدد الأقطاب فهو (نظام التنافس) ، وهو التنافس الذي يفرضه وجــود طرف ثالث أو أكثر .

٥٤ - إننا نعرف التوازن المتعدد الأقطاب بانه (الشكل من التوازن الذي تتعدد فيه مراكز القوة وتكون المنافسة فيه بين عدة دول أو عدة كتل دولية ، وهي دول أو كتل متكافئة نسبياً مما يجبر جميع الأطراف على التصرف وفق شرعية محددة نظراً للتقييد المتبادل الذي تمارسه الأطراف في مواجهة بعضها مع بعض)(٥٤) .

---

٥٣) هانز - جي - مورجنتاو - السياسة بين الأمم - مرجع سبقت الاشارة إليه - ص٢٤٨ .

٥٤) انظر كتابنا - العرب وتوازن القــوى في القرن الحادي والعشــرين - سبقت الاشارة إليه - ص ٩٦ .

وبناء على ذلك يتصف التوازن المتعدد الأقطاب بالخصائص الآتية : –

أ) يتصف بالكثرة النسبية لأطرافه وبما لايقل عن ثلاثة أطراف ، سواء كانت هذه الأطراف دولاً أم كتلاً تتكون كل منها من عدد من الدول ، فإذا قلت الأطراف عن ثلاثة تحول إلى التوازن البسيط .

ويرى بعض علماء العلاقات الدولية ، أن لوجود التوازن المركب ، يستدعى ان يكون العدد فردياً ، ثلاثة أو خمسة أو سبعة أطراف مثلاً ، اما إذا اخذ التوازن المركب الشكل الزوجي فإنه سرعان ما يتكتل كل طرفين بعضهما مع بعض في مواجهة الطرفين الآخرين فيفقد التوازن المتعدد طبيعته المركبة .

اننا لانميل إلى هذا الرأي ، فالتكتل يمكن ان ينشأ في ظل العدد الفردي أيضاً ، وقد حدث ذلك مراراً في التاريخ ، فقبل الحرب العالمية الثانية نشأ توازن قوى عالمي متعدد الأقطاب يتكون من المانيا وايطاليا وروسيا وفرنسا وبريطانيا واليابان والولايات المتحدة الامريكية ، فهو توازن متعدد وفردي ، لكن طبيعته الفردية لم تمنع أطرافه من التكتل في كتلتين هما الحلفاء والمحور ، وكما ان توازن مابعد الحرب العالمية الثانية كان خماسياً ، ولكنه سرعان ما انقلب إلى توازن بسيط يتكون من كتلتين هما حلفا الناتو ووارسو .

فليس هناك أية علاقة في رأينا بين عدد الأقطاب والميل نحو التكتل .

٥٥– لكن القاعدة الرئيسية التي يمكن استنتاجها مبكراً هي ان (التوازن المتعدد الأقطاب هو توازن مؤقت) فبسبب حركية التوازن وديناميكيته فإنه يمر بمرحلتين ، تتسم الاولى بالتعدد الخالص ، حيث يستقل كل طرف بسياسته ، ولكن طبيعة المنافسة في هذا التوازن ، تدفع أطرافه إلى البحث عن التحالفات بينها ومع غيرها من القوى الأخرى ، وكلما اشتدت المنافسة اتضحت بشكل

اكبر خطوط التحالف ، التي تؤدي في نهاية المطاف إلى خلق كتلتين دوليتين والتحول من للتوازنات المركب إلى التوازن البسيط . وسنعرض فيما بعد امثلة تاريخية للتوازن المركب التي تحولت جميعها دون استثناء إلى توازنات بسيطة .

إن هذه الآلية التاريخية ، هي آلية حتمية ، لاعلاقة لها بعدد الأطراف ، بل تؤدي إليها الطبيعة التنافسية لهذا النوع من التوازن ، فهو توازن كما يقول (مورجنتاو) لاتتسم العلاقة بينها بالمعارضة المباشرة بل تقوم على التنافس السلمي ، لكن التنافس السلمي يؤدي حتماً إلى التكتل في نهاية المطاف .

ب) إن ثاني خصائص هذا التوازن هي طبيعته التنافسية ، وتلك هي الخصيصة الجوهرية التي تقود إلى الاستقرار والسلام .

ونظراً لتعدد الأقطاب تتعدد سياسات الدول أيضاً ، وبحكم تنوع المصالح الوطنية للأطراف ، تصبح اللعبة السياسية أكثر حذراً من تلك اللعبة الناجمة عن التوازن البسيط ، ففي هذا النوع الأخير ليس هناك سوى خطان سياسيان ، تصبح الحركة في ضوئهما أكثر سهولة ، فما يفعله طرف يواجه بحركة معاكسة من الطرف الآخر ، كما ان اللعبة تصبح أكثر وضوحاً بالنسبة للدول المتوسطة والصغيرة التي ترتب سياساتها أيضاً وفق اللعبة الدولية الكبرى .

أما في التوازن المتعدد الأقطاب ، فإن خطوط السياسات الكبرى تأخذ اتجاهات كثيرة متوازية ومتقاطعة ومتعارضة احياناً ، وذلك يفرض على اللاعبين مهارة اكبر في المناورة وانتباه أكثر حذراً .

إن هذا النوع من التوازن ، هو الأكثر حيوية ، لأن التحالفات فيه تتكاثر وتتبدل ، فكل طرف سيحاول زيادة رصيده من القوة والتأثير عن طريق التحالف مع الأطراف الأخرى ، ومن الطبيعي ان هذه التحالفات تكون

محكومة بمدى التوافق والتعارض والقواسم المشتركة بين كل طرف وآخر ، فالوضع الجغرافي والشكل السياسي والمبادئ الفكرية والثقافية والحضارية والمهارة الدبلوماسية ، كلها عناصر مؤثرة في تشكيل التحالفات .

ج) إن أحدى الخصائص المهمة لهذا التوازن ، هي خضوع الأطراف وقبولهم ، لمبادئ تنافس تتصف بظهور قواعد شرعية مقبولة من الأطراف جميعا .

فهذا النوع من التوازن يرسى نوعاً من القواعد المتفق عليها ، بصورة صريحة أو ضمنية ، فيقبل من كل طرف ان يتصرف بما يزيد رصيده من القوة والنفوذ ، لكن ذلك مشروط بعدم المساس بالتوازن نفسه بصورة جوهرية .

كما أن كل الأطراف ، تتصرف غالباً على وفق هذه القاعدة الاساسية ، فكل طرف يكون اقل قدرة على المواجهات السافرة أو الحروب من اجل زيادة رصيده ، فهو يشعر بالحذر والخوف من جميع الأطراف الأخرى ، التي ستعمل على معارضته بصورة قوية والتكتل ضده لأضعافه أو لاخراجه كلياً من لعبة التوازن ، ولذلك فإن كل طرف يتصرف بحذر ويعمل على زيادة قوته بطرق بطيئة وليست محسوسة حتى لايثير حفيظه الآخرين .

إن الأطراف الأخرى تقبل عادة تصرفات بعضها البعض إذا كانت الأضرار التي تلحقها معقولة ، بل قد تقبل ببعض التجاوزات التي لاتهز توازن القوى بشكل عنيف ، اما إذا انقاد الطرف المتجاوز نحو الاغراء وأصبح يشكل خطراً فإن الأطراف الأخرى تتصرف معه بشكل عنيف أيضاً .

وذلك هو ما حدث لنابليون اوائل القرن الماضي مثلاً ، وهو ما كرره هتلر قبل الحرب العالمية الثانية ، ففي ٢٩ سبتمر عام ١٩٣٨م وقعت اتفاقية ميونيخ

بين كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا وهي الاتفاقية التي منحت الالمان ترخيصاً بضم اقليم (السوديت التشيكي) حيث قامت القوات الالمانية بإحتلال الاقليم بعد ايام في مطلع اكتوبر من العام نفسه .

وعلى الرغم من أهمية التصرف الالماني وتأثيره في توازن القوى ، الا ان بريطانيا وفرنسا قبلتا المطالب الالمانية لاسباب رئيسية هي ، ان اقليم السوديت ناطق بالالمانية مما يعطي المانيا بعض الحق في ضمه ، كما ان هذا التنازل يرضي المانيا ويعوض بعض الظلم التاريخي الذي لحق بها ، واخيراً الرغبة في السلام القائم على توازن القوى .

إن الاجراء الالماني كان عنيفاً ، لكنه من وجهة نظر فرنسا و بريطانيا مازال مقبولاً وفق قواعد التوازن في ذلك الوقت .

لكن هذا القبول اغرى هتلر بالمزيد من التحرك ، ومن المحتمل انه استنتج ان الرغبة في السلام ستقود الأطراف الأخرى نحو المزيد من التنازل ، رغم ان هذه الأطراف قد عبرت لفظياً عن معارضتها لسياسة هتلر واتهامها له بعدم الوفاء بالتزاماته .

وفي مارس من عام ١٩٣٩م صعد هتلر مطالبه ، إذ طلب من بولندا ترتيبات اقليمية في ممر (دانتزيغ) تشمل شق طرق برية وحديدية واحترام هذه الترتيبات .

ان المطالب الألمانية أصبحت سافرة وخارجة عن القواعد الشرعية التي رسمها توازن القوى القائم ، وقد دفع ذلك بريطانيا وفرنسا في ٣١ مارس إلى اعلان ضمان حرية اراضي بولندا وسلامتها ، وقد تلا ذلك توقيع (الاتفاق الفولاذي) بين المانيا وايطاليا ، وهو اتفاق اعتبر هجومياً على الديموقراطية

الغربية ، وبعد شهور ، (في ٢٥ اغسطس) وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية تعاون ، كانت رداً على الاتفاق الفولاذي ، وقد نصت الاتفاقية على الرد الاوتوماتيكي والفوري على اي اعتداء تواجهه بولندا .

وبعد سلسلة من الحوادث والاتصالات الدبلوماسية الفاشلة اجتاحت المانيا الحدود البولوندية في الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩م وبعد يومين دخلت بريطانيا وفرنسا الحرب ضد المانيا فإندلعت الحرب العالمية الثانية .(٥٥)

وهكذا فإن تصرفات هتلر الأولى كانت مقبولة ، على الرغم من خروجها عن قواعد شرعية التوازن ، غير ان الخروج السافر بعد ذلك قاد للحرب .

٥٦ – إن ازمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢م هي مثال آخر يصلح لشرح معنى التصرفات الحذرة والمقبولة ، فقواعد التنافس سمحت للاتحاد السوفيتي بزيادة رصيده السياسي والايديولوجي في كوبا وهي على مقربة من الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من امتعاض هذه الاخيرة ومقاومتها للتدخل السوفيتي ، الا انها لم تستطع اتخاذ اجراءات عنيفة ضد الاتحاد السوفيتي أو كوبا نفسها ، فمع ان الولايات المتحدة خططت لغزو كوبا (عملية خليج الخنازير) أو الاطاحة بنظامها بمختلف السبل ، إلاّ أن كل ذلك لم يتخذ الطابع السافر والمواجهة العنيفة .

لكن إدخال الصواريخ النووية لكوبا ، اعتبر اخلالاً جوهرياً بتوازن القوى ، وتصرفاً لاتسمح به قواعد التنافس التقليدي المنبثقة من هذا التوازن . . . .

---

٥٥) نخبة من القادة العسكريين الفرنسيين – ٢١٤٩ يوماً من ايام الحرب العالمية الثانية – ترجمة الدار العربية للموسوعات – بيروت – ط١ – ١٩٩٤م – ص٩ وما بعدها .

لأن وضع الصواريخ ، لو تم ، لجعل الولايات المتحدة الامريكية رهينة في يد الاتحاد السوفيتي .

وهكذا واجهت الولايات المتحدة الاجراء السوفيتي بحصار كوبا وتوجيه الانذار بسحب الصواريخ أو المواجهة النووية .

ولأن قادة الاتحاد السوفيتي ادركوا ان تصرفهم قد خرج فعلاً عن قواعد التنافس ، فاختاروا التراجع بعد سلسلة من التصعيد الدبلوماسي .

د) إن هذه الخصائص السابقة جميعها قادت إلى الميزة الجوهرية في التوازن المركب وهي (تحقيق الاستقرار والسلام) .

فالطبيعة التنافسية والاعتراف بقدر من الشرعية المتفق عليها بين الأطراف وتعدد خطوط التحالف ، قادت جميعها إلى ان يؤدي هذا التوازن إلى الاستقرار والسلام ، فنحن لم نعثر في مجمل التاريخ على حرب ذات معنى وقعت في ظل توازن مركب .

غير انه يجب الانتباه - مبكراً - إلى ان العلاقة بين توازن القوى المركب والاستقرار ، مشروط باستمرار التعدد ،

فطالما استمر التعدد قائماً فإن ملامح الحرب مازالت بعيدة . . .

ولكن طبيعة هذه التوازن هي في كونه مؤقتاً ، فهو على الرغم من مزاياه غير قادر على الاستمرار إلى الأبد ، فحركيته الدائمة وطبيعته التنافسية تنحيان به نحو التكتل والتصادم .

إن هذا الوضع صعب الملاحظة احياناً ، بحكم التناقض بين شكل التوازن ومضمونه ، فقد يأخذ التوازن الشكل التعددي ولكنه من حيث المضمون

يصبح توازناً بسيطاً مكون من كتلتين لا ثالث لهما ، ففي العديد من مراحل التاريخ ينشأ توازن القوى المتعدد الأطراف ، بوجود أطراف وطنية مستقلة ظاهرياً لكنها تتمحور حول قطبين كبيرين تنجذب إليهما ، فيشكل هذان القطبان نواة التوازن البسيط ويصنعان كتلتين تصبحان هما محور التوازن ومضمونه .

وفي هذه الحالة تختل الطبيعة التعددية بشكل جوهري ، ويفقد التوازن بالتالي خصيصته الاساسية كعنصر استقرار وسلام .

وذلك هو ما سنتتبعه من خلال الأمثلة التاريخية .

أمثلة تاريخية للتوازن المتعدد الأقطاب.....

أ) توازن القرن الدبلوماسي (١٨١٥ - ١٩١٤)

٥٧ - إن أحد أشهر الأمثلة التاريخية للتوازن المتعدد الأقطاب ، هو التوازن الذي نشأ في أوربا بعد هزيمة نابليون . . . .

وهو التوازن الذي صنعته حنكة (ميترينخ وكاسترلري) ، وقد نشأ هذا التوازن على انقاض التوازن السابق الذي اخذ شكلاً بسيطاً وثنائياً ، كان طرفاه الجمهورية الفرنسية في جانب والممالك الاوربية الباقية في الجانب الآخر .

وعلى الرغم من محاولات ميترنيخ خلق نوع من التعايش بين نابليون والممالك الاوربية وذلك لتجنيب بلاده (النمسا) ويلات الحرب ، الا ان اطماع نابليون واحلامه في السيطرة ونشر مبادئ الجمهورية وخروجه السافر عن الشرعية الناجمة عن توازن القوى بفتح العديد من الممالك الاوربية وضمها لفرنسا ، كل ذلك جعل الدول الاوربية تتحالف ضد نابليون لتشكل كتلة

معارضة ، وانتهت الصدامات والحروب بهزيمة نابليون ونفيه إلى جزيرة القديسة هيلانة عام ١٨١٥م .(٥٦)

وفي هذا العام رسمت اتفاقية فينا خريطة أوربا الجديدة ، فبعد عشرين سنة من الصراعات الدامية تحطم في نهايتها توازن القوى القديم ، استطاعت أوربا اقامة توازن جديد يقوم على توزيع القوة بين القوى الكبرى ويحيط فرنسا بحواجز ثابتة .

وقد قام مؤتمر فينا على اساس تكريس حالات الالحاق الناجمة عن الحرب أكثر منه على تثبيت المبادئ المقبولة في العلاقات الدولية ، فهو كما تقول (موسوعة تاريخ أوربا) حمل المكافآت للكبار ونسى تعزية الضحايا والتعويض عليها .

لقد نجم عن الحرب (الحلف المقدس) ، الذي يقوم على ترسيخ اعتماد القوى الكبرى في علاقاتها المتبادلة على التعاون ، وأسس التوازن الأوربي المتعدد الذي شكلته الدول المنتصرة في الحرب وهي (بروسيا ، النمسا وبريطانيا وروسيا) ، كما ان فرنسا وهي امة كبيرة لايمكن إستثنائها - بحكم

---

٥٦) رغم هزيمة نابليون العسكرية الا ان المبادئ الجمهورية التي شن الحرب من اجلها لم تهزم فقد احدثت الثورة الفرنسية تبدلات فكرية وسياسية هائلة في جميع النظم الاوربية ، فممالك أوربا المحافظة والمستبدة التي ربحت عسكرياً ، لكنها على المستوى الفكري خرجت مهزومة ، فاستطاعت الثورة الفرنسية نشر مبادئ الحكم الجمهوري ، والثورة التي انتكست عام ١٨١٥م استطاعت الإنتصار بالثورة عام ١٨٤٨م ليس على مستوى فرنسا وحسب بل شملت أوربا كلها - يراجع في تفاصيل ذلك موسوعة تاريخ أوربا العام - تأليف فرانسوا جورج ديغورس وآخرون - ترجمة حسين حيدر - منشورات عويدات - بيروت - باريس - ط١ - ١٩٩٥م - الجزء الثالث وخاصة الفصل الثاني - التصدعات السياسية - ص ٥٩ - ١٠٩ .

الواقع – من التوازن الاوربي ، ويضاف إلى ذلك الامبراطورية العثمانية بحكم ثقلها الدولي في القارات الثلاث أوربا وآسيا وافريقيا .

إن بقايا أوربا استطاعت ان تشارك في هذا التوازن فقد أصبحت ايطاليا ، لاحقاً ، جزءاً من هذا التوازن ووجدت الدول الصغيرة فيه القدرة على صيانة استقلالها .

ان بناء هذا التوازن ينسب إلى (ميترنيخ) الذي جهد في الحفاظ عليه ، بدعوته إلى التضامن الجماعي بين الحكومات الشرعية ، والتدخل الجماعي المسلح عندما تدعو الحاجة [٥٧] .

إن هذا السلم المتعدد الأقطاب أرسى في أوربا – كما يقولون – سلام المئة عام ، وقد أصبح هذا القرن من السلم معروفاً بأسم (القرن الدبلوماسي) ، نظراً لطغيان الدبلوماسية وسياسة المؤتمرات ، فقد أصبحت هذه سمته الجوهرية كبديل إلى الحرب وسيلة لتسوية المشكلات .

٥٨ – غير ان ذلك لايجب ان يعني إن هذا القرن لم يعرف الحروب ، فالأماني والعواطف التي قام عليها الحلف المقدس سرعان ماظهرت هشاشتها ، فوحدة الحضارة الغربية والدين المسيحي ، لم يستطيعا خلق روح التعاون بين امم أوربا ، كما ان ترتيبات اتفاقية فينا قد انطوت على الكثير من الظلم ، فهي كرست مكاسب المنتصرين وقيدت المهزومين فنجم عن ذلك توازن قلق كان عليه ان يشهد الكثير من التبدلات ، ولاسيما بعد عام ١٨٣٠م .

أن اي توازن يعقب الحروب لابد وان يتصف بشئ من الاضطراب ، فمن

---

٥٧) المرجع السابق – راجع الفصل الثالث – من الجزء الثالث (الانشقاقات في أوربا المسيطرة) – ص ١١١ وما بعدها .

خصائص هذا التوازن كما يقول (مورجنتاو) هو عدم عدالته ، فرجال الدولة الذين يصنعون التوازن لايتحلون بالواقعية وينجرفون مع نشوة النصر والزهو الوطني نحو تكريس النتائج الظالمة . . . وهذا ما حدث لتوازن القرن الدبلوماسي الذي قمع التطلعات الفرنسية وكرس مكاسب امبراطورية آل هابسبورغ في الامارات الايطالية - كما ان قادة التوازن اغفلوا النتائج التي احدثتها الثورة الفرسية على الصعيد الفكري ، وهي نتائج احدثت تبدلات عميقة على المستوى الداخلي ودفعت بالشعوب الاوربية نحو الثورة الاجتماعية . . .

٥٩ - أن هذه العوامل هزت مراراً توازن القوى واقلقته واضعفت نفوذ المسيطرين عليه ، على الرغم من عبقرية (ميترنيخ) ومحاولته الحفاظ على هذا التوازن ، الا ان قمع النمسا لثورات الوطنيين الايطاليين قد اضعفت من الامبراطورية التي غضت الطرف عن التحرك الفرنسي صوب اسبانيا ، كما اثر في التوازن حرب القرم ١٨٥٤ - ١٨٥٦م وتطلعات القوميين الالمان نحو الوحدة ، والتوسع البريطاني خارج القارة .

ان هذه الاحداث جميعها تجعل من وصف هذا القرن بانه كان قرناً دبلوماسياً ، هو وصف غير دقيق حتى النهاية ، ومن الدقيق القول بان أوربا شهدت خلال هذا القرن استقراراً نسبياً وليس سلاماً تاماً ؛ فقد شهد هذا القرن سلسلة من النزاعات المسلحة والاضطرابات الشديدة ، غير ان الحرب بمعناها العام قد توقفت .

وقد قادت هذه النزاعات والحروب إلى سلسلة من التحالفات ، وهي تحالفات متبدلة على الدوام بحسب ظروف كل دولة ، فقد كان هذا التوازن

حركياً بشكل ملحوظ يعتمد على عقد التحالفات والاتفاقيات ، وقد استمر ذلك حتى عام ١٨٧٠م حين بدأ هذا التوازن يميل نحو خلق الكتل ، وليس مجرد التحالف الوقتي ، وما ان لفظ القرن التاسع عشر انفاسه حتى اخذت أوربا شكلاً آخر لتتحول من حالة التوازن المتعدد الأقطاب إلى التوازن الثنائي الذي مهد إلى الحرب العالمية الاولى (٥٨) .

٦٠ - هذا على الصعيد الأوربي الداخلي ، اما على الصعيد العالمي ، فإن النظرة إلى هذا القرن على انه قرن سلام واستقرار يجب ان تضعف . فقد كان هذا القرن ، قرن سلام الاوربيين فيما بينهم ، اما على الصعيد العالمي ، فمن الممكن اعتبار هذا القرن هو الاشد وحشية في التاريخ الانساني ، ففيه اندفعت حركة الاستعمار البربري التي كانت فريستها شعوب افريقيا وآسيا وأمريكيا اللاتينية فأبيدت شعوب بكاملها واستبيحت أراضيها وثرواتها واهينت كرامة شعوبها تحت ادعاء (عبء الرجل الابيض) .

لقد كان هذا القرن قرن السلام النادر للاوربيين وحدهم ، فاستطاعت امم أوربا ان ترتب احوالها الداخلية وتؤم صراعاتها وهو ما أتاح لها الانطلاق في رحلة صيدها الوحشي ، فقد شهد هذا القرن توسع الاستعمار البريطاني والفرنسي ، بل ان الأمم الاوربية الأخرى التي ظلت حبيسة اسوار أوربا خلال

---

٥٨) اننا لم نرد الافاضة في تفاصيل ماحصل في أوربا بعد عام ١٨١٥م ولم نتتبع خطوط التحالف بين القوى المسيطرة على التوازن الاوربي ، لأن غايتنا ليست السرد التاريخي ، بل محاولة استنتاج عبرة محددة هي اقتران التعددية بالاستقرار وتلك سمة واضحة في توازن القرن الدبلوماسي ، اما من يريد الوثوق من هذه القاعدة بمتابعتها تاريخياً فيمكنه الرجوع إلى - بول كندي - نشوء وسقوط القوى العظمى - ترجمة مالك بديري - الاهلية للنشر والتوزيع - عمان - ط١ - ١٩٩٤م ص٢١٩ وما بعدها .

قرون ، انطلقت للمشاركة في حملة النهب التي تهيأت فرصها مع افول نجم الامبراطورية العثمانية و بداية إنحلالها .

٦١ - إن تحليل هذه الفترة التاريخية قد يزودنا باستنتاج جديد ، وهو أن الاستقرار الاوربي ، ينطوي بالضرورة على إنعكاسات سلبية بالنسبة للآخرين ، وهو درس تكرر فيما بعد وهو قابل للتكرار في المستقبل أيضاً ، وقد يكون ذلك قريباً .

فعلى الرغم من أن توازن القوى القادم ، سيكون على الأرجح تعددياً ، مايتيح للغرب مدّة من الاستقرار والسلام (٥٩) ، إلاً ان ذلك سينطوي على نتائج سلبية على الصعيد العالمي ، فكلما رتب الغرب أحواله دفعت الشعوب الصغيرة قائمة الحساب ، وتباشير ذلك اليوم كثيرة وفي مقدمتها فكرة (العولمة) وشقيقاتها ، وذلك ماسنعود إليه في خاتمة هذا الكتاب

خلاصــــة.....

٢٦- إننا لم نفض في دراسة هذا المثال التاريخي (للتوازن المتعدد الأقطاب) وهو توازن يستحق الكثير من التأمل والاستنتاج ، لانه مملوء بالعبر التاريخية ، كما انه مملوء بالفن السياسي ودهاء رجال الدولة وكيفية المناورة في ظل توازن القوى .

---

٥٩) إن فكرة الاستقرار والسلام على مستوى العالم الغربي هي مايسيطر على الفكر الأوربي منذ بداية الحرب الباردة وحتى الان ، وذلك مايدعو مفكريه إلى البحث عن توازن متعدد الأقطاب ، وفي مقدمة هؤلاء هنري كيسنجر الذي حاول أن يعيد سياسياً تجربة القرن الدبلوماسي ومازال يحاول فكرياً الاقناع بهذه الاطروحة وذلك منذ رسالته للماجستير التي كرست لتجربة هذا القرن وحتى الان ، ونحن ندعو كل سياسي ومفكر عربي إلى إعادة القراءة الواعية لكيسنجر في كتابة المعروف والمشار إليه هنا (درب السلام الصعب) .

إن ذلك يستدعي تحليل سياسة كل دولة وكيف امكنها زيادة رصيدها ومكاسبها في ظل هذا النسق الدولي ، لكن الأمر لايتسع لكل ذلك ، فما كان يهمنا هو استنتاج القاعدة الجوهرية والقانون التاريخي .

وعلى الرغم من كل النزاعات والتوترات على الصعيد الأوربي والعالمي فإن القاعدة الجوهرية هي التلازم الحتمي بين الاستقرار والتوازن المتعدد الأقطاب .

فقد شهد هذا القرن سلسلة من التحالفات والنزاعات ، غير ان هذه جميعها تمت وفق قواعد شرعية مقبولة من أطراف هذا التوازن ، فلم يشهد هذا القرن توترات ثورية عنيفة على غرار التوترات التي فجرتها الثورة الفرنسية والتي جرت القارة الاوربية مجتمعة إلى الحروب والازمات .

إن هذا التوازن ، لم يجمد سعي أطرافه نحو زيادة رصيدهم ، ومحاولة كسر التوازن لمصلحة هذا الطرف أو ذاك ، فتلك من خصائص توازن القوى وخصاله ، غير ان هذا السعي لم يمس بصورة جوهرية بأركان التوازن ولم يزعزع ، بالتالي ، الاستقرار العام ، ولذلك فقد استحق سلام المئة عام هذا الوصف .

لكن الخروج عن قواعد الشرعية بدأ مع مطلع القرن العشرين بجملة من التكتلات والهزات الثورية غير المقبولة ، والتي انتهت بالحرب وتغير صورة العالم وسنتعرف على ذلك فيما بعد عند دراسة هذه الفترة في ظل توازن القوى الذي اعقبه وسبق الحرب العالمية الاولى .

ب) توازن القوى المتعدد بعد الحرب العالمية الاولى...

٦٣ - إن توازن القوى الذي نشأ بعد الحرب العالمية الاولى يقدم لنا

النموذج الثاني للتوزان المتعدد الأقطاب ، كما يبرهن على حقيقة العلاقة بين التعددية والاستقرار .

فلقد حطمت الحرب العالمية الاولى ، بصورة جزئية توازن القوى الثنائي الذي جر للحرب ، غير ان هذا التحطيم الجزئي افضى إلى نتيجتين جوهريتين هما ، اخراج قطبين شاركا في توازن قوى القرن الدبلوماسي ، وتفكيك الكتل الدولية التي كانت قائمة ابان الحرب .

فقد اندثرت من الوجود ، تقريباً ، امبراطوريتان هما امبراطورية النمسا والمجر والامبراطورية العثمانية ، ليتشكل من بقاياهما مجموعة من الدول المستقلة أو الكيانات التي أصبحت تابعة للدولة المنتصرة .

إن اتفاقية (فرساي) الموقعة عام ١٩١٩م قد افرزت توازن قوى متعدد الأقطاب ، كما ان ظروف ما بعد الحرب اضافت إليه قوى جديدة .

ويمكن القول ان الصورة الاولية لهذا التوازن تكونت من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا لكن صورة التوازن اكتملت بعد سنوات قليلة بصعود اليابان والمانيا وايطاليا .

إن هذا التوازن قد اخذ شكلاً سباعياً ، غير ان مركزه الرئيسي كان أوربا ، إذ تقاسمت كل من بريطانيا وفرنسا الحركة والتوجيه ، فالإنسحاب المفاجيء للولايات المتحدة من عصبة الأمم واختيارها ، مجدداً ، لسياسة الانعزال جعلها بعيدة عن مركز التوجيه ، وذلك اضعف الدور البريطاني لمصلحة فرنسا ، كما ان الاتحاد السوفيتي الذي مازال يعيش مخاض الثورة والتوتر انكفأ لمعالجة مشكلاته الداخلية .

ان هذه الظروف قد هيأت لبروز الأقطاب الجدد (ايطاليا والمانيا واليابان) ،

لكن العامل المساعد الاكبر هو ضعف التنظيم الدولي في ذلك الوقت .

فعلى الرغم من أن معاهدة (فرساي) وضعت نواة هذا التنظيم ، بتوزيع القوة وانشاء عصبة الامم ، وذلك بصورة مشابهة ولو شكلياً لاتفاقية فينا عام ١٨١٥م ، الا إن التنظيم الدولي واسس التوازن كانت ضعيفة ، فخروج الولايات المتحدة المبكر من العصبة ، وسوء توزيع القوة في هذا التوازن قادا إلى استقرار قصير الامد .

فمن المعلوم ان اتفاقية فرساي ، حاولت استثناء طرف دولي مهم وهو المانيا من الترتيبات الدولية الجديدة وذلك بجملة من الاجراءات التي أدت إلى استبعادها من نادي الكبار ، ففضلاً عن الخسائر الاقليمية المتمثلة في اقتطاع اجزاء من اراضيها فقد فرضت عليها تعويضات هائلة والجمت طموحاتها العسكرية بفرض الرقابة على التسلح وتحديد حجم القوة العسكرية .

إن عوامل عديدة تفاعلت بسرعة لتشكيل هذا التوازن المتعدد الأقطاب ، فقد صعدت إيطاليا إلى مصاف الكبار وأصبحت القوة الرئيسية في البحر المتوسط بفعل السياسات الفاشية القائمة على التوسع والتسلح [٦٠] ، وتنامت قوة اليابان نظراً لصعود دور الفئة العسكرية ولحقت المانيا بالكل بعد انتصار النازية .

ان هذا التوازن ، رغم اضطرابه ، صنع حقبة من الاستقرار استمرت لعقدين من الزمان ، وكان يمكن له ان يقود نحو سلام اطول لو لم يفقد شكله التعددي خلال وقت قصير . فمنذ مطلع الثلاثينات تزايد الاضطراب في هذا

---

٦٠) بول كيندي – نشوء وسقوط القوى العظمى – ص٤٤٢ .

التوازن وأصبح يميل بشكل سريع نحو التوازن البسيط القائم على كتلتين متناقضتين .

فلاشك ان الانهيار المبكر لتوازن القوى والاندفاع نحو الحرب لايعود إلى النمط التعددي ولكن إلى ضعف بناء هذا التوازن ، وعدم حرص الساسة في ذلك الوقت على بناءه بصورة عقلانية .

٤٦ – فمن المعتاد ان يظهر توازن القوى المتعدد بعد الحروب مباشرة ،غير أن المعضلة التي يواجهها هذا التوازن عادة هي كما يقول (مورجنتاو) ، الافتقار للكفاية وعدم اليقين [٦١] .

وبما أن هذا التوازن يعقب الحروب ، فإن بناته هم المنتصرون عادة ، وذلك هو بالضبط ماحدث عقب اتفاقية فرساي التي أملت شروطها الدول المنتصرة ، فاقامت توازناً عالمياً استثنى المانيا بصورة واضحة ، مما زرع بذور التمرد عليه مبكراً .

ومن المفيد هنا عقد مقارنة تاريخية موجزة بين اتفاقية فينا عام ١٨١٥م واتفاقية فرساي عام ١٩١٩م ، فهما تتشابهان من حيث انهما ظهرتا بعد حروب كبيرة وأفضت كل منهما إلى هزيمة قطب مهم (فرنسا والمانيا) ، ولكن بناة التوازن الأول حافظوا على مكانة المهزوم كجزء من توازن القوى ، فواقع الحال ان اهتمام القوى المنتصرة في ذلك الوقت انصب على تغيير النظام السياسي في فرنسا باعادة الملكية إليها مع تقييد بعض طموحاتها الاقليمية ، وقد جرى ذلك ضمن قواعد معقولة لأن مكانة فرنسا كدولة كبرى لم تمس بصورة جوهرية ، إذ اعيد ادماجها ضمن توازن القوى الاوربية ، وذلك هو ما

---

٦١) هانز – جي – موجنتاو – السياسة بين الأمم – ص ٢٧٩ .

جعل الاستقرار يعود إلى أوربا طوال قرن من الزمان ، إذ لو تم استثناء فرنسا من كل ترتيب لكان من اللازم إندفاعها للتمرد على قواعد التوازن بصورة ثورية مرة أخرى (٦٢) .

وهكذا كان تصرف بناة توازن القرن التاسع عشر عقلانياً ، إذ لم يفتقر هذا التوازن لليقين وعدم الكفاية .

أما اتفاقية فرساي فقد كانت فقيرة للغاية ، فزهو المنتصرين حجب عنهم حقائق التاريخ ، إذ لم يقتصر الأمر على فرض شروط ثقيلة على المانيا ، بل تم استثناء هذا الشعب الكبير من المشاركة في التوازن من جديد .

وهكذا فإن خطيئة بناة التوازن ، وضيق الأفق السياسي(٦٣) ، اضاعا فرصة بناءحقبة جديدة من الاستقرار ، وهذا بالضبط ما ذهب إليه (ريمون آرون) الذي

---

٦٢) وقعت اتفاقية فينا في يوليو ١٨١٥م وذلك قبل معركة واترلو بايام قليلة ، وبعد هزيمة نابليون نهائياً وقعت في اكتوبر من العام نفسه معاهدة باريس والتي جردت فرنسا من حوض السار واجبرتها على اعادة الكنوز المنهوبة من الدول الأخرى وفرضت عليها غرامة مالية كبيرة مع ترتيبات امنية وسياسية أخرى ، ولكنها لم تخرج فرنسا من توازن القوى نهائياً ينظر في ذلك كارلتون هيز - التاريخ الأوربي الحديث - ترجمة د .فاضل حسين - جامعة الموصل - العراق - ص ٩٥ .

٦٣) اننا لانذهب هنا إلى ان انهيار توازن القوى يعود إلى الافتقار للعقلانية وحدها ، بل ان هذا التوازن تأثر بشكل ملحوظ بالصراعات الداخلية الامريكية أيضاً ، فعلى الرغم من ان الرئيس الامريكي (ويلسون) عمل على بناء توازن قوى في ظل نظام عالمي تسيطر عليه عصبة الأمم الا انه فشل في ذلك بسبب الصراع على السلطة في أمريكيا حيث فشل في الحصول على موافقة الكونجرس على الانضمام للعصبة وذلك نكأية في ويلسون وسياسته وذلك هو احد الأسباب التي افشلت التنظيم الدولي . يمكن مراجعة د . علي حيدر سليمان - تاريخ الحضارة الاوربية الحديثة - دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع - بغداد - ١٩٩٠م - ص ٣٩٧ .

يؤمن في الجوهر بالتعددية القطبية شرط للاستقرار والسلام ، يقول (آرون) (إن أوربا لاتستطيع الاستغناء عن المانيا تماماً بنفس القدر الذي لاتستطيع الاستغناء به عن فرنسا ، ولابد بالتالي من انهاض البلدين ودعم سبل المصالحة بينهما بحيث لاتكون هناك عودة إلى الحرب التي استمرت بينهما منذ ١٨٧٠) [٦٤] .

لقد كتب أرون ذلك غداة الحرب العالمية الثانية ، في محاولة لتجاوز خطيئة الماضي ، ويبدو ان استنتاجاته وجدت طريقها (للجنرال ديجول) الذي سرعان ما اختط سياسة انفراج مع ألمانيا بهدف إعادة تأهيلها للقيام بدورها كطرف معترف به في توازن القوى .

الخلاصة ...

٦٥ - يستخلص مما سبق ان توازن القوى المتعدد الأقطاب ، قد أفضى إلى فترة من الاستقرار ، وهي وأن كانت قصيرة نسبياً ، إلا أنها تؤكد الاستنتاج الجوهري بالربط بين التعددية والاستقرار ، فعلى الرغم من أن التوترات التي ظهرت بصورة مبكرة ، كغزو اليابان لمنشوريا ، والتوسع الايطالي في أفريقيا وزيادة القوة الفاشية وصعود هتلر إلى السلطة ، الا ان ذلك لم يؤد مباشرة إلى المواجهة والحرب ورغم إضطراب التوازن ، لكن سياسات التكتل والاحلاف أدت إلى تبدل جوهري في طبيعة توازن القوى ، وظهور توازن قوى بسيط كان هو المسؤول عن الحرب العالمية الثانية .

---

٦٤) مصطفى مرجان - ريمون آرون - السلام المستحيل والحرب غير الممكنة - مجلة المنار - العدد ٤٣ لسنة ١٩٨٨م .

ج) توازن الحرب الباردة

٦٦ - مثل كل الحروب ، ادت الحرب العالمية الثانية إلى تحطيم توازن القوى القديم ، وبروز قوى دولية جديدة . فقد خرج من اللعبة الدولية كل من المانيا وايطاليا واليابان ، وأصبحت القوى المنتصرة هي العناصر المؤلفة لتوازن القوى الجديد ، وهكذا فقد أصبحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا والصين هي القوى الكبرى المكونة للتوازن المتعدد الأقطاب .

إن هذه الدول كانت متفاوتة القوة ، فقد أظهرت خاتمة الحرب نوعاً من التفوق الامريكي الساحق ، المستند بصورة أساسية إلى الاحتكار النووي الذي حرصت الولايات المتحدة الامريكية على الاعلان عنه ، عن طريق إستخدام القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي لكن هذا التفوق سرعان ما وازنته الأطراف الأخرى بالتفوق السياسي في معظم الاحيان .

فمع نهاية الحرب تولى مقاليد السلطة في الولايات المتحدة (هاري ترومان) الذي يعده الكثير من المؤرخين أضعف السياسة الخارجية الامريكية ، فهو لم يكن في مستوى (روزرفلت) الذي أدار الحرب والمعركة السياسية مع حلفاء الحرب أنفسهم ، فمجيء (ترومان) حمل معه شخص غير خبير بالألاعيب السياسية ، خاصة إذا وجد على الطرف الآخر داهية سياسية مثل ستالين(٦٥) .

٦٥) من المعروف أن ترومان تولى الرئاسة بحكم وجوده نائباً للرئيس روزفلت ، وهو منصب لا يقود لوحده إلى تزويد صاحبه بالخبرة السياسية اللازمة ، وهكذا فكان من المتوقع أن يجعل ذلك إداء السياسة الخارجية الامريكية ضعيفاً ، كما أن حظ ترومان من التعليم كان قليلاً ، غير أن ترومان خلاف هذه التوقعات ، استطاع بعد فترة قصيرة أن يحول نفسه إلى مدرسة مستقلة في السياسة الخارجية وكان ذلك من عوامل اعجاب كيسنجر بترومان الذي يعده خلاقاً ، وهو يقارن ترومان بالرئيس الامريكي الحالي بيل كلنتون) الذي يتشابه مع ترومان في قلة الخبرة بالشؤن الخارجية ، ولكن هل يستطيع كلنتون اعادة تجربة ترومان ؟ ذلك مما لا يتوقعه كيسنجر ، ففي رأيه عن ترومان يمكن مراجعة كتابه - الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا - ص٧ ومابعدها .

فعلى الرغم من التفوق النووي الامريكي ، إلا أن الاتحاد السوفيتي إستطاع موازنة الولايات المتحدة ، وذلك إعتماداً على عنصرين ، هما التفوق في مجال الأسلحة التقليدية وتفوق الاداء السياسي . فقد انتهت الحرب مع وجود تفوق ملحوظ في الجيوش السوفيتية التقليدية التي فرضت وجودها على جزء غير قليل من الأراضي الأوربية مع استعدادها لمتابعة الحرب إلى آخر الشوط .

على أن تفوق ستالين السياسي هو العنصر الحاسم الذي ضمن للاتحاد السوفيتي مكانته ، فقد كان ستالين نجماً لامعاً في السياسة العالمية والسياسي القدير في ادارة اللعبة .

أما بريطانيا فلم تستطع الإحتفاظ بمكانتها إلاّ بالاعتماد على الدور الأمريكي ، فهي دولة وإن عدت منتصرة الا أنها خرجت مصابة بالكثير من العطب والدمار ، وقد تضاعفت نكستها بخروج (تشرشل) من الساحة ليضع الزعامة بين يدى (آتلى) .

ومع ذلك فإن بريطانيا إحتفظت بمقعد في نادي الكبار إعتماداً على الولايات المتحدة السيد الأنجلوسكوني الجديد ، فعلى الرغم من فقدان تشرشل للسلطه لكنه أستطاع ممارسة دوره من خلال علاقات شخصية وثيقة استطاع نسجها مع قادة الولايات المتحدة [٦٦] .

---

٦٦) تراجعت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، فأدركت أنها إنحدرت عن مصاف القوى العظمى ، ولذلك كان لابد لها من جدار تستند إليه لتعزيز دورها إلى الحد الذي يحفظ ماء الوجه ، ويمكن لمعرفة حدود القوة والسياسة البريطانية مراجعة - هنري كيسنجر - الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا - ص٢١١ وما بعدها .

أما فرنسا ، فعلى الرغم من عدّها قوة منتصرة ، إلاً أنها كانت أضعف القوى جميعاً ، فقد خرجت من الحرب وهي مثخنة بالجراح وتعاني الكثير من العطب الاقتصادي والاجتماعي ، وهي بمعايير القوة المادية لايمكن أن ترتفع إلى مصاف الكبار .

لكن السياسة لاتعتمد دائماً على حسابات المادة ، فقد استطاعت القيادة العظيمة المتمثلة في الجنرال ديغول الاحتفاظ لفرنسا بمكانتها بين الكبار ، فلعبت ، على الرغم من ظروفها ، الدور اللائق بقوة كبرى .

إن ديغول هو الذي خلق لفرنسا مكانتها الكبيرة ، فما من احد ، بما في ذلك الفرنسيين انفسهم كان يحلم ان تكون لفرنسا هذه المكانة ، فهي امة - كما يقول كيسنجر - فقدت شطراً عظيماً من شبابها خلال الحرب العالمية الأولى ، ووقعت مبكراً تحت الاحتلال خلال الحرب العالمية الثانية ، ومن المحتمل أنها لم تكن قادرة على تحرير نفسها لولا معونة الآخرين ، وعندما سكت هدير المدافع وامتدت موائد المفاوضات لتبدأ لعبة السياسة ، كان من الواضح ان موازين القوة قد أصبحت في يدين اثنتين هما أمريكيا والاتحاد السوفيتي ، وهذا ما عبر عنه ساسة أمريكيا صراحة ، ففي جلسة مع وفد للكونجرس الأمريكي عبر نائب وزير الخارجية الأمريكي (دين اشيسون) عن هذا المعنى بالقول (كل ما بقي على هذه البسيطة قوتان عظميان . . . الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وقد انتهينا إلى موقع لم يتطاه منذ العهود البالية ، وليس منذ امد روما قرطاجنة) [٦٧] .

ولذلك فإن موقف ديغول وبحثه عن مكان بين القوى العظمى ، كان

٦٧) المرجع السابق - ص ٥٠ ، أيضاً بول كنـدي - نشوء وسـقوط القوى العظمى - ص ٥٤٤ .

لايخلو من غرابة ، حتى أن بعضهم فسر موقفه بأنه مجرد معاناة من خرافات الشيخوخة ، لكن الحقيقة هي غير ذلك ، فقد كانت للرجل رؤيته العالمية والأوربية المتناقضة مع الموقف الأمريكي المستند إلى معايير القوة المادية وحدها ، فقد كانت رؤية ديغول لأوربا ، هي الاستقلال وبناء توازن أوربي يتشابه مع وضع أوربا الوسطى فيما مضى ، حيث كانت بروسيا محور الارتكاز الرئيسي .

إن أوربا كلها يجب ان تتمثل وضع أوربا الوسطى ، أمّا فرنسا فهي بروسيا الجديدة ، محور الارتكاز والقطب الجاذب (٦٨) وذلك هو الذي يعيد لفرنسا الاعتبار واحترام النفس . لقد استطاع (ديجول) أن يفتك هذا الدور فعلاً ، بعد سنوات من المعاناة والمرارة ، وان يجعل فرنسا قوة عظمى حقيقية ، وإن يسخر دورها للسلام والاستقرار(٦٩) .

٦٧ - إن عقد القوى العظمى قد اكتمل ببروز القوة الصينية ، فنجاح الثورة الشيوعية والواقع الديموغرافي الصيني أعلنا ولادة قوة أخرى .

إن قوة الصين لم تكن تكافئ قوة أياً من القطبين العظميين بما يسمح لها بالتأثير الفعال على المستوى العالمي ، غير أن المخاض الصيني كان يبشر بولادة وافد جديد .

إن هذه الولادة قد تأخرت بعض الوقت ، ولكن ملامحها قد اتضحت بحدثين مهمين هما ، الانشقاق الصيني السوفيتي ، وتفجير الصين لقنبلتها النووية الأولى عام ١٩٦٤م .

---

٦٨) المرجع السابق - ص٢٣٠

٦٩) اما كيف حدث ذلك تفضيلاً ، فإننا سنعود إلى هذا الموضوع عند بحثنا لدور حافظ الميزان والتجربة الديغولية في هذا الشأن .

فالإنشقاق الصيني السوفيتي العائد لإسباب أيديولوجية بحته أعطى السياسة الصينية دورها المتميز في معارضة السياستين الامريكية والسوفيتية على السواء ، أما تفجير القنبلة النووية فقد وفر الرادع الضروري للسياسة المستقلة كما حصن الصين ضد اجهاض الكبار للمشروع الوطني .

إن القوتين العظمتين قد خشيتا مبكراً من الصعود الصيني المحتمل ، فعلى الرغم من الرفقة الايديولوجية الهشة بين الصين والاتحاد السوفيتي فإن هذا الأخير لم يكن سعيداً بنمو قوة كبرى على تخومه .

فبروز دولة كبرى يعادل سكانها أكثر من ثلاثة أضعاف سكانه ، سيكون خطيراً على قيادة الاتحادد السوفيتي لحركة الشيوعية العالمية ذلك فضلاً عن المنافسة على مستوى السياسات العالمية .

إن هذه المخاوف دفعت الاتحاد السوفيتي إلى مآزرة (شيانغ كاي شيك) في الصين الوطنية وهو موقف لايمكن فهمه من الناحية الأيديولوجية ، ويالها من غرابة ، إذ إن الاتحاد السوفيتي الراعي الأساسى للحركة الشيوعية والساعي إلى التبشير بها يحاول أضعافها على حدوده ، كما ساند الاتحاد السوفيتي الهند في نزاعها مع الصين ، بل انه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك إذ عمل على إجهاض تطور الصين النووي ، فألغى (خروشوف الاتفاقية النووية مع بكين عام ١٩٥٩م ، بل ان موسكو ألمحت إلى أنها تدرس مسألة توجيه ضربة وقائية ضد المنشآت النووية الصينية وربما أجريت مناقشات أمريكية سوفيتية لاتخاذ تدبير عسكري مشترك يكبل الصين عن تطورها في المجال النووي [٧٠] .

٧٠) بول كندي – نشوء وسقوط القوى العظمى – ص٦٠٢ ومابعدها .

إن هذه الأحداث لايمكن فهمها أيديولوجياً ، لكنها عندما وضعت تحت المجهر السياسي فإن فايروسات عديدة ظهرت امام قادة الاتحاد السوفيتي ، سواء في عهد ستالين أم خروشوف ، وهي فايروسات بدت مزعجة لهم جميعاً ، فقد تميزت الثورة الصينية بأصالتها الفكرية والسياسية ، فهي شيوعية لم تنشأها حراب الجيش الأحمر ، كما حدث في أوربا الشرقية ، بل انها ثورة متجذرة فكرياً إستندت إلى نضال شعبي طويل ، ربما يفوق النضال الذي شهدته روسيا نفسها ، كما أن بروز زعامة ضخمة من نمط (ماوتسى تونغ) تجعل هذه الثورة عصية على الاحتواء .

وهكذا فقد بدا للقادة السوفيت ، ان ظهور الصين قوة عظمى ، وإن ارتدى حلة ماركسية ، إلاّ أنه سيكرس وجود قطب منافس جديد .

٦٩ - إن المشهد الاستراتيجي الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية هو نظام متعدد الأقطاب ، وان بدا ظاهرياً كنظام ثنائي القطبية بالنظر إلى التفوق الملحوظ للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، والواقع أن هذا التفوق الثنائي لم يكن سوى البذرة الاولى ، التي سينجم عنها فيما بعد توازن القوى البسيط بظهور حلفي الناتو ووارسو .

إن هذا الاستنتاج هو ما يذهب إليه معظم المحللين السياسيين والمؤرخين ، وبحسب وجهة نظر (بول كيندي) فإن أماني المحاربين الكبار كانت تأمل ان تحمل نهاية الحرب العالمية الثانية توازنا ثنائياً حيث ستغدو الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي القوتين العسكريتين الوحيدتين وذلك بعد دحر اليابان .

إن هذه امنية كانت واقعية ابان الحرب لأن المعيار الاساسي هو القوة العسكرية والقدرة على التسلح والموقع الجغرافي الذي يشكله هذين القطبين

في اقصى الشرق والغرب ، وكانهما حارسان على مداخل العالم ومخارجه ، فقد انطوت صفحة المانيا وأرهقت الامبراطوريات القديمة (فرنسا وبريطانيا) وكانت اليابان على حافة الاستسلام .

غير أن قياس موازين القوى لاتحدده القدرة العسكرية وحدها ، بل ان عوامل أخرى عديدة تفرض وجودها ، وهكذا فإن هذا العالم الثنائي المزعوم اصيب مبكراً بالتصدع ، ولم تمر غير سنوات قليلة الا وجرى الاعتراف ، بان توازن القوى قد أصبح خماسياً ،ثم أضيفت إليه في مطلع السبعينات اليابان التي أصبحت قوة إقتصادية يحسب لها ألف حساب .

ففي يوليو عام ١٩٧١م عبر الرئيس الامريكي الاسبق (ريتشارد ينكسون) عن رأيه أمام مجموعة من الاعلاميين ، بان العالم يشهد الآن خمسة اقطاب للقوة الاقتصادية العالمية هي اليابان والصين وأوربا الغربية فضلاً عن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، فهذه هي (الأقطاب الخمسة التي سوف تحدد المستقبل الاقتصادي ، وكذلك مستقبل العالم في المجالات الأخرى في الثلث الأخير من هذا القرن ، لأن القوة الاقتصادية ستكون المفتاح نحو انواع القوة الأخرى) [٧١] .

الاستنتاج . . . .

٦٩ - إستنتاجنا الرئيس هو ان توازن قوى مابعد الحرب العالمية الثانية ، كان تعددياً في بدايته كأي توازن قوى يعقب الحروب مباشرة ، غير ان هذا التوازن لما يتسم به من الحركية التي تفرضها صراعات الأقطاب يبدأ في التحول نحو التوازن البسيط بعد فترة من الوقت ، فقد رأينا ان التوازن الذي

٧١) يراجع بول كندي - نشوء وسقوط القوى العظمى - ص ٥٤٤ - ص ٦٢٨ .

ارساه مؤتمر فينا مر بالأطوار نفسها ، كما ان توازن ما بعد الحرب العالمية الاولى سار على المنوال نفسه . . . . ففي كلا الحالتين وضعت خاتمة الحروب نهاية للتوازنات الثنائية السابقة وارست توازناً تعددياً ، لكنه يبدأ في التحرك نحو التوازن البسيط القائم على التكتل .

إن العبرة التاريخية نفسها قد تكررت ، فقد انتجت الحرب العالمية الثانية هذا النمط من التوازن . . . ولكن ماهي نتيجة ذلك ؟

إن النتيجة الأساسية هي ظهور حالة من الاستقرار الدولي ، وذلك هو ماحدث عقب الحرب العالمية الثانية ، غير ان الاستقرار يجب ان يؤخذ بمفهومه النسبي ، فهو لايعني بحال خلو العالم من التوتر والمشاكل والنزاعات المسلحة ، بل يعني وضع نظام دولي مستقر ينطوي على آليات معقولة لحل النزاعات ، وقواعد شرعية تحكم الصراعات الدولية ، وهي قواعد مقبولة من الأطراف الاساسية وقادرة على تجنيبها الصدام المباشر والصراع الواسع .

فتوازن القوى لايلغي المنافسة والصراع ولكنه يقننه ويمنعه من الانفلات .

أن ذلك هو ما جرى بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد جرت سلسلة من التوترات العميقة والمنافسات الحادة ، مثل ازمة برلين ، والحرب الكورية ، وازمة كوبا ، وحرب فيتنام ، والانشقاق الصيني السوفيتي ، وحروب الشرق الاوسط [٧٢] .

---

٧٢) يمكن التعرف على هذه الازمات وتفاصيلها ومقدار الخطر الذي انطوت عليه عند – كولن باون وبيتر مولي – من الحرب الباردة حتى الوفاق – ترجمة صادق ابراهيم عودة – دار الشرق للنشر والتوزيع – عمان الاردن – الطبعة الاولى – الاصدار الثاني ١٩٩٥م فهو كتاب يلقي الضوء بشكل مفصل على الحرب الباردة والازمات الساخنة التي تخللتها بشكل يندر وجود ماهر أفضل منه .

إن هذه الازمات لو جرت في ظروف أخرى ، لكان من المحتم ان تقود إلى الصدامات الواسعة والحروب الكبيرة ، فازمة برلين مثلاً وضعت بالفعل العالم على حافة الحرب ، فمنذ نهاية الحرب ابتدأ الصدام حول مستقبل المانيا ، وحول التعويضات التي فرضت عليها مع نهاية الحرب ، والصعوبات الناشئة عن الادارة الجماعية لها ، وسلسة من الازمات المتلاحقة التي ادت إلى الحصار والحصار المضاد ونشوء الدولتين الالمانيتين ، واحدة في كنف الغرب وأخرى في احضان السوفيت .

ويجمع المؤرخون على ان هذه الازمة ، وضعت العملاقين على حافة الحرب ، بل إن الولايات المتحدة ، درست لاول مرة بعد نهاية الحرب احتمال الحرب النووية ، فقد وضعت هذه الازمة الغرب امام احتمالات ثلاثة هي الحرب أو الانسحاب من برلين أو تسلق الحصار السوفيتي ، وقد جرى اختيار البديل الأخير واقيم الجسر الجوي المعروف الذي استطاع اختراق الحصار السوفيتي . . .

إن هذا الاختراق لم يقاوم من الاتحاد السوفيتي ، بل انه اظهر مرونة واضحة في التعامل معه . ليقف الصراع عن حدود التنافس . ويرجع الفضل في ذلك إلى طبيعة التوازن المتعدد الأقطاب ، فهو الذي ابطل مفعول الحرب .

فعلى الرغم من ان الاتحاد السوفيتي من جهة وأمريكيا وبريطانيا من جهة أخرى قد شكلا خلال هذه الازمة طرفي نقيض مما ينفي الطبيعة التعددية ، الا ان الواقع العالمي هو الذي تكفل بهذا التعدد ، ففرنسا مثلاً التي كانت أكثر إنحيازاً للموقف الغربي لم تكن مفرطة في هذا الإنحياز ، لأن مصلحتها في تقسيم ألمانيا كانت تلتقي مع موقف الاتحاد السوفيتي والذي تعارضه لجهة

فرض النمط الشيوعي في شرق المانيا .

إن بحث الازمات التي ظهرت في بداية الحرب الباردة كافة تشير إلى ان توازن القوى المتعدد هو الذي منع الحروب لانه وضع قواعد التنافس بين الأقطاب الكبرى .

غير ان هذا التوازن مثل سابقه ، كان قصير الامد ، إذ سرعان ما قادت الازمات المتلاحقة ومافرضته من تحالفات إلى التوجه نحو التكتل لتشكيل توازن القوى الثنائي ، وهو الذي قاد إلى الحرب الباردة ، وهي حرب حقيقية شهدت الكثير من الصدام ، إلى ان انتهت بانهيار احد طرفي التوازن وهو الاتحاد السوفيتي كما سنشرح فيما بعد .

ثانياً: التوازن البسيط (التوازن الثنائي)

تــوازن الحــروب

تعريف التوازن البسيط

٧٠ - توازن القوى البسيط هو الصورة الأكثر وضوحاً، ويقوم هذا التوازن عند وجود دولتين أو كتلتين متعارضتين في حالة من التعادل النسبي [٧٣] .

والواقع ان هذا التوازن ينشأ عادة في شكل وجود كتلتين دوليتين، غير ان ذلك لايمنع من قيامه بين دولتين أيضاً، ويغلب على توازن القوى البسيط بين دولتين ان يكون توازناً اقليمياً، اما التوازن الدولي العام فالصورة الغالبة له هي توازن الكتل. لكن وجود الكتلة الدولية يعتمد على وجود دولة قطب تكون بمثابة النواة التي تتجمع حولها مجموعة من الدول الأضعف للأحتماء بها أو التحالف معها ومن ثم تكوين كتلة دولية واحدة، ولأن هذا التوزان يعتمد على دولة قطب فإنه كثيراً مايبدو توازناً بين دولتين.

ويلاحظ على هذا النوع من التوازن مايأتي : -

٧١ - أ) أنه ينشأ غالباً كنتيجة حتمية لتوازن القوى المركب، فبما ان هذا الأخير يتصف بالحركية فإنه يشهد جملة من التحافات بينها بقصد الحفاظ على المصالح الوطنية لهذه الأطراف، فيمكن ان تتحالف الدولة أ مع ب و ج ومن ثم تبدل أ تحالفها فيما بعد مع ج أو د وذلك على وفق ما تمليه المصالح وبما يحفظ التوازن نفسه ،غير انه مع الزمن فإن خطوط التحالف تزداد متانة بين الأطراف، ليتشكل في نهاية المطاف كتلتان دوليتنان، ولذا فإن

---

٧٣) د. اسماعيل صبري مقلد - الاستراتجية والسياسة الدولية - ص١٢٧ كذلك المؤلف نفسع العلاقات السياسية الدولية .

عناصر عديدة تؤدي إلى مثل هذا الوضع كالتقارب الأيديولوجي أو الثقافي أو الديني أو الحضاري أو الجغرافي . . . . الخ .

إن فترة التحالفات التي يشهدها توازن القوى المركب هي التي تتسم بالاستقرار والسلام فالوسائل الدبلوماسية في هذه المرحلة هي الأكثر طغياناً ، اما عند تشكل توازن القوى البسيط فإن الدبلوماسية تصبح اقل فاعلية .

٧٢ – ب) يلاحظ ثانياً ، وهذا هو الاستنتاج الجوهري ، ان توازن القوى البسيط يشكل مرحلة الاقتراب من الحرب ويؤدي إليها ، وسنعرض فيما بعد الامثلة التاريخية لهذا التوازن وسنرى ان كل التوازنات من هذا النوع قد ادت إلى الحرب .

فقد عرفنا سابقاً ان توازن القوى المركب يؤدي إلى الاستقرار بسبب طبيعته التنافسية التي تتيح العمل الدبلوماسي الواسع ، اما توازن القوى البيسط فإن طبيعته هي المعارضة المباشرة والتنافس السافر .

فالتوازن البسيط يتسم بالسياسة الامبريالية ، فكل كتلة تتبع في الواقع سياسة امبريالية ضد الكتلة الأخرى ، لأن هدف كل كتلة هو زيادة سلطانها على حساب الكتلة الأخرى ، فهو توازن يقوم على حدة الصراع وتأجيجه ، ويعتبر (مورجنتاو) ان هذا النوع من التوازن يقدم الصورة النموذجية للصراع النابع من حالة (المعارضة المباشرة) ، فكل من الكتلتين المتنافستين ترغب في رؤية سياستها متفوقة على الأخرى ، فالدولة أو الكتلة (أ) تحاول توسيع سلطانها على حساب (ب) إلى الحد الذي يمكنها من السيطرة على قراراتها والوصول بسياستها الامبريالية إلى النجاح . وعلى الدولة أو الكتلة (ب) بدورها ان تضاعف سلطانها لتتمكن من مقاومة سياسة (أ) الامبريالية من

ناحية ولمتابعة سياستها هي ، آملة في النجاح . ويستمر هذا التوازن في القوى المتعارضة ، فأية زيادة في سلطان أية من الكتلتين وقوتها ، يتطلب من الأخرى توسعاً نسبياً في سلطانها وقوتها ، وهو وضع يستمر إلى ان تبدل الدولتان أو الكتلتان أهداف سياستيهما الامبريالية ، أو إلى ان تحقق احدهما ما يخيل لها انها حققت تفوقاً حاسماً على الكتلة الأخرى ، وتتقرر نتيجة التنافس في هذه الحالة اما باذعان الضعيف أو بتحوله إلى حرب مكشوفة تكون لها الكلمة الفصل(٧٤) .

إن هذه هي صورة التوازن البسيط كما يرسمها (مورجنتاو) ونتيجتها الحتمية عنده هي أما إذعان الطرف الأضعف أو اللجوء إلى الحرب خياراً اخيراً لمحاولة اعادة التوازن إلى وضعه الأصلي .

إن هذه الصورة صحيحة باستنتاجاتها نظرياً ، ولكننا من الناحية العملية نعتقد ان الحرب هي النتيجة الحتمية لهذا النوع من التوازن ، ففي ظل كل التوازنات البسيطة التي سندرسها سنلاحظ ان الحرب كانت هي خاتمة المطاف .

٧٣ – ج) يلاحظ ثالثاً ان هذا النوع من التوازن لايخلق سوى فترة استقرار قصيرة الامد ، وهي الفترة الضرورية للإعداد إلى الحرب ، وان هذا الاستقرار يتصف بالقلق والاضطراب اياً كانت مدته . فلأن التحالفات تسبق التشكيل النهائي للتوازن فإن الحرب لاتقوم الا بعد التأكد من متانة الكتل .

ان هذا ما يؤكده (مورجنتاو) أيضاً الذي يصف الاستقرار الذي يخلقه بانه استقرار غريب في العلاقات الدولية(٧٥) .

---

٧٤) هانز مورجنتاو – مرجع سبقت الاشارة إليه – ص ٢٤٦ .
٧٥) هانز مورجنتاو – المرجع السابق – ص٢٤٧

٧٤ - إن هذا الاستقرار الغريب الذي يتلو الإستقرار الحقيقي الناشيء عن توازن القوى المركب يقود الكثيرين نحو الالتباس ، بالاعتقاد في ان توازن القوى يؤدي إلى نتائج متناقضة هي السلام أوالحرب ، غير ان وضع الأمر تحت مجهر تاريخي أكثر دقة يكشف عن ان الحرب لاتقوم الا بعد التكون النهائي لتوازن القوى البسيط وبعد فترة وجيزة من الاستقرار المضطرب .

إن (مورجنتاو) نفسه قد وقع في هذا الالتباس حين اعتقد بان سياسة توازن القوى تؤدي إلى مهمتين ، وعلى الرغم من تمييزه بين طبيعتي شكل التوازن (التنافس أو المعارضة المباشرة) الا ان استنتاجاته لم تسلم من هذا الالتباس .

إن هذا الالتباس شائع عالمياً وقد تسرب إلى معظم الباحثين العرب في هذا الشأن ، فهناك حيرة عامة ناجمة عن النتائج الايجابية والسلبية التي يؤدي لها توازن القوى[٧٦] ، ولاشك في أن من أفضل الدراسات العربية الموجزة لتوازن القوى ، هي دراسات الدكتورإسماعيل صبري مقلد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يستطع ان يتقبل فكرة توازن القوى أو يرفضها كنظرية علمية في العلاقات الدولية ، فنظرية توازن القوى كما يقول - تبدو كأنها قانون مقبول ومعترف به في علم العلاقات الدولية مثلما هو الحال في بعض الفروع الأخرى التي يرتكز التحليل فيها على فكرة التوازن كما هو حادث في النظرية الاقتصادية الحديثة ، وفي العلوم الطبيعية والبيولوجية وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والنظم السياسية .

---

٧٦) ينظر في ذلك د . كاظم هاشم نعمة - العلاقات الدولية - جامعة بغداد - ١٩٧٩م الجزء الأول - ص٢٠٢ ومابعدها .

فالأخذ بمبدأ التوازن في هذه التحليلات وثبوت قيمته تطبيقياً لايعني ان له القيمة نفسها في دائرة العلاقات الدولية ، حتى وان كان ينظر إلى التوازن الذي يتم في علاقات القوى بين الدول على انه يحدث بطريقة آلية أو شبه آلية ، وعلى انه عملية طبيعية وحتمية وتتم في مصلحة المجتمع كله .(٧٧)

٧٥ - إننا نذهب إلى ان فكرة توازن القوى ، هي نظرية علمية دقيقة قابلة للتطبيق في مجال العلاقات الدولية ، مثلما هي صالحة في غير ذلك من العلوم ، فتوازن القوى ينطوي على آلية مؤكدة وصيرورة واضحة(٧٨) تمكن من التحليل والإستشراف ، فوقائع التاريخ تؤكدها ، فالواقع ان الاستقرار دائماً يرتبط بوجود توازن القوى المركب والحرب لاتندلع الا عقب التوازنات البسيطة ، وإذا جاز لنا ان نضع صيغة تاريخية مبسطة فهي التالية : - توازن متعدد الأقطاب ، يؤدي إلى فترة من الاستقرار ، ثم توازن قوى بسيط يتسم بالاستقرار المضطرب يؤدي إلى الحرب التي تؤدي بدورها إلى توازن القوى المركب . . . فآلية التاريخ هي . . . توازن مركب - توازن بسيط - حرب - توازن مركب .

ذلك ما يحدث دائماً غير ان علينا ان نثبت ذلك من خلال عرض الامثلة التاريخية لتوازن القوى البسيط . . .

---

٧٧) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - ص ١٢٩ .

٧٨) يعارض الدكتور كاظم هاشم نعمه هذا المفهوم وذلك من منطق ان القوة والصراع لايسيطران دائماً على العلاقات الدولية ، فإلى جانب ذلك لايجب اغفال مبدأ التعاون ودور المنظمات الدولية في خلق الإستقرار غير اننا لسوء الحظ لانقبل ذلك والاحتمال الراجح عندنا ان العلاقات الدولية مازالت علاقات قوة . انظر رأيه في العلاقات الدولية - ص٢٠٦ .

أمثـلة تاريخيــة

٧٦ - يمتلئ التاريخ بالامثلة لهذا النوع من التوازن ، فإذا كان توازن القوى المتعدد الأقطاب ، هو ابن القرون الاربعة الماضية فإن توازن القوى الثنائي هو الأسبق في الوجود بحكم وسائل الاتصال البدائية بين الدول في العصور القديمة ، ففي مثل هذه الظروف يكون من الطبيعي ان يظهر توازن القوى في حيز اقليمي ضيق بين دول قليلة ومتجاورة تعيش في عالمها الخاص دونما ارتباط وثيق بالمجموعات الاقليمية الأخرى .

ومع ذلك فإن توازن القوى الثنائي كان شائعاً في الحضارات القديمة في وادي الرافدين وفي حضارة وادي النيل وبين المدن اليونانية القديمة وبين الامبراطورية الرومانية وقرطاجنة . . . . . الخ .

إننا لن نقلب صفحات التاريخ البعيد وان كان يثبت العلاقة الوثيقة بين الحروب وتوازن القوى الثنائي ، فقد شهدت هذه الحضارات صدامات مفجعة ، فالصراع بين اثينا واسبرطة هو ثمرة لهذا التوازن والحرب بين روما وقرطاجنة هي نتيجة له أيضاً .

اننا سنتوقف اذن عند التوازنات الحديثة التي أدت إلى الحروب والصدامات المعاصرة .

أ) توازن القوى بعد الثورة الفرنسية . . . .

٧٧ - إلى حين اندلاع الثورة الفرنسية كانت صورة أوربا تتشكل من الممالك والاقطاعيات التي تنعم بالإستقرار النسبي فيما بينها ، وإذا كانت هذه الممالك والإقطاعيات تموج بالتفاعلات الداخلية الناجمة عن الظلم والاضطهاد ، فإن العلاقات الدولية اخذت طابعاً شخصياً وعائلياً بين عروش

أوربا ، إذ تدعمت العلاقات بالمصاهرات الملكية وبدت عروش أوربا كامتدادات لبعضها البعض .

لكن اندلاع الثورة الفرنسية فجر طاقات أوربا وصنع مقدمة الثورة في القارة باجمعها . إن الثورة الفرنسية هي المنعطف الأخطر في تاريخ أوربا وفي العالم اجمع بما حملت من قيم رفيعة ومابشرت به من حريات ، لم تلهب حماس الفرنسيين فحسب بل أوربا برمتها ، وقد كان التصور انه يمكن التوفيق بين مبادئ الثورة والشعور القومي في ممالك أوربا ففي بريطانيا ابتهج الراديكليون منذ عام ١٧٨٩م واعتبر القس برايس ان الثورة امدت أوربا (بالقدرة على التزود بالحرارة التي تحول الاستبداد إلى رماد ، وتشعر أوربا بالدفء وتنيرها) ودافع (توماس بين) العائد من أمريكيا بعد نجاح ثورتها ، عن مبادئ الثورة الفرنسية ، وفي ايطاليا انعشت مبادئ الثورة القوميين انفسهم واكد (بيوناروتي) ان الشعب الايطالي سيحسن استقبال محرريه لانهم يأتون معلنين (الحرب على القصور والسلام للاكواخ) ، وفي المانيا حيٌ (كلوبستوك) الثورة وغنى لها ، ورأى فيها (المثل المشع على الشعوب المحيطة ، وهكذا في كل مكان من المجر إلى بولندا ومن روسيا إلى هولندا التهب اليعاقبة بالحماسة .

ولقد ولدت السنوات العشر الاولى للثورة مفهوم بناء اوربى كبير بحيث يشكل قوة مستقرة كبرى ، وحيث يصبح فيه المواطنون موحدين يتمتعون بحقوق و طموحات متشابهة ، ورسم (كوندوريسية) في عام ١٧٩٣ معالم (لوحة تاريخية لتقدم الفكر الانساني) . وتنبأ باختفاء ويلات الحروب ، حيث ستختفي النزاعات التي يثيرها مغتصبو سيادة الأمم من أجل حقوق وراثية مزعومة وتزول فكرة الغزو وتتبدد الاحكام التجارية السابقة وتتوحد مبادئ السياسة والاخلاق .

فقد اطلقت الثورة الفرنسية تحدياً شاملاً لمجمل الحضارة الاوربية القديمة ، وللتقاليد الأكثر احتراماً على ساحة القارة القديمة[٧٩] .

وقد كان من الممكن لمبادئ الثورة ان تنتشر في عقول الرجال لتعم كافة انحاء أوربا ، إذ انها الهبت خيال المفكرين والمبدعين الذين هزوا بانتاجهم عروش أوربا وافزعوا الملوك والاباطرة فاطلقوا ثورة داخلية مضادة ومتعصبة استهدفت قمع الحرية وفرض الرقابة على المدارس والجامعات وكبحت الصحافة . . . . الخ ، لكن ذلك لم يكن كافياً لمواجهة الحماس الثوري ، فقد هبت على أوربا نسائم الحرية .

غير ان خطيئة نابليون جاءت من محاولته فرض افكار الثورة بالقوة ، وعوضاً عن غزو العقول فقد اختار غزو الشعوب والأوطان ليحطم مبادئ الثورة بسنابك خيله نفسها ، وهاهو (توماس بين) اكبر المناصرين للثورة يعارض الغزو والاحتلال ويقف ناصحاً نابليون بان افكار الثورة ستنتصر بواسطة الشعوب نفسها التي ستدك عروش أوربا ، اما الغزو والاحتلال فإنه سيجعل هذه الشعوب تلتف حول عروشها مهما كانت بغيضة ، وقد ذهبت نصائح (بين) سدى ، إذ اتهم هو نفسه بالجبن والتراجع والحنين إلى عرش بريطانيا البائد[٨٠] .

---

٧٩) موسوعة تاريخ أوربا العام - الجزء الثالث - ص ٦٨ ومابعدها .

٨٠) توماس بين هو مفكر انجليزي - كان عاملاً بسيطاً ، ولكنه مناضل صلب وقف ضد الملكية والاستبداد ، هاجر إلى أمريكيا وساهم في ثورة شعبها ضد بلاده وعند اندلاع الثورة الفرنسية سافر إليها للمشاركة في الثورة فإنتخب عضواً في الجمعية الوطنية قبل ان تمس اقدامه البر الاوربي ، لعب دوراً اساسياً في الجمهورية الفرنسية ، لكنه عارض سياسة نابليون في غزو بريطانيا لاسباب فكرية بحتة واصطدم معه وكان معرضاً للاعدام .

وبعد عشر سنوات من الثورة تشكل في أوربا توازن قوى ثنائي كان طرفاه ، فرنسا من جانب وبقية الممالك الاوربية في الجانب الآخر ولاسيما بريطانيا وروسيا والنمسا والمانيا واسبانيا . . . ومن الطبيعي ان يقود التوازن الثنائي إلى الحرب ، التي اندلعت فعلاً وانتهت بانتصار الحلف الرجعي عام ١٨١٥م ليتشكل توازن قوى جديد ، كان متعدد الأقطاب كما لاحظنا سابقاً . . . وهو التوازن الذي صنع الاستقرار الأوربي لقرن من الزمان[٨١]

ب - التوزان الثنائي بعد عام ١٨٧٠م

٧٨ - منذ هزيمة نابليون وابرام اتفاقية فينا عام ١٨١٥م عم السلام ، إذ استطاع دهاة أوربا (ميترنيخ وكاسلري وتاليران) اعادة توزيع القوة وبناء توازن متعدد الأقطاب كان قادراً على مواجهة المشاكل والتوترات .

على الرغم من أن القارة شهدت خلال عصرها الدبلوماسي عدد من التوترات الداخلية التي انبعثت نتيجة للافكار والمبادئ التي اطلقتها الثورة الفرنسية من جهة ، واستجابة للعامل القومي الذي بدأ في التيقظ خصوصاً في ايطاليا والمانيا من جهة أخرى ، كما ان حروباً محدودة قد اندلعت مثل حرب الوحدة الايطالية والالمانية وحرب القرم ، الا ان التوازن الدولي ظل فعالاً ما يقارب من نصف قرن وقادراً على مواجهة هذه النزعات في اطار الشرعية المقبولة من كل الأطراف .

لكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد ما اقلق التوازن [٨٢] .

---

٨١) ينظر في الحروب الاوربية ضد نابليون - فيشر تـ.يخ أوربا في العصر الحديث - مرجع سبقت الاشارة إليه .

٨٢) يراجع في هذا التوازن وكيف أصبح قلقاً - بول كندي - نشوء وسقوط القوى العظمى - ص ٢٩٥ وما بعدها .

إن توازن اتفاقية فينا قام على اركان رئيسية ثلاثة هي ، الدور النمساوي المتميز الذي حصل عليه ميترنيخ لبلاده ، إذ أصبحت النمسا هي قطب الرحى في هذا التوازن ، وعلى الرغم من موقع النمسا الجغرافي الخطر ، فوقوعها في وسط أوربا يجعلها ليست آمنة لانها محاطة بالاقوياء من كل جانب ، لكن هذا العيب تحول إلى ميزة في توازن القرن الدبلوماسي ، بحيث بقيت النمسا هي الحارس الفعلي للاستقرار الاوربي ، اما العامل الثاني فهو الاتقان البريطاني لدور حافظ الميزان ، اما الثالث فهو عدالة هذا التوازن تجاه فرنسا ، على الرغم من هزيمة هذه الاخيرة الا ان شروطاً قاسية لم تفرض عليها ، كما هي العادة في الحروب الاوربية ، فعلى الرغم من انها جردت من الاراضي المفتوحة والزمت باعادة ما سلبته من كنوز ، الا ان فرنسا عادت إلى حدودها الطبيعية ، بل انها منحت ما هو أكثر من اراضيها قبل الحرب وذلك من اجل تبرير السلطة الملكية الجديدة ، والأهم من ذلك كله الاعتراف بدورها كجزء من توازن القوى الجديد ، فأصبحت راضية وراغبة كغيرها من القوى في حفظ الوضع القائم .

٧٩ - إن هذا الوضع بدأ في التبدل بالوحدتين الايطالية والالمانية اللتين ادخلتا عناصر جديدة للتوازن ، ومن البديهي ان هاتين الوحدتين انتقصتا كثيراً من حظ النمسا وفرنسا ، فالوحدة الايطالية الحقت ضرراً بالغاً بالامبراطورية النمساوية على المستوى الاقليمي ، كما ان مشاعر الزهو التي اصابت الالمان نتيجة إنجاز الوحدة ، قللت من دور الامبراطورية المعنوي والسياسي ، ومثلما انعكس ذلك على النمسا فإنه انعكس بدرجات اقل على كل من فرنسا وبريطانيا ، وأصبح التوازن اشد قلقاً .

أما صعود (بسمارك) فقد زاد من اضطراب التوازن الاوربي ، واستطاع هذا الداهية ان يتلاعب بالتوازن لمصلحة بلاده ، إذ حرض الايطاليين على محاربة النمسا ، وافتعل الاحداث لمحاربة الدانمارك ، ثم خاض الحرب مباشرة مع النمسا عام ١٨٦٦م ، ودفع نابليون الثالث في فرنسا إلى اعلان الحرب على المانيا عام١٨٧٠م ، وذلك نتيجة ترشيحه لأمير الماني لاعتلاء عرش اسبانيا الذي أصبح شاغراً وهو ما اعتبرته فرنسا التفافاً حولها وتوسيعاً للامبراطورية الالمانية .

إن هذه الاحداث قد انتهت عام ١٧٨١ بانتصارات المانية متلاحقة ، حققها (بسمارك) كان آخرها هزيمة فرنسا وسقوط عرش نابليون الثالث وعودة الجمهورية إلى فرنسا ، ونجم عنها صعود الدور الالماني ، إذ أصبحت المانيا القوة العظمى في أوربا كلها ، وخسرت النمسا خسارتها الكبرى ، ليس بفقدان مناطق نفوذها في ايطاليا وحسب ، بل ان الامبراطورية أصبحت على حافة التفكك ، إذ استطاع المجريون ، من خلال هذه الاحداث ، تحقيق مكاسب سياسية هائلة في مواجهة الجنس الالماني ، إذ أصبحت امبراطورية النمسا والمجر دولتين في دولة واحدة ، وان كان تحت عرش عاهل واحد هو (امبراطور النمسا وملك المجر) .

كما اضعفت هذه الحروب الدور الفرنسي ، ففرنسا التي تحالفت مع (بسمارك) في حربه مع النمسا لم تحصل على تعويض يذكر باستثناء بعض النفوذ المؤقت في اراضي جارتها اسبانيا ، ولكن هزيمة عام ١٨٧٠م ذهبت بهذا المكسب الوهمي .

ولقد واصل بسمارك سياسته الماكرة بتحريض فرنسا على احتلال تونس

عام ١٨٨١م وهو الاحتلال الذي وجه لطمة لايطاليا ، التي أصبحت غريمة لفرنسا . وهكذا نجحح (بسمارك) في تحريك هذا التوازن والتحكم في خيوطه ، وقد شهد العقدان الأخيران من القرن الماضي سلسلة من التحالفات ، قسمت أوربا إلى كتلتين متنازعتين هما ، المانيا والنمسا وايطاليا في طرف وفرنسا وبريطانيا وروسيا في الطرف الآخر ، وكانت نواة هذا التوازن الثنائي ، توقيع (بسمارك) للتحالف الثلاثي في مايو عام ١٨٨٢م بين المانيا وامبراطورية النمسا والمجر وايطاليا ، وذلك استجابة لرغبة ايطاليا الغاضبة من الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١ وقد نص الاتفاق الثلاثي ، على ان تقدم المانيا والنمسا المساعدة لايطاليا عند وقوع عدوان فرنسي عليها ، كما تقوم ايطاليا بتقديم العون لالمانيا إذا تعرضت لهجوم فرنسي ، وتبقى على الحياد في حالة النزاع بين النمسا وروسيا ، وقد سعى المستشار الحديدي عام ١٨٨٧م إلى تجديد وتوسيع هذا الاتفاق ، بتشجيعه عقد سلسلة من التحالفات ، والتي انتهت بانضمام بريطانيا واسبانيا إلى صفه ، وقد جمع هذه الأطراف الخشية من التوسع الفرنسي في الشمال الافريقي ، وهو وضع ادى إلى عزلة فرنسا ، وتمحور المتحالفين حول المانيا التي اضحت قطبا يسعى إلى جعل الثأر الفرنسي منها مسألة مستحيلة .

٨٠ - إن هذه الاوضاع الزمت فرنسا بالبحث عن تحالفات تفك عزلتها وتقوى موقفها الدولي ، وقد وجدت ضالتها عند ساسة (سانت بطر سبيرغ) الذين عتبروا المحور الالماني ضارا بهم ، لأنه يستهدف فرض العزلة عليهم ايضا ، على الرغم من أن الاتفاق الثلاثي لم يذهب في نصوصه الصريحة إلى حد استفزازهم ، لكنِ مضمون الاتفاق ينوي أضعافهم ويعزز موقف المانيا والنمسا مما يعد اخلالا بالتوازن الأوربي ، وهكذا التقت مصلحة الطرفين فوقعا

إتفاقاً سياسياً عام ١٨٩١م ، وعسكريا بعد ذلك بعام واحد ، ينصان بصورة سرية على المساعدة المتبادلة عند تعرض احد الطرفين للاعتداء من احد أطراف الكتلة الأخرى ، ولأن سياسة بريطانيا تقوم دائما عل لعب دور حافظ الميزان من اجل تثبيت الاوضاع الدولية ، بمنع أي طرف من زيادة قوته إلى الحد الذي يخل بالتوازن فقد أبرمت بريطانيا مع فرنسا معاهدة التفاهم الودي عام ١٩٠٤م وآخر مع روسيا عام ١٩٠٧م وهي الإتفاقيات التي نجم عنها التفاهم الثلاثي (باريس ،لندن ، بطرسبيرغ) في مواجهة كتلة (برلين ، فينا ، روما) وهكذا أكتمل الشكل النهائي للتوازن البسيط الذي يقود ضرورة إلى الحرب ، وهو ما حدث فعلاً عام ١٩١٤م .

٨١ - إن هذا التوازن نموذجي جداً للدلالة على الإرتباط الوثيق بين توازن القوى الثنائي والحرب ، ففي ظل توازن القوى المركب ، شهدت أوربا مرحلة الاستقرار ، اما الاضطراب فقد ظهر مع ميل هذا التوازن نحو التكتل ، ويمكن تقسيم القرن الدبلوماسي إلى ثلاث مراحل هي مرحلة الاستقرار الحقيقي التي امتدت منذ عام ١٨١٥ - ١٨٧٠م . اما المرحلة الثانية فهي مرحلة الاستقرار القلق ، وهي التي شهدت حركة التحالفات السريعة ، اما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاستعداد إلى الحرب واندلاعها فعلاً ، فقد شهدت هذه المرحلة التكون النهائي للتوازن الثنائي . ويلاحظ ان لكل مرحلة خصائصها فقد شهدت المرحلة الاولى سلسلة من التغيرات والتحالفات المقبولة لزيادة الرصيد الوطني ، ولكنها تحالفات لا تقلق الميزان ولا تخل بصورة جسيمة بالشرعية الدولية ، فقد بدلت المانيا تحالفاتها مرارا واتبعت سياسات لم ينظر اليها على انها سياسات ثورية عنيفة تهدم التوازن ، فشجعت ايطاليا ضد النمسا لأضعاف هذه الاخيرة وتحالفت مع فرنسا عند حرب المانيا والنمسا ،

كما شهدت المرحلة الثانية حركة تحالفات مشابهة اهمها حركة التحالف البريطاني ، فقد انضمت اولا إلى الكتلة الالمانية ضد فرنسا وذلك بسبب الصراع الفرنسي البريطاني على المستعمرات ومناطق النفوذ ، لكن بريطانيا اعادت النظر في سياساتها بدءاً من عام ١٩٠٤م فإنضمت إلى الحلف الفرنسي الروسي لأن التحالف مع المانيا لم يعد يخدم مصالحها ، فقد أصبحت المانيا مركز الثقل الرئيسي في أوربا ، ولأن سياسة بريطانيا تقوم دائما على لعب حافظ الميزان ، الذي سنتعرض له لاحقا ، فقد أصبح الانضمام إلى المانيا خطيرا لانه سيحطم توازن القوى . اما المرحلة الثالثة فقد شهدت التبلور النهائي والاندلاع الفعلي للحرب ، وهي مرحلة لم تشهد سوى تبدلات طفيفة بانضمام ايطاليا للحلفاء انتقاما من النمسا كما انضمت تركيا لأمبراطوريات أوربا الوسطى لاسباب تتعلق بصراعها مع الدول الاستعمارية (ايطاليا وفرنسا وبريطانيا)

٨٢ - وهكذا فإنه ومنذ بداية القرن العشرين أصبح توازن القوى المركب يلفظ انفاسه وأصبح الاستقرار أكثر إضطراباً مع كل ميل للتكتل ، ومنذ عام ١٩٠٧ م أصبح من الواضح ان أوربا تنجرف في اتجاه الحرب ، فقانون التاريخ اخذ مداه ، ولم يعد هناك سوى انتظار ذرائع الحرب ، والتي جاءت فعلا على يد شاب صربي اغتال ولي عهد النمسا الأرشيدوق (فرانز فردينناد) في سراييفو التي كان يزورها الأمير رسميا . وهي ذريعة ما كان يمكن ان تقود لحرب عظمى لولا توفر اسباب اعمق لهذه الحرب . فالجريمة مهما كان حجمها ، ما كان يجب ان تدفع امبراطورية النمسا والمجر لمحو شعب صغير ابدى استعداده للاستجابة لمعظم شروط النمسا حقنا للدماء ، وما كان يجب ان تجر المانيا لهذه الحرب الواسعة وهي لم تتعرض حتى ذلك الوقت لاي خطر

حقيقي ، وما كان يمكن ان تجر روسيا وهي امبراطورية واسعة من اجل نفوذ في بلاد الصرب ، وما كانت قادرة ايضا على جر الآخرين لحرب طاحنة دامت أعواما ،وطوت الملايين وفككت امبراطوريات ثلاث وغيرت خريطة العالم . . .[٨٣]

لقد كانت الأسباب اعمق من ذلك كثيرا ، وهي ليست سوى قوانين التاريخ وانماط توازن القوى . . والتكتل الثنائي الذي هو جرثومة الحرب الحقيقية .

ج - التوازن الثنائي بين الحربين العالميتين . . .

٨٣ - أعقب الحرب العالمية الاولى مباشرة تشكل توازن قوى جديد كان من النوع المتعدد الأقطاب ، فقد اعادت اتفاقية فرساي عام ١٩١٩م توزيع القوة ، وعلى الرغم من أن العالم جميعه قد تلظى بويلات الحرب ، سواء الرابحين أم الخاسرين خرج الجميع منهوك القوى ، غير انه من بين اطلال الحرب انبثقت القوى الجديدة التي كونت توازن القوى ، وبعد ان تحطمت امبراطوريات أوربا الوسطى امكن حساب دول الديموقراطيات الغربية(أمريكيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا) مكونات رئيسية لهذا التوازن ، فقد اعلنت الولايات المتحدة عن نفسها قوة قيادية على المستوى العالمي بعد ان كان تدخلها حاسماً في الحرب ، وحافظت الامبراطوريات القديمة في غرب أوربا على مكانتها في توازن القوى على الرغم من الدمار والبؤس والفاقة ، واضيفت إلى ذلك روسيا

---

٨٣) ينظر في مراحل تكوين توازن القوى واسباب الحرب -فيشر-تاريخ أوربا-ص ٤٨١ الفصل التاسع عشر وما بعده - ويذهب فيشر إلى ان مقتل الارشيدوق لايمكن ان يكون سببا للحرب لو تحلى حكام أوربا بالحكمة وبعد النظر .

التي بدأت تشكل منذ انتصار الشيوعية الامبراطورية السوفيتية ، فعلى الرغم من قلاقل الثورة والصراع فإن امة جديدة كانت تطرق بكل قوة ابواب التاريخ . كما صعد اخيرا نجم اليابان التي أصبحت قوة صناعية واقتصادية وعسكرية ضاربة في شرق اسيا .

٨٤ - وقد كان من المؤمل ان يؤدي هذا التوازن إلى استقرار طويل الامد ، يمكن أن يعطي العالم قرن آخر من السلام ، فقد توفرت عناصر غير مسبوقة كان من الممكن ان تدفع الساسة نحو الحكمة والتبصر .

أن اول هذه العناصر هو حجم الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الاولى ، فالحضارة التي قادت نحو المزيد من الرفاهية والرخاء انتجت بصورة موازية اسلحة الدمار الجماعي ، وقد خلفت هذه الحرب ثمانية ملايين من القتلى وهم زهرة شباب أوربا ، وأضعاف مضاعفة من هذا العدد من المعاقين والعاجزين وعشرات أخرى من الملايين فتك بهم العوز والفاقةوالأمراض والاوبئة . . . وانقلبت صورة أوربا رأسا على عقب ، فالقارة المرفهة التي انغمست في الثراء واللهو أصبحت فقيرة موحشة تسيطر على شعوبها حياة الكآبة والبؤس ، فإذا تحلى الساسة بالحكمة فكان من الواجب استنتاج العبرة من تاريخ هذه الحرب ببناء عالم آمن تنزع منه فتائل الحروب .

.أما ثاني هذه العناصر فهو الاتجاه نحو التنظيم الدولي للمرة الأولى ، فقد انبثقت عصبة الأمم اطاراً للنظام الدولي وأداة لتحقيق السلام والتعاون بين الشعوب . أما ثالث هذه العناصر فهو ظهور المباديء الجديدة عن الديموقراطية وحقوق الانسان وحق تقرير المصير ، وهي مباديء الهبت الحماس ومنحت الأمل للمحرومين في غد أفضل ، فقد كان الشعار الرئيس الذي رفعه

(ويلسون) ودخل على اساسه الحرب هو (جعل العالم آمناً وديموقراطياً) وليس هناك ما هو اجمل من هذا الشعار لكل المنكودين الذين عذبتهم الحروب واشقاهم البؤس ، وقد حمل (ويلسون) معه نقاطه الاربع عشرة لتنظيم العالم ما بعد الحرب ، وهي المبادىء التي جعلته كما يقول (فيشر) اثناء مؤتمر باريس ، كأنه مسيح نزل على الارض ليهدي البشر إلى طريق الخير والسلام ، فقد أوصى المؤتمرين بالتجمل بالانصاف والعقل المحايد وحث على عقد (صلح من غير انتصار) وكأن الحرب لا تترك في النفوس الكراهية والاحقاد . ورفع مجددا شعاره الرئيسى (جعل العالم آمنا وديموقراطيا) ، وبدى ويلسون للجميع نبياً بعثه العالم الجديد ليطهر العالم القديم من ادرانه ، فحتى الالمان الذين تفاوض معهم اثناء الحرب واصر عليهم قبول الهدنة بكل شروطها ، عدّوه حكيما تزينه مناقب الانصاف والحكمة والبعد عن الهوى ، فبلاده المنتصرة في الحرب لم تكن راغبة في تملك اراضي جديدة ولا في الحصول على الغرامات الحربية[٨٤] .

٨٥ - لقد كانت أوربا بعد نيف وقرن من الزمان تعيش ظروفا متشابهة مع ما حدث عام١٨١٥م ، فقد هُزم الطرف المشاغب ، واجمع الأطراف على وجوب التخطيط للسلام من جديد ،غير ان ما ينقص أوربا بعد الحرب العالمية الاولى ، هو عبقريات كبيرة مثل (ميترنيخ وكاسلري وتاليران) ، ويالها من مفارقة ، فلم يكن لدى (ويلسون) دهاء ميترنيخ ولابعد نظره السياسي ولاقوة النفوذ بين قومه ، ولم يكن لدى (لويدجورج) تبصر كاسلري ولا عمق نظرته لتوازن القوى ، كما افتقد (كليمانصو) واقعية (تاليران) .

---

٨٤) فيشر - تاريخ أوربا - ص ٥٥٣

أن هولاء الرجال الثلاثة (ويلسون ولويدجورج وكليمانصو) الذين تعهدوا بتنظيم العالم كان من الممكن ان يهتدوا بمخطط (ميترنيخ) ومعاصريه ، لكنهم ارتكبوا اخطاء فادحة .

أن المقارنة بين (ميترنيخ وويلسون) جائزة تاريخياً ،[٨٥] فكلاهما جعل من بلاده بطلة الحرب والقوة العظمى الرئيسية بعد نهايتها والعنصر الرئيسي للمحافظة على الوضع الدولي ، غير أن ميترنيخ كان أكثر دهاءً وأكثر قوة في ادارة نظام بلاده ، فهو بدهائه حافظ على أطراف التوازن ومكانتهم ، بما في ذلك فرنسا المهزومة ، وجعل من تاليران شريكا له في توازن القوى الجديد ، اما سياسته فجعلها مقبولة وشرعية على المستوى الداخلي . أما (ويلسون) فقد افتقد العنصرين معا ، فبدّل (الدهاء بالطهارة) واستند على قوة مبادئه واعتبرها كافية لتحقيق السلام والاستقرار ، اما على المستوى الداخلي فقد هشمتهَ الصراعات الحزبية وشككت حتى في شرعية تفاوضه باسم البلاد وهو الرئيس المنتخب ديموقراطيا ، وبينما كان هو نجم باريس اللامع ومحط انظار ساسة العالم في فرساي انطلقت اصوات امريكية لها شأنها تقول (ان ليس للسيد ويلسون سلطة الحديث باسم الولايات المتحدة الامريكية) وذلك لاسباب انتخابية بحتة واستجابة لصراعات السلطة المرة . وبينما نجح ميترنيـــخ في ترتيب اوضاع العالـم عـام١٨١٥م فشل (ويلسون) في اعادة الدرس عام ١٩١٩ م . فإنسحبت الولايات المتحدة الامريكية من نظام العصبة وإختارت الانعزال عن السياسة العالمية[٨٦] .

---

٨٥) سنتعرض عند بحثنا لدور حافظ الميزان لمقارنة اوسع بين هذين السياسيين .

٨٦) كان الرئيس ويلسون ديموقراطيا يحكم باغلبية جمهورية معارضة في مجلس الشيوخ ، واثناء معاهدات الصلح لم يحاول الرئيس ويلسون اخذ هذه الحقيقة في الاعتبار فلم يضم وفده الشيوخ الجمهوريين فارتكب خطأ تكتيكيا بليغا جعل من هؤلاء يعارضون كل خططه ولم يصادقوا على نظام عصبة الأمم . ينظر في هذه التفاصيل فيشر-ص ٤٥٥

٨٦ - لقد كان الخطأ الاساسي عام ١٩١٩م هو استثناء المانيا من توازن القوى وفرض تلك الشروط الثقيلة عليها ، فقد اعمت نشوة الانتصار ساسة أوربا عن رؤية الحقائق الواقعية ، فقد انحصر هم (كليمانصو) في الحصول على الالزاس واللورين وبنى (لويد جورج) حلوله على الشهوات والضغائن وكان همه الرئيسي سجن المانيا وتكبيلها والتنكيل بها ، وهكذا فقد فرضت على المانيا شروط قاسية ، تمثلت في فرض تعويضات باهضة عليها على اساس المبدأ القانوني (يجب ان يدفع الفريق المهزوم نفقات الحرب) ، كما تم الاستيلاء على اسطولها العسكري والتجاري وتم تحديد جيشها بمائة الف رجل واقتطع جزء من اراضيها كما استولى الحلفاء على كل مستعمراتها ، بل واتفقوا على امكانية اعادة احتلالها ، وعلى الاجمال فإن شروط الصلح كانت عسيرة ومهينة لشعب كبير كالشعب الالماني . اما النمسا وهي المسؤول الرئيسى عن الحرب فقد لحقت بها خسائر اشد فداحة ، يلخصها ان الامبراطورية التي حكمت خمسة عشر جنساً تفتت نهائيا وتحولت إلى دولة صغيرة لا يزيد تعدادها عن ستة ملايين كما منعت صراحة من أي اتحاد مع المانيا من دون موافقة عصبة الأمم .

٨٧ - وإجمالا فإن اتفاقية فرساي كانت حافلة بالخطايا القادرة على إنتاج المزيد من الحروب ، انها معاهدة لم ترض احدا ، ولم يقتصر الاعتراض عليها على المهزومين وحدهم ، بل ان المنتصرين خرجوا حانقين ايضا ، ففي فرنسا راج شعار (ان الجيش الفرنسي كسب الحرب ، ولكن كليمانصو باع الصلح) فباستثناء الالزاس واللورين اهملت كل مطالب فرنسا الأخرى وهي الاشد خشية من صعود الروح الالمانية من جديد ، وردد الايطاليون ان فرنسا ستستحوذ على الالزاس واللورين ، وفازت بريطانيا بنصيب الاسد في

المستعمرات الالمانية ، فاي شيء مقابل هذا سنحصل عليه نحن ؟[87]
وبغض النظر عن الأضرار التي الحقت بالشعوب الاوربية الصغيرة ، فإن بريطانيا نفسها وهي الرابح الاكبر في هذه الترتيبات لم ترض عن معاهدة الصلح كلها ، فشعبها المجبول على الكراهية وحب التوسع وكثرة التآمر لم تقنعه كل المكاسب التي حققها لويدجورج ، فبعد تحطيم المانيا وإهانتها وتدمير جيشها وسلب خيراتها ذهب المزاج الانجليزي الشعبي إلى انه لاخير في ترتيبات لم تشنق الامبراطور وتحاكم القادة وتسرف في اهانة الامة .

ومن الطبيعي ان معاهدة كهذه لم ترض جميع أطرافها لا يمكن ان تقود نحو الاستقرار والسلم ، فالتوازن المتعدد الذي ارسته كان هشاً ومعطوباً في كل أسسه ، وإذا كان التوازن كما يقول (مورجنتاو) يفتقر دائماً إلى عدم العدالة والكفاية واليقين ، فإن هذا التوازن هو النموذج المطلوب لاثبات هذه الحقيقة ، فزهو المنتصرين وآلام المهزومين ، انتجت توازنا قلقا ، فرضه المنتصر من دون تبصر وقبله المهزوم الذي لا حيلة له تجاهه .

٨٨ - وبعد سنوات قليلة بدأ الميل نحو التكتل الذي ابتدأته الديموقراطيات الغربية الراغبة في الحفاظ على الوضع الدولي ، وهو لصالحها ، فقد سعت فرنسا وبريطانيا إلى تمتين الوضع القائم بعقد سلسلة من التحالفات مع كل من تركيا وبولونيا ورومانيا واليونان ، وبعد عشرين عام من التحالفات والتفاعلات أصبحت هناك كتلة دولية نواتها فرنسا وبريطانيا وهي كتلة كانت جاهزة إلى الحرب عام١٩٣٩م . وفي الوقت نفسه بدأت تتصاعد العقائد الاستبدادية والايديولوجيات المعارضة للديموقراطية الغربية ، فقد انتصرت الشيوعية بشكل نهائي في روسيا وظهرت الامبراطورية السوفيتية

---

٨٧) انظر في هذه الشروط - فيشر ص ٥٦١

الجديدة وبدأ السعي نحو الانتشار العالمي للتبشير بقواعد الاشتراكية الجديدة ، كما سيطرت النزعة الفاشية على ايطاليا ، وتبوأ هتلر سدة الحكم في المانيا واستطاع حشد مشاعر الشعب الالماني المكبوتة ، وأصبحت النازية عقيدة للانتقام من الظلم التاريخي .

و بغض النظر عن الاختلافات الايديولوجية بين هذه الانظمة ، فإن قسما مشتركا ونداءً داخليا أصبح يدعوها إلى تشكيل كتلة دولية موازنة لكتلة الغرب وراغبة في اعادة تغيير الوضع الدولي القائم ، وابتدأ ذلك باتفاقيات (برلين روما) ثم (برلين طوكيو) التي نجم عنها محور (برلين روما طوكيو) وتعزز ذلك بالاتفاق الفولاذي بين هتلر وموسوليني ، فأصبحت المانيا عام ١٩٣٩م مزودة باتفاقيات هجومية ، فإنقسم العالم إلى كتلتين ، وأصبح التوازن ثنائيا ، طرفاه هما الديموقراطيات الغربية والنظم الشمولية بما في ذلك الاتحاد السوفيتي فأصبح العالم على شفير الحرب ، ولا ينقصه سوى ذريعة من نوع قتل ارشيدوق النمسا . وكانت الذريعة هذه المرة هي اقليم السوديت التشيكي الذي طالب بالانضمام لالمانيا ، وعلى الرغم من ان (دالاديه) رئيس وزراء فرنسا و (تشامبرلين) رئيس وزراء بريطانيا ، أبديا استعدادهما لإصلاح بعض اخطاء فرساي بتوقيع اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨م وهي الاتفاقية التي تجاوبت مع الطموحات الالمانية وذلك انقاذا للسلام ، الا ان عجلة الحرب أصبحت تدور بسرعة لأن جرثومتها التاريخية قد اكتملت ، فتوازن القوى الثنائي أصبح كاملا وفعالا ولا بديل اذن من الحرب الواسعة الكبرى ، الحرب العالمية الثانية

د) التوازن الثنائي بعد الحرب العالمية الثانية . . .

٨٩ - كان التوازن طيلة الحرب العالمية الثانية ، ثنائياً بين دول الحلفاء

والمحور ، وهو توازن لم يشهد أية تبدلات طوال الحرب ، لكن هذا التوازن انتهى عندما وضعت الحرب اوزارها ، لندخل في حقبة جديدة اعادت الامور إلى اوضاعها الطبيعية . فسرعان ما دبت الخلافات بين حلفاء الحرب انفسهم ، فقد وحدتهم شراسة العدو ولكن الغنائم والأسلاب دفعت بكل منهم للبحث عن مصالحه الوطنية ، فقد دبت الخلافات في الواقع قبل ان يسكت هدير المدافع بصفة نهائية ، بل أن أيام الحرب الأخيرة لم تكن تهدف لسحق العدو بل كان هدفها تحقيق اكبر نفع ممكن لكل طرف ، لأنهم يعرفون جميعا ان المكاسب الاقليمية والسياسية ستحددها اقدام جنودهم ، أما على الصعيد السياسي فقد دبت الخلافات بين الحلفاء ، سواء في المؤتمرات التي عقدت لبناء عالم ما بعد الحرب ، أم المشاكل الاقليمية العديدة التي برزت ، والتي لم تكن سوى انعكاس وصدى للخلافات العميقة .

أن الصورة العالمية بعد الحرب اتخذت شكل توازن عالمي متعدد الأقطاب كانت قاعدته الاساسية وجود قوى كبرى ثلاث ، هي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا ، وكانت قرارات مؤتمر (بوتسدام) تجسيداً لهذه الحقيقة ، فقد انفرد (ترومان وستالين واتلي) بتنظيم شئون العالم ، غير انهم اضطروا للاعتراف بدور فرنسا والصين كقوى عظمى ايضا ، فقد نص على انضمام هذه الدول لمجلس وزراء خارجية دول الحلفاء لوضع معاهدات الصلح مع الدول الصغيرة التي انضمت لالمانيا ابان الحرب[٨٨] .

ان توازن ما بعد الحرب كان بلا جدال توازنا مركبا ، فتلك هي الحقيقة التي كرستها المواثيق الدولية والتنظيم الدولي ايضا ، وما الاعتراف بحق

٨٨) فيشر – تاريخ اوروبا – ص ٧٢٠

النقض لهذه الدول الا تجسيداً لهذا الواقع ، كما ان حقائق التاريخ تؤكد ذلك ، فمن طبيعة التاريخ ان يعقب التوازن المركب كل حرب واسعة ، وعلى الرغم من ان هذا التوازن ارتكز على وجود قطبين متميزين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، الا ان ذلك لا يجب ان يحجب دور الآخرين في اثناء الحرب أو في المستقبل ، فقد وقع العبء الرئيسى على فرنسا وبريطانيا في تحقيق الانتصار ، كما انه لايمكن الاستغناء عن دورهما في المستقبل وهما من اعظم الامبراطوريات وأكثرها امتدادا في ذلك الوقت ، اما الصين ، فإنها أصبحت بطبيعتها قوة عظمى ، سواء نظر إلى حجمها السكاني أم قوتها العسكرية ، وقد افسح لها خروج اليابان - على أية حال - القيام بدور القوة العظمى .

٩٠ - أن هذا التوازن المركب قد اعطى العالم فرصة ذهبية لاعادة السلام ، وفتح الابواب امام التخطيط للاستقرار لمرحلة طويلة ، فقد ظهرت ظروف جديدة مماثلة لتلك التي اظهرت عام ١٨١٥م وعام ١٩١٨م . غير ان هذه الفرصة اهدرت ايضا مثلما اهدرت فرصة عام ١٩١٨م ، وما كان يعوز العالم مرة أخرى هو الرجال من نمط (ميترنيخ وكاسلرى وتاليران)فقد ظهر للعالم ساسة عدّوا كبارا هم (ترومان وستالين واتلي) ،لكنهم وقعوا في اخطاء اسلافهم (ويلسون ولويدجورج وكليمانصو) ، فقد كان ثلاثي القرن العشرين في الحالتين فاشلا .

إن خطايا التاريخ متشابهة ، فقد اضاع ثلاثي الحرب العالمية الاولى فرصة السلام لانهم انقادوا للشهوات والضغائن ولم يمدوا بصرهم نحو المستقبل البعيد ، ولذا فإن الجيل نفسه الذي خاض الحرب الاولى كان عليه ان يدفع الثمن مرة أخرى . . وقد اضاع ثلاثي الحرب العالمية الثانية فرصة ثانية لبناء

سلام طويل الأجل ، وعلى الرغم من تجارب الحرب المرة فإن بصيرة الساسة لم تكن فسيحة ، فبذروا بذور الحروب عوضا عن غرس شتول السلام . وهكذا فإن توازننا الحديث لم يعمر طويلا ، إذ بدأ فور انتهاء الحرب الميل نحو التكتل ، ليتشكل توازن القوى الثنائي بعد سنوات معدودة من حلفي الناتو و وارسو .

لقد تنبأ (هتلر) وهو على وشك الهزيمة والانهيار بالصدام المرتقب بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية واستنتج انه (بهزيمة الرايخ وإلى ان تظهر قوميات اسيوية وافريقية وربما جنوب امريكية ، فإنه سيظل في العالم قوتان عظيمتان قادرتان على مواجهة بعضهما بعضا وهما الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية وسوف ترغم قوانين التاريخ والجغرافيا هاتين القوتين الكبيرتين على اختبار قوتهما اما عسكريا أو في ميادين الاقتصاد والعقائد) [٨٩] .

وبالفعل فإن قوانين التاريخ قد ارغمت هاتين القوتين على امتحان مركب لقوتهما العسكرية والاقتصادية والايديولوجية ، فلم تمض غير ثلاث سنوات على الحرب العالمية الثانية ، الا واشتعلت الحرب الباردة بسلسلة من الازمات المتلاحقة في برلين والشرق الاوسط وفي اقصى آسيا وافريقيا ، وهي ازمات لم تكن سوى عوارض المرض الذي اصيب به المجتمع العالمي ، اما المرض الحقيقي فقد كان في العواصم الكبرى نفسها (واشنطن وموسكو وباريس ولندن) وقد بدأ التكتل بإجراءات سياسية متلاحقة من الطرفين ، كان في

---

٨٩) كولن باون وبيتر موني من الحرب الباردة حتى الوفاق ترجمة صادق ابراهيم عودة دار الشرق للنشر عمان ط ١ الاصدار الثاني ١٩٩٥ م ص ١٠

مقدمتها مشروع مارشال الذي بدأ في ظاهره كمشروع لاعادة تعمير أوربا ومساعدتها على النهوض ، لكنه في جوهره كان مشروعاً للقضاء على ظروف اليأس والحرمان التي ستؤي حتما إلى نمو الشيوعية ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإنه كان يرمي إلى تكبيل الاقتصاديات الاوربية والسيطرة عليها وجعلها خاضعة للاقتصاد الاميركي وحلقة من حلقاته ، وذلك هو الذي سيعطي الولايات المتحدة القدرة على خلق كتلة متماسكة ومحكومة بالتوجه الأميركي .

وقد حذا الاتحاد السوفيتي حذو خصومه فوقع عدد من الاتفاقيات التجارية مع بلدان أوربا الشرقية ثم أنشأ (مكتب الاعلام الكومنفورم) الذي تكون من رؤساء الاحزاب الشيوعية في البلدان الشيوعية وفي عدد من الدول الغربية ايضا [٩٠] .

ان هذه الاحداث السياسية قد توجت بالاحداث الأكثر اهمية وهي انشاء حلف الناتو بمقتضى معاهدة شمال الاطلسي التي وقعت في الرابع من ابريل ١٩٤٩م ، وذلك من قبل اثنتا عشر دولة على رأسها الولايات المتحدة الامريكية ، التي عادت بقوات ضخمة إلى قواعدها القديمة في بلدان أوربا الغربية وذلك فيما يشبة الاحتلال . وفي المقابل فقد انشأ الاتحاد السوفيتي حلف وارسو المكون من البلدان الشيوعية كتلة موازنه لحلف الاطلسي وذلك عام ١٩٥٥م .

وهكذا فقد تشكل بصورة نهائية توازن القوى البسيط الذي يحمل تباشير الحرب ودخل الطرفإن في سباق تسلح محموم وصراع ايديولوجي وسياسي مرير . . .

---

٩٠) المرجع السابق ص ٣٥

غير أن هذا التوازن الثنائي لم يقد إلى الحرب والمواجهة بشكل سافر وذلك للمرة الأولى في التاريخ ، فما سبب ذلك ؟

طبيعة الحرب في العصر النووي ...

٩١ – إن تشكل توازن القوى البسيط لابد من أن يفضي إلى الحرب فهذا هو منطق التاريخ الذي ينسجم مع استنتاجنا الرئيسي عن العلاقة بين الحرب وهذا النوع من التوازن .

غير ان الحرب بصورتها المألوفه لم تندلع هذه المره في شكل مواجهة واسعة بين الكتلتين وذلك ينطوي على التشكيك في قيمة هذا الاستنتاج المهم . .

اننا نعتقد ان القانون التاريخي لم يمس بصورة جوهرية ، لكن تبدل المعطيات افضى إلى تعديل طفيف في النتائج بصورة تتفق مع التبدل النسبي في المعطيات نفسها . .

فالتطور الهائل في نوعية الاسلحه باختراع القنبلة الذرية والهيدروجينية ، لم يغير من طبيعة الحياة بل اثر في كيفيتها ، فهذه الاختراعات الخطيرة لم تلغ الحرب ولكنها بدلت في كيفيتها فقد أصبحت الحرب الواسعة بين الكتلتين مسألة غير عقلانية ، لأنها لن تقتصر على احداث دمار شديد بالطرفين بل انها ستمحوهما من الوجود .

إن الحرب مهما كان حجمها تظل عملا عقلانيا لأنها في نهاية المطاف ممارسة سياسية ترمي إلى تحقيق انجاز سياسي ، ويقوم بها رجال سياسيون يتصفون بالتعقل والحكمة احيانا ، لكن الحرب النووية إذا اندلعت تخرج الحرب عن كونها عملاً عقلانياً .

أن العقلانية تقتضي اعادة تكييف الحرب بارجاعها إلى دائرة العقلانية وهذا ما حدث فعلاً فقد اندلعت الحرب بين الكتلتين ، نتيجة لتوافر شروطها التاريخية ، غير انها اخذت هذه المرة صورة ليست مألوفة كثيراً ، وهي اللجوء إلى فكرة الحرب بالوكالة اي الحرب التي تقوم بها أطراف أخرى لحساب الأطراف الرئيسية التي تقدم إليها في نهاية المطاف قوائم الربح والخسارة .

ويجمع المؤرخون على ان الحرب قد وقعت فعلاً فهى وان وصفت بأنها باردة الا انها حرب أولاً واخيراً وإذا كان اصطلاح (باردة) قد اخذه بعضهم على معناه الظاهري بمعنى حرب الدعاية والاعلام فإن معنى الباردة في اعتقادنا يذهب إلى ان تكاليف هذة الحرب لم تنعكس من جهه الخسائر البشرية على الكتلتين المتحاربتين مباشرة .

ان الحرب الباردة قد اخذت هذه المرة شكل سلسلة من الحروب الاقليمية ، وهى حرب كغيرها من الحروب كانت مكلفة على الصعيد الانساني والمادي و الحضاري ، وإذا احصينا الحروب التي اندلعت في العالم بعد عام ١٩٤٥ م فإننا سنجد انها تتجاوز (١٦٠) حرباً ، وذلك لا يشمل الحروب الداخلية واعمال التمرد والعصيان ، أما احصائيات القتلى فإنها تذهب إلى ان الارقام المؤكده لاتقل عن عشرين مليون ضحيه وبما ان معظم هذه الحروب جرت في العالم الثالث فإن إحصائياتها ليست دقيقة[٩١]

اما المعاقون والمشردون فإنهم يعدون بالملايين ، وتذهب تقديرات بعض المنظمات الدولية ، إلى ان عدد اللاجئين وحدهم يفوق الخمسين مليونا ، وهو

---

٩١) ينظر في ذلك د . كاظم نعمة – العلاقات الدولية – سبقت الاشارة إليه ص ٢٤٨ وما بعدها

ما يعادل تقريبا ضحايا الحرب العالمية الثانية ، اما الخسائر المادية فهي مما يستعص على الحساب ، فقد تجاوز كثيراً الارقام المعلنة ، فالقتلى بالملايين في كل حرب من هذه الحروب ، وعلى سبيل المثال فإن الحرب الاهلية في نيجيريا ، تجاوز قتلاها ثلاثة ملايين ، والحرب الفيتنامية تجاوز قتلاها المليون قتيل ، وأكثر من مليون في حرب التحرير الجزائرية ، وأكثر من مليون في افغانستان ومثل هذا العدد في حروب الخليج وفي البحيرات الافريقية وفي البوسنة والهرسك وفي الفلبين والشرق الاوسط . . . الخ .

وهكذا فإن الحرب في الواقع قد وقعت ، ولم تتبدل سوى كيفيتها بحكم ظهور الأسلحة الذرية فالواقع ان الأسلحة النووية قد بدلت الغرض التقليدي للقوة ، ومع ذلك فإن احتمال اللجوء إلى الحرب النووية يظل قائما ، بدليل ان استراتيجيات الدول الكبرى مازالت تنطوي على هذا الاحتمال ، فهي مازالت تستعد إلى الحرب وتعد الخطط الدفاعية والهجومية لها .

وخلاصة الامر فإن اسلحة الدمار الشامل لم تلغ الحرب واحتمالاتها فقد استخدمت هذه الأسلحة بالفعل ، فاستخدمت الولايات المتحدة الأسلحة النووية ضد اليابان ، كما جهزتها للاستعمال في مرات أخرى عديدة ضد قوى نووية تملك القدرة على الرد ، اما غير الأسلحة النووية فمن المرجح ان دولا عديدة استخدمتها خلال الحروب الاقليمية ايام الحرب الباردة .

الخلاصة...

٩٢٢ – من كل ماتقدم نستنتج ان الارتباط وثيق بين توازن القوى البسيط والحرب ، فهذا التوازن يعد المقدمة الحقيقية للحروب ، فما ان يبدأ في التشكيل حتى يبدأ الاضطراب وعدم الاستقرار ، وعندما يتكون بصورة نهائية

فإن الحرب تصبح وشيكة لاتنقصها سوى الذرائع المباشرة التي يخلفها حدث دولي أو اقليمي تافه ، لايستحق في الظروف العادية أكثر من الجهود الدبلوماسية لرأبه ، ففي كل الامثلة التاريخية التي عرضناها والتي تغطي ما يزيد عن قرنين من الزمان اندلعت الحروب بعد كل توازن ثنائي .

ولا ينال من هذه الحقيقة التاريخية التطور الهائل في نوعية الأسلحة وحجم الدمار الذي تخلفه ، فهذا العامل لايحدث سوى تبدلات طفيفة في الاستنتاج التاريخي ، وبديهي القول ان الأسلحة مازالت في تطور ، لكن هذا التطور مهما كان حجمه ، لن يمس على الأرجح بقوانين التاريخ الثابتة ، ومتى كان الأمر كذلك فإن مقولة تشرشل عن خطر العلم تستحق الكثير من التأمل (فقد نعود - فعلاً - للعصر الحجري على جناح العلم الوضاء) .

ثالثا - التوازن المرن والتوازن الجامد...

٩٣ - يقول (ريمون آرون) ان ميزان القوى ليس من طبيعة واحدة، ولا يخضع دائما لعدد الأطراف المكونة لهذا التوازن، بل يخضع ايضا لطبيعة الدول والاهداف التي يلتزم بتحقيقها اولئك الذين يسيطرون على السلطة[٩٢].

فعلى الرغم من ان المعيار الاساسي المعتمد في تصنيف توازن القوى هو معيار العدد الذي يجعل التوازن بسيطا أو مركبا، الا ان هذه التوازنات نفسها ليست من طبيعة واحدة، فالتوازنات البسيطة وان كانت متشابهة من حيث العدد وتؤدي إلى نتائج اساسية متشابهة ايضا الا انها تتسم ببعض الفروق، وهي وان كانت غير جوهرية، الا انها تؤدي عمليا إلى بعض الفروق التي تتوجب ملاحظتها... كما ان التوازنات المركبة ليست من طبيعة واحدة ايضا، ولا تختلف عن بعضها البعض من حيث العدد فقط ولكن من حيث الدور الذي تقوم به، فتوازن القرن الدبلوماسي مثلا وهو توازن متعدد الأطراف لا يتشابه بصورة كاملة مع توازن القوى المركب الذي نشأ بعد الحرب العالمية الاولى، فقد استطاع الأول ان يخلق سلاما دام مائة عام بينما لم ينعم العالم بالاستقرار في ظل التوازن الثاني سوى عقد ونصف، وذلك على الرغم من التشابه الكبير بينهما سواء من حيث العدد أو من حيث الظروف التاريخية التي ظهر فيها كل منهما.

٩٤ - أن هذه الاختلافات ليست ناجمة عن التوازنات نفسها، ولكنها ناجمة عن طبيعة الدول المكونة لكل توازن، ونوعية القادة الذين يوجهون

٩٢) دانيال كولار- العلاقات الدولية-ترجمة د. خضر خضر-دار الطليعة -بيروت- ط ٢ - ص ٧٥

السياسة الدولية في فترة التوازن ، وحقيقة الأهداف التي تسعى لتحقيقها هذه الدول وهؤلاء الساسة . فقد ينشأ التوازن بين دول متجاورة ومنتمية لقيم حضارية واحدة وتسعى لتحقيق أهداف متشابهة ، وقد يحدث العكس بأن ينشأ التوازن بين دول متباعدة ومنتمية لحضارات مختلفة ، وتسعى لتحقيق أهداف متباينة .

وقد ينشأ التوازن بين دول يسيطر على قيادتها ساسة عقلانيون لا تعوزهم الحكمة والتبصر ينشدون التطور والاستقرار ، وقد يستولي على دفة الامور ساسة ساخطون تتحكم في تصرفاتهم الشهوة والحقد والضغائن ، ويتخذون قراراتهم بالرعونة والطيش ويسعون لاثارة الفتن والحروب دون تقدير للعواقب .

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات ان تختلف النتائج من توازن إلى آخر ، لكن مع كل ذلك فإن الاستنتاجات الرئيسية تظل على ما هي عليه كما سنبين ايضا بالامثلة التاريخية .

أن هذه المتغيرات ، اي الاختلاف في طبيعة الدول والقادة ، اوحت إلى البعض بوجود نوع من توازنات القوى المستندة إلى هذا العنصر ، فتحدثوا عن التوازن المرن والتوازن الجامد .

ومع اهمية هذا التقسيم المستند إلى عناصر موضوعية حقيقية ، الا اننا نعتقد ان هذه المعايير لا تؤدي إلى نوع جديد من انواع توازن القوى ، وذلك بسبب عدم وجود نتائج محددة يؤدي إليها هذا التوازن ، بمعنى عدم تكرار هذه النتائج بصورة تاريخية شبه مؤكدة ، فقد عرفنا ان التوازن المركب يؤدي إلى الاستقرار والتوازن البسيط يؤدي إلى الحرب ، كما لا نستطيع ان نقول ان هذا التوازن هو من النوع المرن الذي سؤدي إلى هذه النتيجة بصورة حتمية ، وان

هذا التـوازن هو من النوع الجـامـد الذي سـيـؤدي إلى نتـائج مـخـتلفـة ،لاننا سنلاحظ ان النتيجة التي سيؤدي إليها ايا منهما ستظل معتمدة على الشكل الاصلي للتوازن فيما إذا كان بسيطا أو مركبا . كما سنلاحظ ان التوازن المرن أو الجامد سيؤدي إلى نتائج متناقضة احيانا ، وقد ينتج توازن مرن لفترة ما حالة معينة ولكن يؤدي إلى نقيضها في مرحلة تاريخية أخرى .

٩٥ - أن ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي قادت للحيرة حول ما إذا كان توازن القوى ، يصلح لأن يكون نظرية علمية كغيرها من النظريات في مجال العلوم التطبيقية أو لايصلح لذلك . إننا نعيد التأكيد على علمية نظرية توازن القوى ، غير ان هذه النظرية بحكم حداثتها النسبية ما زالت تحتاج إلى اجلاء كثير من الغموض ، وعلينا ان نعيد التأمل مرارا في كل حالة وان نستخرج ، في كل مرة ، العناصر والمعطيات والافتراضات ، لنضيفها لما هو معروف ، وبهذه الطريقة يمكن الوصول إلى الصيغة الأكثر دقة ، لنظرية توازن القوى .

إننا نعتقد بصلاحية المعيار التقليدي لتحديد انواع توازن القوى وتقسيماتها الرئيسية لكن ذلك لا يجب ان يحجب عنا الحقائق الأخرى التي تشكل معطيات مهمة مؤثرة في الاستنتاجات النهائية . . . وهكذا فإننا نعتقد ان اضافة هذا النوع الجديد من التوازن سيكون ذو فائدة عملية في تصنيف الانواع الاصلية لتوازن القوى وفي النتائج على الوجه الأكثر دقة . . .

وبصورة مباشرة نقول ان التوازن المرن والتوازن الجامد هما مجرد صفات تلحق بالتوازن الاصلي أكثر منها انواع جديدة تضاف إلى ما هو معروف . لكن ذلك لا يجب ان يقلل ، بأي حال من اهمية المرونة والجمود وسنوضح ذلك بصورة اكبر فيما بعد . فما المقصود بالتوازن المرن والتوازن الجامد؟

٩٦ - يقصد بالتوازن المرن ، التوازن الذي يقوم بين دول تنتمي إلى نموذج فكري وسياسي واقتصادي واجتماعي موحد أو متجانس ، ولذلك يطلق عليه احيانا (توازن الانظمة المتجانسة) أو توازن (الانظمة المعتدلة) ، اما التوازن الجامد فهو على العكس يقوم بين دول تنتمي إلى نماذج فكرية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو حضارية متناقضة أو متنافرة ، ولذلك يطلق عليه احيانا (توازن الانظمة المتنافرة) أو (الانظمة الثورية) .

فالعنصر الرئيسي للجمود يتأتى من مدى التوافق الفكري والحضاري والأيديولوجي ، فبغض النظر عن عدد الأطراف ، فإن المميز الاساسي هو المكون المعنوي ، ولقد اعتقد بعض علماء السياسة ، ان النتيجة الرئيسة للتوازن من زاوية السلام أو الحرب تعتمد على مقدار المرونة والجمود ، فالتوازن المرن يؤدي إلى الاستقرار والسلام ، لأن العناصر المكونة له قادرة على التفاهم وفق قواعد شرعية مقبولة ، اما التوازن الجامد فإنه يقود إلى الحرب لأن عناصر التصادم فيه أكثر من عناصر التفاهم . ويعطون العديد من الأمثلة التاريخية التي تدعم هذا الاستنتاج ، فالحرب بين أوربا ونابليون كانت ثمرة الجمود الذي نشأ مع ظهور الفكر الجمهوري كمضاد للاستبداد الملكي ، وقد اندلعت الحرب العالمية الثانية نظرا لصعود التيارات الفاشية والنازية ، وهي تيارات مضادة للديموقراطية الغربية وذلك هو سبب الحرب .

٩٧ - إننا لا نجاري هذا الاتجاه ، مع تقديرنا لأهمية المرونة والجمود في التوازنات الدولية ، وهي أهمية لها دورها في تأجيج الصراع وحركة التحالفات ، فالتناقضات الفكرية والسياسية والايديولوجية لا تصنع وحدها الحرب ولكنها قد تصب الزيت على نارها . ويذهب رأينا إلى ان الحروب المشار

إليـهـا لـم تـنـدلـع بسـبـب التناقضـات الايـديـولوجـيـة ولكن بسـبـب مـحـاولات الاخلال بتوازن القـوى بصورة سـافرة ، فـالذي اشـعل الحـرب في مطلع القـرن التـاسـع عشـر هو اطمـاع نابليـون المتزايدة ، ورغبـتـه في التوسع الذي ادى إلى الاخلال بتوازن القوى لمصلحة فرنسا على حساب الدول الاوربية الأخرى ، فقـد استولت الثورة على بلجيكا وهي اقليم بالغ الثراء وعلى هولندا واتجهت لضم ولايات ايطاليا الغنية وعادت بريطانيا وحرضت شعوبها على الإنتفاض وتقرير مصيرها بيدها[٩٣] .

إن الثورة الفرنسية بهذه الافعال قد حطمت توازن القوى الأوربي ، ووضعت امبـراطورية النمسـا في مهب الريح وتفوقت على بروسيـا ، وعرضت مكانة بريطانيا للخطر وهي الدولة الاشهر في حفظ الميزان الدولي .

أن سبب الحرب هو الاخلال بتوازن القوى وليس الفكر الجمهوري وحده ، وبإفتراض انكفاء فرنسا على نفسها والاكتفاء باصلاح نظامها الداخلي فمن المشكوك فيـه ان تتحـالف أوربا لحـربهـا ، وإذا تتبـعنا حـوادث تلك الايام فإننا سنلحظ ان ممالك أوربا قـد حـاولت التعـايش مع الثورة والعـمل على ارضـائها ، وعلى الرغم من تحريض (مـاري انطوانيت) زوجـة ملك فـرنسـا وهي سليلة العائلة الملكية في النـمسـا ، إلاّ أن امبـراطور النـمسـا سـار في اتجاه التعـقل ولم يستجب لدعاوي الحـرب الا بعد توسع فرنسـا وهو توسع لـم يعد مقبـولا في حسابات موازين القوى [٩٤] .

٩٨ – إن ظهور الفكر الجمهوري والخشية من تداعياته على بلاطات أوربا كـان مـسـؤولاً بدرجـة مـا عن هذه الحـرب ، فـقـد جـعل النظام الجـمـهـوري

٩٣) ينظر في هذه التفاصيل – فيشر – تاريخ أوربا – ص ٥ – ٦٤

٩٤) ينظر في هذه التفاصيل – فيشر – تاريخ أوربا – ص ٥ – ٦٤

الصراعات الاوربية أكثر تصادماً وأصبحت القواعد الشرعية محل اختلاف شديد . . . ولكن إذا عدنا إلى هذه الفترة فإننا سنكشف انها انتجت توازنا من نمط خاص هو (التوازن البسيط) فإنقسمت أوربا إلى كتلتين وتعزز هذا التكتل بجمود التوازن . . . لكن الذي ادى إلى الحرب هو الانقسام إلى كتلتين ، فالحرب كانت واقعة حتما حتى دون ظهور النظام الجمهوري إذا عزمت فرنسا الملكية على الفتح والتوسع ، كما ان الحرب ما كان لها ان تقع لو اقتصر عمل الثوار على اصلاح نظامهم الداخلي .

٩٩ - إن التحليل نفسه ينطبق على الحرب العالمية الثانية ، وهي حرب لم تندلع بسبب ظهور النزعات الفاشية والنازية ، ولكن بسبب ميل هذه النزعات نحو الفتح والتوسعَ ، فقد ظلت الديموقراطيات الغربية في حالة تعايش مع الفاشية لعقد ونصف من الزمان ، وعملت على ارضاء هتلر بتوقيع اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٩م ومنحته نفوذا اقليميا لا يخل بتوازن القوى ، غير ان اطماع هتلر وسعيه لجني المزيد من المكاسب بغزو بولندا قد بدل بصورة جوهرية في واقع التوازن ، وذلك هو الذي دفع إلى الحرب .

أن الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية قد شهدت انقسام أوربا إلى كتلتين مكونة بذلك التوازن البسيط ، وهو توازن اتسم بالجمود الذي اجج الصراع وسد مسالك التفاهم ، وإذا افترضنا ان النازية لم تظهر للوجود ، فإن الحرب كانت واقعة لا محالة ، إذا حاولت المانيا التأثير في توازن القوى ، كما ان الحرب ما كان لها ان تقع لو اقتصر امر هتلر على النهوض ببلاده . . . فالحرب العالمية الثانية لم تقع من اجل الديموقراطية ، فلو كانت المسألة كذلك لانضم الاتحاد السوفيتي إلى دول المحور وما قبل الحلفاء التحالف معه ، لكن لأن توازن القوى هو سبب الحرب فقد انضم الراغبون في الحفاظ عليه إلى

بعضهم ضد الراغبين في الاطاحة به ، وذلك بغض النظر عن النظم والايديولوجيات التي يعتنقونها .

الاستنتاج الرئيسي...

١٠٠ - إننا من خلال التأمل في الاشكال المختلفة للتوازنات ، نقول ان المرونة والجمود هي اوصاف تلحق بالنوع الاصلي للتوازن ، فتجعل له اشكال أخرى فرعية ، فقد يكون التوازن بسيطا ومرنا ، أو بسيطاً وجامدا ، كما قد يكون مركبا ومرنا ، أو مركبا وجامدا ، لكن الحرب ترتبط بنوع التوازن لا وصفه ، فالتوازن المركب هو توازن الاستقرار بغض النظر عن وصفه ، فتوازن ما بين الحربين في مرحلته الاولى (١٩١٨ - ١٩٣٦) كان توازنا مركبا وجامدا ، اي ان انظمته كانت متعددة ومتناقضة فكريا وسياسيا ، فقد شمل دول الديموقراطيات الغربية وروسيا الشيوعية وايطاليا الفاشية ، لكن هذه الانظمة استطاعت التعايش ، وهو تعايش نجم عن طبيعة التوازن المركب ، وعلى العكس فإن توازن ما قبل الحرب العالمية إالاولى كان توازناً مرناً ، لانه يضم انظمة ليست متناقضة لكنه توازن مضطرب بحكم تحوله إلى توازن ثنائي ، ومع ان أطرافه متجانسة فكريا وسياسيا الا انها اندفعت إلى لجة الحرب .

ومع ان الحرب والسلام يرتبطان بنوع التوازن فإن المرونة والجمود يلعبان دوراً كبيراً في حركة التوازنات ، فالمرونة تساعد على التهدئة وبطء نسج التحالفات اما الجمود فإنه يدفع بالتوازن نحو سرعة الحركة والتحالف والتكتل ، فإذا كان التوازن مركبا ومرنا فإن الاستقرار يدوم لفترة طويلة ، اما إذا كان جامدا فإن الاستقرار يكون قصيرا ، لأن التناقضات الحادة تدفع نحو التحالف والتكتل وسرعة الميل بالتوازن من طبيعته المركب إلى الثنائية مما

يعجل بالحرب ، فالقاعدة والاستنتاج هي ان المرونة والجمود هما روح التوازن وسر حركيته .

١٠١ - ان التاريخ يؤكد ذلك فتوازن القوى المركب الذي نشأ عام ١٨١٥م استطاع الاستمرار نحو قرن من الزمان وذلك بسبب مرونة هذا التوازن ، فإنتماء الأطراف لحضارة واحدة ونظم سياسية واجتماعية متقاربة اضعف فرص التآمر والتحالف بين أطرافه ، مما جعل الاستقرار يدوم حتى عام ١٨٧٠م ، لكن الحرب الفرنسية الالمانية اضفت على هذا التوازن كثير من الجمود فتسارعت حركة التحالفات التي ادت إلى التكتل وتكوين التوازن الثنائي . اما توازن ما بعد الحرب العالمية الاولى فعلى الرغم من طبيعته المركب الا ان عنصر الجمود فيه هو الذي جعل الاستقرار قصيرا ، فقد نشأ هذا التوازن وكان متعددا ، لكن التناقضات بينها كانت حادة ، فكان ضمن عناصره روسيا السوفيتية ثم ايطاليا الفاشية وبعد ذلك المانيا النازية ، وهكذا فإن الطابع التعددي لم يمنع التحالف والتكتل المنبثق من روح الجمود ، فعجلت هذه الروح بتحول التوازن المتعدد إلى توازن ثنائي فكانت الحرب .

وهكذا يتضح ان المرونة والجمود يلعبان دورهما على مستوى زمن الاستقرار والسلام دون ان يؤديا بصورة مباشرة إلى الحرب أو السلام . . .

وتصبح القاعدة اذن : -

توازن مركب + مرونة = استقرار طويل الامد .

توازن مركب + جمود التوازن = أحلاف وتكتلات - توازن ثنائي - الحرب .

توازن بسيط + مرونة = استقرار قصير الامد .

توازن بسيط + جمود التوازن =حرب وشيكة .

الفصل الرابع
طـرق التـأثـيـر
في تـوازن القـوى

١٠٢ - ذكرنا فيما سبق ان توازن القوى ليس نظاما مقصودا ، فليس من سياسة الدول السعي إلى التوازن فيما بينها ، بل ان سياسة كل منها هي السعي إلى التفوق والسلطان ، وحين يصل عدد من الدول إلى حالة التوازن ، فإن اللعبة نفسها تستمر ، غير ان التوازن ، يفتقر دائما إلى عدم العدالة واليقين ، ومهما كانت حالة التكافؤ فإن التوازن ينطوي على بعض الاوضاع الظالمة ، سواء لأطرافه أو للدول الأخرى فتوازن القوى يضم غالباً نوعينَ من الدول ، النوع الأول هي الدول الأكثر سيطرة على التوازن وهذه هي الدول الراغبة في الحفاظ على الوضع القائم لانه يعمل لمصلحتها ويحقق مكاسبها ، اما النوع الثاني فهي الدول الأضعف وهذه تعمل على تغيير الوضع القائم وتعديله لمصلحتها ، فعلى الرغم من انها طرف في معادلة القوة الا ان ميزان القوى لا يميل نحوها ، وبالتالي فإنها لا تحقق منه سوى مكاسب محدودة مقارنة بالأطراف الأقوى . . .

ان مصلحة الضعفاء في توازن القوى ، تلتقي مع مصلحة أطراف أخرى خارج التوازن ، هي دول متوسطة القوة غالباً ، أو أطراف هزمت فيما مضى وخرجت من لعبة التوازن .

ان هذه الأطراف الساخطة تسعى لتغيير الوضع القائم ، وهكذا فإن التوازن يشهد دائماً نوع من انواع الصراع عن طريق اساليب معروفة تعرف باسم ،

طرق الحفاظ على توازن القوى وسنعرض في هذا الفصل الطرق التقليدية المتبعة في حفظ التوازن ، ونظراً لأهمية (حافظ الميزان) فإننا سنخصص له بصفة مستقلة الفصل القادم .

أولاً الطرق التقليدية للتأثير في توازن القوى

أ) طريقة فرق تسد . . .

١٠٣ - وهي من اشهر الطرق التقليدية في الحفاظ على توازن القوى وأقلها اخلاقية ، ومن المرجح ان مختبرها الأساسي هو الصراعات الداخلية على السلطة ، ونقلت فيما بعد إلى المستوى الدولي ، فعلى الرغم من انها ليست اخلاقية ، الا انها ظاهرة طبيعية في الحياة الدولية وقد عبر عنها ميكافيللي في كتاباته ولاسيما كتاب الأمير .

وقد لجأت إليها الدول كمحاولة منها للإبقاء على ضعف المنافسين وتمزيق صفوفهم أو الحفاظ على التمزق القائم بينهم .(٩٥)

وتقتضي سياسة فرق تسد ، زرع الشقاق بين أطراف توازن القوى ، لمنعهم من التكتل وذلك عن طريق المؤامرات والدسائس ، وهي طريقة تمارسها غالباً الدول الراغبة في الحفاظ على الوضع القائم ، ولما كان هذا الوضع يعمل لمصلحتها فإنها ستحرص على الابقاء عليه ، عن طريق منع منافسيها من التحالف ضدها لأضعاف سيطرتها ونفوذها ، وتجد هذه السياسة نجاحاً اكبر في ظل توازن القوى المتعدد الأقطاب ، ففي هذا النوع من التوازن تظهر الفرص بشكل اكبر للتحالف بين الأقطاب ، لكن التوازن البسيط يحتمل مثل هذا النوع من السياسة ايضا ببث الفرقة بين الطرف الآخر في التوازن والدول

---

٩٥) مور جنتاو - السياسة بين الأمم - ص ٢٥٣

الأخرى التي يمكن ان تنضم لهذا القطب وتزيد من فعاليته .

أما الأمثلة التاريخية لهذه السياسة فهي كثيرة وقد مارستها الدويلات الايطالية بعضها ضد بعض كما مارستها فرنسا وبريطانيا خلال القرون الماضية ، فقد مارستها فرنسا ضد دول أوربا الوسطى ، ولما كان أي نهوض الماني يشكل خطرا عليها ويحد من دورها ، فقد دأبت على زرع الشقاق بين هذه الدول لمنعها من الوحدة والتكتل ، اما بريطانيا فإنها الأشهر في استخدام هذه السياسة سواء على الصعيد الدولي أو على الصعيد الاقليمي ، وقد مارست هذه السياسة في الوطن العربي خلال القرن العشرين وما زالت تمارسها ، كما مارستها على الصعيد العالمي ضد فرنسا وروسيا والنمسا في حقب كثيرة ، وقد مارستها النمسا والمانيا ضد القوى الأوربية الأخرى ، فقد شهدت فترة (ميترنيخ) الممارسة النموذجية لهذه السياسة ، وكرر ذلك (بسمارك) بعد الوحدة الألمانية فحرض فرنسا ضد انكلترا وايطاليا وزرع الشقاق بين هذه الدول منعا لتحالفها ضده .

كما مارس الاتحاد السوفيتي السياسة نفسها ضد دول أوربا الغربية خلال الحرب الباردة لمنع توحدها ضده .

وتمارس الولايات المتحدة اليوم هذه السياسة على نطاق واسع ، بعد ان جربتها خلال الحربين العالميتين ، ومن الواضح ان هذه السياسة قد جلبت لها فوائد كثيرة ، فقد انعزلت خلال الحربين العالميتين لفترة ليست قصيرة ودفعت بالأوربيين نحو الحرب لتحقيق فوائد اقتصادية من وراء حروبهم وللاحتفاظ بقوتها العسكرية إلى الوقت المناسب ، ومازالت الولايات المتحدة تمارس هذه السياسة حتى مع شركائها الاوربيين ومع النمور الآسيوية ، وفي كل مكان

تقريبا ،فمن الثابت انها سعت لعرقلة البناء الأوربي الموحد طوال العقود الثلاثة الماضية ، وما زالت تمارس هذه السياسة مستغلة الدور البريطاني الموالي لها فهي في كل مرة تتقدم فيها أوربا إلى الأمام تحرص على استخدام بريطانيا لعرقلة الاتحاد الأوربي .

ومع ان هذه السياسة مشينة وليست اخلاقية الا انه لابد من الاعتراف بنجاحها .

(ب) التأثير في توازن القوى عن طريق الأحلاف . . .

١٠٤ - يعرف (هولستي) الأحلاف (بانها اتفاق رسمي بين دولتين أو أكثر للتعاون في قضايا تخص الأمن القومي)[٩٦] ، وتعتبر الأحلاف من اهم النشاطات في السياسة الدولية ومن اعظم فنونها ، لأنها اداة فعالة لتحقيق الأهداف السياسية ، وتهدف في نهاية المطاف إلى تقوية مواقع الأطراف المتحالفة في مواجهة أطراف أخرى ، سواء كانت دولة أو كتلة دولية ، وذلك للضغط على الطرف الآخر أو لمقاومة ضغوطه التي لايمكن مواجهتها بشكل فردي .

وتتباين وجهات نظر المحللين السياسين في دراسة الأحلاف ، فيدرسها بعضم على انها عملية سياسية متواصلة وينظر إليها آخرون على انها شكل من اشكال المنظمات الدولية وهي من وجهة نظر ثالثة فن ادارة السياسة الدولية ،لكن الغالبية تنظر إليها على انها وسيلة من وسائل الحفاظ على توازن القوى [٩٧] .

---

٩٦) د .كاظم هاشم نعمة - العلاقات الدولية - ص ٢٣٧

٩٧) المرجع السابق - الصفحة نفسها

والواقع ان الأحلاف يمكن ان تحوى كل ذلك ، ولكنها بلا شك وثيقة الصلة بنظام توازن القوى وهي نتاج له لأنها ايضا ناجمة عن فكرة الصراع الذي يؤدي إلى توازن القوى حتماً ، ولما كان المسيطر على العلاقات الدولية هو الصراع ، فإن الدول تبحث عن جميع الاساليب التي تخدم هذا الصراع ، وما من دولة مهما بلغت قوتها وشأنها بقادرة على خوض الصراع إلى نهايته بصورة فردية ، ولا شك ان من الأفضل لديها دائما البحث عن أطراف أخرى تشاركها الهموم نفسها والتحالف معها ضد أطراف أخرى تهدد مصالحها أو امنها القومي أو تحاول الحد من مكانتها الدولية ، ويكتسب التحالف اهمية قصوى في هذا الزمن بالذات الذي تصاعدت فيه حدة الصراع وازدادت أعباءه ، وبدلاً من أن تقوم الدولة بمواجهة هذه الاعباء منفردة ، فضلت الدول اليوم الاحتماء باطار جماعي أعم وذلك عن طريق الأحلاف الدولية والاقليمية .

إن ظاهرة التحالف ظاهرة طبيعية في الحياة بشكل عام وفي السياسية الدولية بشكل خاص ، ولعل أفضل تعبير عن هذه الظاهرة هو تعبير (دونالد ميشيل) القائل (عندما كان ثمة شخص واحد في العالم عرف السلام ، وعندما كان ثمة شخصان عرف الصراع ، وعندما كان ثمة ثلاثة اشخاص عرف التحالفات)[٩٨] إننا لن نفيض في هذا المؤلف في دراسة الأحلاف غير اننا نشير إلى الفروق بين الحلف وما قد يتشابه معه من صور التعاون بين الدول ، كما علينا ان نحدد طبيعة الأحلاف ومفهومها ودواعي وجودها واهدافها .

٩٨) ممدوح محمود مصطفى منصور - سياسة التحالف الدولي - مرجع سبقت الاشارة إليه ص ١٣٦

في الواقع ان فكرة الحلف تختلط مع غيرها من الافكار الأخرى فقد عرفت الدول صور كثيرة للتعاون فيما بينها وقد توصف هذه الصور خطأ على انها شكل من اشكال التحالف ، ويعتمد الوصف على نظرة المفكر نفسه ، الذي قد يتبنى معيارا واسعا أو ضيقا فإذا استخدم المعيار الواسع ، فإن معظم صور التعاون يمكن ان تندرج تحت مصطلح التحالف ، اما المعيار الضيق وهو المعيار الذي نميل إليه ، فإنه يحصر الحلف في تلك الاتفاقيات الرسمية ذات الطابع العسكري والامني .

١٠٥ - فالحلف عبارة عن اتفاق رسمي بين دول ، ذا طابع عسكري تتعهد فيه الدول المتحالفة باتخاذ تدابير مشتركة لحماية أمنها القومي .

وتأسيساً على ذلك فإن الحلف يجب ان يتم بمقتضى اتفاق رسمي يحدد التزامات الاعضاء وحقوقهم على وجه الدقة ، فلا يمكن نشوء حالة تعاون أو تنسيق بين الأطراف لمواجهة مسألة أو ظرف معين ليمكن القول انهما في حالة تحالف ، كما يجب ان يكون الحلف ذا طابع عسكري ، لأن هدفه هو حماية الأمن القومي للدول المتحالفة كما يجب ان يتم التحالف بين أطراف دولية متساوية في السيادة ، ومن الطبيعي ان بروز قطب ما وتزعمه للتحالف لايلغي الطبيعة التحالفية ، وبشرط ألا يصل ذلك إلى حد الهيمنة المطلقة التي تجعل الأطراف الأخرى في موقع التابع .

إن من المهم التمييز بين الحلف بهذا المعنى والاتفاقيات المتعلقة بالحماية والتي تنشأ بين أطراف ليست بينها أية نسبة من التكافؤ ، كما يجب التمييز بين الحلف وأطر التعاون الجماعي كالاتحادات ومنظمات الأمن الجماعي والتجمعات الدولية والاقليمية ومواثيق عدم الاعتداء فعلى الرغم من الطابع

التعاوني لمثل هذه التجمعات ألا انها لا تشكل حلفاً بالمعنى القانوني لأن هدفها الاساسي ليس أمنيا وعسكرياً [٩٩] .

دوافع التحالف...

١٠٦ – ان الهدف النهائي للتحالف هو سعي الأطراف إلى زيادة القوة ، فالقاعدة الرئيسية هي سعي الدول بصورة مستمرة للتفوق على الأطراف الأخرى ، وهناك طرق عديدة لنمو القوة ، غير ان اهم هذه الطرق هي التسلح ، لكن هذه الطريقة مكلفة للغاية فهي تتم على حساب النمو الاقتصادي ، وفضلا عن الانعكاسات الداخلية على التنمية فإن الضعف الاقتصادي ينطوي ايضا على انعكاسات دولية ، فهو يضعف مكانة الدولة خارجياً مهما كان حجم قوتها العسكرية ، ولعل ابرز مثال في الوقت الحاضر هو دور الاتحاد الروسي القوي عسكريا والضعيف اقتصاديا ، فقد تآكلت مكانة روسيا الدولية ولم تشفع لها سياسة التسلح .

ان البديل المجدي لسياسة التسلح ، هو الأحلاف الدولية التي توفر لأعضائها امنا جماعياً بتكلفة مالية أقل نسبيا . ومن الطبيعي ان الغرض من زيادة القوة هو ردع العدو المحتمل لأطراف التحالف وفرض الضغوط عليه للكف عن أية اطماع امبريالية ، فالخوف هو الذي يصنع الأحلاف وهو الذي يؤدي إلى تماسكها وقد كان (هارلود ماكميلان) رئيس الوزراء البريطاني محقاً في القول (بأن الأحلاف تتماسك بالخوف لا بالحب) فسياسات الدول لا تصنعها العواطف ولا الميول الشخصية . .

---

٩٩) ينظر في هذه التفرقة – المرجع السابق – ص ١٤٠ وما بعدها .

الأحلاف وتوازن القوى...

١٠٧ - على الرغم من كل الدوافع التي تصنع الأحلاف ألاان السبب الرئيسي لها هو اعتبارات توازن القوى ، سواء كان ذلك على الصعيد الدولي أو الاقليمي . فلما كانت سياسة الدولة هي تحقيق اكبر قدر ممكن من القوة والردع ، فإن عينها يجب ان تكون ثابتة ومراقبة لتوازن القوى ،فهو الذي يملي عليها التحالف مع هذا الطرف أو ذاك ، كما يدفعها إلى تغيير تحالفاتها بحسب وضع الميزان ودرجة ميله ، فالارتباط وثيق للغاية بين الأحلاف وتوازن القوى .

ومهما كان شكل توازن القوى ،سواء كان ثنائياً أو متعدداً أو حتى في وضع الهيمنة ، فإن الأحلاف هي الأداة الرئيسية لحركة الميزان ، بين من يرغب في الحفاظ على الوضع القائم أو الذي يرغب في تعديله ، ففي ظل الهيمنة تسعى الأطراف الاقل قوة إلى تجميع قواها في مواجهة الطرف المهيمن ، غير ان هذه الأطراف تكون حذرة للغاية خشية إثارة الطرف المهيمن ، كما ان هذا الأخير يختط لنفسه سياسة مشابهة تهدف إلى تمزيق احتمالات التحالف ضده ، ويحاول التحالف مع بعض الأطراف وإغرائهم بالانضمام إليه ومشاركتهم في بعض المزايا التي يهيئها له وضعه المتميز . اما في ظل التوازن الثنائي فإن التحالفات ، تأخذ غالباً ، شكل التحالفات الاقليمية ، بنسج شبكة من الأحلاف حول القطب الموازن للحد من حركته ولممارسة المزيد من الضغوط القريبة عليه ، وهي السياسة التي مارستها الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية في مواجهة الإتحاد السوفيتي ، حيث احاطته بجملة من الأحلاف الفرعية كحلف جنوب شرق آسيا وحلف بغداد وحلف الانزوس ، وقد حاول الاتحاد السوفيتي الرد على هذه السياسة بعقد تحالفات

ثنائية ومعاهدات صداقة مع بعض الدول الافريقية والآسيوية وفي أمريكيا اللاتينية ، لكن هذه التحالفات فشلت في معظمها بسبب ضعف بنيانها أو بسبب الضغوط الايدولوجية التي رافقتها .

١٠٨ - أن التوازن المركب يقدم صورة نموذجية أكثر لحركة التحالف ، حيث ترتفع السياسة إلى اعلى مراتب الفن ، فتعدد الأقطاب يجعل حركة التحالف أكثر مرونة ، ولكن حساباتها تكون أكثر تعقيداً ، بحكم تنوع الاتجاهات وتعددها أيضاً ، فتقتضي حركة التحالف مهارة اكبر وقدرة على إستشراف الوضع النهائي لتوازن القوى .

والواقع ان حركة التحالف تأخذ في النشاط فور تشكل توازن القوى المركب ، وتكون مستورة وليست عدائية سافرة في بداية الأمر ، وقد تأخذ الشكل التعاوني الشامل دون تركيز على المسائل العسكرية والأمنية بيد انها تبدأ في التصاعد بعد ذلك في الاتجاهين الافقي والعمودي ، اي انها تعم أطراف توازن القوى كما يبدأ الاهتمام بالقضايا الحساسة .

وتعد حركة التحالفات مؤشراً لايخطئ في تحول توازن القوى نحو التوازن الثنائي ، فبعد وقت ليس بطويل يبدأ الاصطفاف الفعلي ليأخذ التوازن شكل الكتل ، ولاينجو من التكتل الا ذلك الطرف الذي يستطيع ان يحتفظ لنفسه بدور (حافظ الميزان) كما سنرى فيما بعد .

والخلاصة هي ان سياسة الأحلاف تعتبر الاداة الرئيسية لتغيير موازين القوى سواء للمحافظة عليه أو لتعديله نحو وضع آخر ، وهي السياسة التي يستمد منها الميزان حيويته المستمرة ، وقد تطول فترة التحالف التي تسبق التكتل الثنائي أو تقصر بحسب عوامل موضوعية أخرى تلعب دورها في

سرعة الحركة مثل العداء الأيديولوجي أو التوترات الاقليمية .... الخ .

ج - التأثير في توازن القوى عن طريق سياسة التعويضات ...

١٠٩ - يقصد بالتعويضات ، احداث اجراءات اقليمية للتأثير في توازن القوى وذلك بالحاق اراض أو اقاليم لهذه الدولة أو تلك ، وهي اجراءات تهدف إلى زيادة قوة دولة ما أو أضعافها بما يتناسب مع ميزان القوى ، وقد كانت سياسة التعويضات من السياسات المألوفة في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر للحفاظ على توازن القوى عندما يضطرب بفعل توسع اقليمي لدولة ما ، وتعتبر معاهدة (اوترخت) التي اعقبت حروب الوراثة الاسبانية عام ١٧١٣م النموذج التاريخي لتطبيق سياسة التعويضات ، حيث قسمت اسبانيا بين النمسا وفرنسا للحفاظ على توازن القوى بين الدولتين ، كما ان تقسيم بولندا ثلاث مرات اعوام ١٧٧٢م ، ١٧٩٣م ، ١٧٩٥م بين النمسا وبروسيا وروسيا عبارة عن ترسيخ لهذه السياسة ، فهذه الدول التي كانت في وضع التوازن كانت تنظر إلى اي توسع لأحداها في بولندا يشكل اخلالاً بتوازن القوى ، وللحفاظ على هذا التوازن ، اتبعت سياسة التعويضات ، وأخذ بهذه السياسة أيضاً في اتفاقية فينا عام ١٨١٥م بتقليص النفوذ الفرنسي ومنح تعويضات للدول الاوربية ولاسيما النمسا ، وعلى الرغم من أن ذلك نظر إليه على انه من قبيل الحفاظ على توازن القوى الاوربي ، الا انه كان محاولة عملية لأضعاف فرنسا بعد هزيمتها والحفاظ على توازن قوى في صالح دول أوربا الوسطى .

كما استخدم مبدأ سياسة التعويضات في اواخر القرن التاسع عشر وكانت ساحته الفعلية المستعمرات الاوربية خارج القارة ولاسيما في افريقيا

وجرى معظمه على حساب الامبراطورية العثمانية .

وقد اخذت سياسة التعويضات في البداية شكل التقسيم الاقليمي ، الذي يأخذ في الحسبان مساحات الاراضي ، لكن تنامي تطبيق هذه السياسة ادى إلى ادخال عناصر مهمة أخرى كالثروات الكامنة وخصوبة الارض ونوعية السكان ، وقاد ذلك إلى استحداث آليات تنفيذ سياسة التعويضات ، وأهمها تشكيل لجان مختصة قادرة على تنفيذ هذه السياسة ويذهب معظم الكتاب[١٠٠] إلى ان سياسة التعويضات كانت من سمات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولايشيرون إلى تطبيقاتها في القرن العشرين ، لكن الواقع ان سياسة التعويضات مازالت مستمرة فقد جرى تطبيقها في اعقاب الحرب العالمية الاولى في أوربا واخضعت لها ممتلكات الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية ، وجرى تطبيقها مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية بالحاق الالزاس واللورين بفرنسا وكذلك في دول البلقان ، بل ان حركة الاستقلال في العالم الثالث كانت جزءاً من سياسة التعويضات ، فقد كانت احدى أهداف الدول الكبرى من ورائها تقليص ممتلكات القوى الكبرى التقليدية ولاسيما فرنسا ، كما ان حصول الولايات المتحدة الامريكية على عدد من القواعد ، هو بمثابة ترتيبات تهدف إلى الحفاظ على توازن القوى القائم لمصلحة الاخيرة ، كما يمكن ان ينظر إلى الترتيبات الجديدة بعد نهاية الحرب الباردة على انها جزء من هذه السياسة ، فتفكيك الإتحاد السوفيتي واعلان استقلال دوله هو بمثابة تعويض للعالم الغربي ،لأنه يكرس توازن قوى يميل لمصلحته ، وليس

---

١٠٠) انظر على سبيل المثال - مورجنتاو - السياسة بين الأمم - ص ٢٥٤ كذلك د . اسماعيل صبري مقلد - العلاقات السياسية الدولية - ص ٢٦٨ .

بعيداً عن هذه السياسة أيضاً ماجرى في البلقان باستحداث دول موالية للولايات المتحدة وكذلك امتداد حلف الناتو نحو شرق أوربا .

ان هذه الترتيبات ، اجراءات اقليمية تهدف إلى أضعاف الدور الروسي وتعزيز التفوق الامريكي في اي توازن قد ينشأ فيما بعد .

والواقع ان سياسة التعويضات ، كانت دائماً الخاتمة لكل الحروب ، حيث يدفع الطرف المهزوم حسابات الحرب بينما يضيف المنتصر المزيد من المكاسب إلى رصيده .

ومع ان سياسة التعويضات فعالة في الحفاظ على توازن الاقطاب المسيطرة ، الا انها ليست اخلاقية ولاعادلة وذلك هو مايجعلها تدفع نحو المزيد من الحروب بهدف تصحيح الاوضاع الناجمة عنها .

د - التأثير في توازن القوى عن طريق سياسة التسلح . . .

١١٠ - تعتبر سياسة التسلح من أهم سياسات الحفاظ على توازن القوى ومحاولة تعديله ، فلما كانت العلاقات الدولية قائمة على القوة ، فإن الدول تسعى إلى التسلح وتتسابق عليه لأنه مهما كانت قيمة العوامل الأخرى ، فإن الأمن القومي يرتبط بمدى القوة العسكرية ، والواقع ان السياسات الأخرى للحفاظ على توازن القوى تظل ثانوية مقارنة بسياسة التسلح ، سواء كان ذلك على الصعيد الدولي أو الاقليمي ، فالتحالفات مهما كانت قيمتها تظل هشة وغير مضمونة ، ولاقيمة للدبلوماسية إذا لم تسندها القوة ، اما سياسة التعويضات فإنها لاتستطيع احداث اثر يذكر دون قوة عسكرية تحميها وتعززها .

وفي كل العصور بما في ذلك عصور السلام والاستقرار تسابقت الدول

على التسلح وجعلته محور سياستها سواء اعلنت عن ذلك أو مارسته بطريقة الموارية .

ولكي تعطي الدول دبلوماسيتها قوة حقيقية فإنها كثيراً ما تضع في ذهن اعدائها مقدار قوتها العسكرية ، وقد تبالغ في تصوير هذه القوة لبث الرعب فيهم وردعهم عن التفكير في محاربتها ، وذلك مسلك سلكته الولايات المتحدة الامريكية في نهاية الحرب العالمية الثانية باطلاق قنابلها النووية على اليابان ، كما يمارسه الكيان الصهيوني ضد العرب ، وقد اعلنت فرنسا في السنوات الأخيرة عن تجاربها النووية للفت الانظار لقدرتها العسكرية كمقدمة لممارسة دور سياسي بارز على المستوى العالمي ، وقد مارسته الهند هذا العام (١٩٩٨م) وحرصت على ابراز حدث تفجيرها النووي وحصولها بشكل علني على قنبلتها النووية وذلك لمنح سياستها الخارجية القوة اللازمة في مواجهة جيرانها والقوى الكبرى الأخرى ، وذلك ما جعل الباكستان ترد بالمثل والقيام بتفجيراتها النووية بشكل سريع للإعلان عن قوتها الرادعة .

١١١ - أن سياسة التسلح من أهم اساليب الحفاظ على توازن القوى ، وقد تأخذ سياسة التسلح وجهاً عكسياً عن طريق الحد من التسلح ونزع الاسلحة ، وتجري هذه السياسة بين القوى الكبرى عن طريق الحد من التسلح وضبطه عند حالة من التعادل بين الأطراف ، ولكن ثمة صعوبات عملية معقدة تحول دون ذلك ، إذ انه من العسير جداً الاحتفاظ بوضع متعادل بين دولتين ، فهذا التعادل يصعب حسابه لانه يرتبط بالتطورات التقنية والاوضاع الجيوبوليتيكية المعقدة ، ولم تسجل سياسة الحد من التسلح نجاحاً يذكر الا في اوقات قليلة وعلى مستوى اسلحة بعينها ، كالسلاح البحري في الايام الغابرة .

ويمكن اعتبار اتفاقيات (سالت) شكلاً من اشكال محاولات الحفاظ على توازن القوى بين الولايات المتحدة وروسيا ، ولكن هذه الاتفاقيات نفسها تعثرت لاسباب عملية وسياسية عديدة .

اما سياسة نزع الأسلحة فهي تهدف إلى الحفاظ على توازن القوى لمصلحة الأطراف المسيطرة ، وقد مورست ضد المانيا واليابان عقب إنتهاء الحرب العالمية الثانية ، فقيد الانفاق العسكري في هذين البلدين وحدد حجم قوتيهما العسكريتين ونوعيهما . . . كما مورست هذه السياسة خلال الحرب الباردة وفرضت الدول الكبرى مبدأ منع انتشار الأسلحة النووية ، ومع ان الهدف اخلاقي في مظهره ، الا انه غير ذلك في مضمونه ، فهو مبدأ يهدف إلى احتفاظ الدول الأقطاب بتفوقها ومنع الآخرين من مزايا الحصول على هذا السلاح ، وما زالت هذه السياسة تتواصل مع انهيار الاتحاد السوفيتي وأصبحت جزءاً لايتجزأ من سياسة الغرب ، تجاه الآخرين ، وتمارس مختلف الضغوط اليوم لنزع اسلحة الدمار الشامل فوضعت الاتفاقيات واكرهت الدول الصغيرة على توقيعها ، واجبرت دول كثيرة على اتخاذ اجراءات صارمة لمنع تصدير التكنولوجيا العسكرية إلى خارج العالم الغربي وأصبحت على الاجمال سياسة نزع الأسلحة لها الأولوية في السياسة الامريكية .

ومع كل ذلك لم تصل هذه السياسات إلى النتيجة المرغوبة ، فقد استطاعت بعض الدول الافلات والوصول إلى إنجازات مهمة ، أما نتيجة لغض الطرف عنها لاسباب سياسية أو بسبب ضغوط وطنية تمارس على الدول الكبرى نفسها للتغاضي عن حالات معينة في ظروف سياسية مواتية ، أو بسبب التطورات التقنية التي حققتها بعض البلدان اعتماداً على ذاتها .

ان محاولات عديدة جرت ومازالت جارية لتنظيم التسلح ، بما في ذلك اجراءات قانونية على مستوى الأمم المتحدة ، غير ان سياسة التسلح ستظل جزءاً مهماً في العلاقات الدولية ، ولانظن أنها ستتوقف في اي وقت قريب ، لانها متلازمة مع توازن القوى ومرتبطة به .

ان البديل الوحيد لارتباط التسلح بتوازن القوى هو وجود سلطة دولية مهمتها الاشراف على التسلح والحد منه ، لكن مثل هذه السلطة لايمكن الاجماع عليها من قبل كل الدول[١٠١] ، وعلى الرغم من اهتمام الأمم المتحدة بمسألة التسلح ، الا ان الهيئة الدولية لم تستطع الوصول إلى هذا الهدف ، لانها بحكم الضغوط الشديدة التي تمارس عليها ، لم تتمكن من تبني معايير موضوعية لنزع السلاح ، وانحرفت نحو التطبيق الانتقائي لهذه السياسة ، فبينما نراها صارمة تجاه دول مثل العراق وايران وليبيا وباكستان ، فإنها ضعيفة جداً في مواجهة دول مثل الكيان الصهيوني ، ولاشك ان مثل هذه المواقف المزدوجة ستعوق في المستقبل قضايا نزع السلاح .

هـ - التأثير في توازن القوى عن طريق المناطق العازلة . . .

١١٢ - قبل ظهور التطور التقني الهائل كانت فكرة ايجاد مناطق عازلة من اهم السياسات في الحفاظ على توازن القوى بين الدول الكبيرة ، ومقتضى هذه السياسة هو وضع دولة محايدة بين القوتين الكبيرتين لمنع الاحتكاك المباشر بينهما ، وغالباً ما تكون هذه الدولة ضعيفة لاتشكل خطراً على اي من الدولتين ، في حالة المواجهة المباشرة .

ان هذا الوضع مرغوب فيه من الدولة العازلة ، لأنه يحفظ استقلالها في

---

١٠١) د . كاظم هاشم نعمة - العلاقات الدولية - ص ٢٣٦ .

مواجه قوتين كبيرتين ، غير ان هذه الميزة تغدو مكلفة جداً لهذه الدولة عند حدوث توتر كبير بين القوتين لأنها تتحول إلى هدف مباشر لكلاهما ، وذلك ما حدث لبولندا مراراً إذ وضعت كمنطقة عازلة بين روسيا وبروسيا ، وقد تكرر ذلك مع هولندا وبلجيكا ، وهي دول عازلة بين فرنسا والمانيا ، فقد دفعت هذه الدول ثمن وضعها الجغرافي وخضعت اما للتقسيم أو الاحتلال مرات عدة .

ان فكرة المناطق العازلة قد استخدمتها القوى الكبرى خارج القارة ، وقد كانت ليبيا خلال الاحتلال الايطالي منطقة عازلة بين المستعمرات الفرنسية في المغرب العربي والمستعمرات الانجليزية في المشرق ، فقد شجعت بريطانيا ايطاليا على احتلال ليبيا بعد ان احتلت فرنسا تونس والجزائر .

وما زالت فكرة المناطق العازلة معروفة على الصعيد الاقليمي أكثر منَها على الصعيد الدولي ، فعلى المستوى الدولي اضعف التطور التقني هذه الفكرة ، الا إذا اخذت بمعنى اوسع ، فقد اعتبرت أوربا الغربية في مجملها بعد الحرب العالمية الثانية ، منطقة عازلة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، لكن ذلك في نظرنا مبالغ فيه ، اما على الصعيد الاقليمي فمن المؤسف حقاً ان منطقتنا العربية تعتبر مختبر تجربتها ، فقد صنعت دول برمتها لتحقيق فكرة المنطقة العازلة ، ومازالت هناك مخططات دولية لتنفيذها في بعض الاقطار العربية .

اما الفكرة الجديدة فهي سياسة المناطق الآمنة ، ومضمونها اقتطاع جزء من اقليم الدولة والسيطرة عليه أو نزع السلاح فيه ، أو وضعه تحت اشراف سلطة دولية وذلك لمنع الاحتكاك بين دولتين متصارعتين ، ومن امثلته مايجري في جنوب لبنان وبعض الاراضي السورية وتجريد شبه جزيرة سيناء

من السلاح ، وما يجري في شمال العراق .

و - التأثير في توازن القوى عن طريق سياسة التدخل . . .

١١٣ - التدخل هو أكثر الاساليب شيوعاً للحفاظ على توازن القوى أو تغييره ، وتعتمد سياسة التدخل على الاوضاع الداخلية أو الاقليمية ، وهي أما أن تهدف إلى الاحتفاظ باوضاع سياسية داخلية أو محاولة تغييرها ، لأن موازيين القوى ترتبط بهذه الاوضاع ، فالنظام السياسي الموالي لقطب ما سيعمل هذا القطب على دعمه وتثبيت استقراره في مواجهة القوى الداخلية والخارجية ولكنه سيخضع لعملية معاكسة من قبل القطب الآخر فيصبح ميداناً للتنافس بين القطبين ويجري التدخل في شؤونه الداخلية .

وقد تأخذ سياسة التدخل ، الشكل الدفاعي حيث يقوم القطب بحماية النظام والعمل على تفادى إنهياره ووقوعه في قبضة القوى الموالية للقطب الآخر أو تحت سيطرته المباشرة وتثبيته بالقوة إذا استدعى الأمر ذلك ، وقد تأخذ سياسة التدخل شكلاً هجومياً بالعمل المباشر على اسقاط النظام وتغييره كأداة لتبديل توازن القوى في اتجاه أكثر تلاؤماً مع مصالح الدولة التي تمارس هذا التدخل[١٠٢] .

وهناك مئات من الامثلة على حالات التدخل بمختلف اشكالها ، ولعل من ابرزها التدخل السوفيتي في بولندا والمجر عام ١٩٥٦م وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨م .

ان هذين التدخلين يشكلان النموذج الواضح للتدخل الهادف للحفاظ على توازن القوى ، فقد شهدت البلدان ثورتان كان يمكن ان يؤديا إلى تبديل

١٠٢) المرجع السابق .

جوهري في توازن القوى لو وقف الاتحاد السوفيتي مكتوف الايدي . . . وذلك ماحدث بعد ذلك في بولندا حين استطاعت نقابة التضامن ، وهي موالية للغرب ، من الوصول إلى السلطة فاحدثت تغييراً لابأس به في موازين القوى وألحقت ضرراً فادحاً بالاتحاد السوفيتي ، وكان ذلك مقدمة واضحة لاختلال توازن القوى وميله عنه ، وهو التغيير الذي شكل سلسلة من التبدلات في أوربا الشرقية ، ادت في نهاية المطاف إلى تفكيك كتلة حلف وارسو والاتحاد السوفيتي نفسه .

ومن المؤكد انه لو وجدت قيادة قوية في الاتحاد السوفيتي لما سمحت بهذا التغيير حتى لو ادى ذلك للتدخل والمواجهة .

وتعد الولايات المتحدة في الوقت الحاضر أكثر الدول تدخلاً في الشؤون الداخلية للحفاظ على توازن القوى في مصلحتها ، وهناك مئات من الامثلة على هذا التدخل في جميع قارات العالم . غير ان ابرز الامثلة على تدخلها بشكل هجومي سافر ، هو تدخلها في كوبا وتشيلي وبنما وغواتيمالا والدومنيكان وغير ذلك من دول أمريكيا اللاتينية .

ويمكن اعتبار تدخل الولايات المتحدة في كوبا وتشيلي من الحالات النموذجية للتدخل الهادف للحفاظ على توازن القوى .

ففي كوبا التي لاتبعد عن الولايات المتحدة سوى ٩٠ ميلاً أعتبرت الولايات المتحدة وجود نظام شيوعي موالي للإتحاد السوفيتي يمثل إخلالاً جسيماً بتوازن القوى لمصلحة هذا الأخير اما وضع الصواريخ النووية السوفيتية في هذه البلاد فإنه يعد انقلاباً قاتلاً لايمكن احتماله ، ولذلك فقد دأبت الولايات المتحدة على التدخل في الشؤون الداخلية في كوبا ، محاولة زعزعة

استقرارها اما ازمة الصواريخ فقد ولدت تدخلاً عنيفاً ادى إلى حصار كوبا ومواجهة الاتحاد السوفيتي نفسه .

ومثلما فعلت في كوبا فإنها كررت ذلك في تشيلي ، لكنها فعلته هذه المرة ضد حكومة ديموقراطية منتخبة بزعامة (سلفادور اللندي) ، فعلى الرغم من ان الولايات المتحدة تزعم انها تحترم الحكومات المنتخبة ديموقراطياً مهما كان لون هذه الحكومة ، الا انها لم تستطع احتمال فوز حكومة شيوعية في تشيلي وتدخلت لاسقاطها عام ١٩٧٤م بدعم وتمويل (الجنرال بينوشت) وهو دكتاتور فاشي ، لأن ذلك يلائم مصلحتها من زاوية الحفاظ على توازن القوى ، وقد بررت الولايات المتحدة اطاحتها (باللندى) بالقول ان الانتخابات انتجت حكومة ليست مسؤولة .

١١٤ - إن التدخل غير مقبول في العلاقات الدولية ، وقد دأبت الدول الكبرى على تاكيد احترامها للأوضاع الداخلية وشجبها لاي تدخل في هذه الشؤون ، لكن عندما يتعلق الامر بمصالحها الأمنية العليا وفي مقدمة ذلك الاخلال بتوازن القوى ، فإنها لاتتردد في التدخل لحفظ الاوضاع بما يلائم مصالحها ، والواقع ان المجتمع الدولي وان كان لايقبل علناً مسألة التدخل ، الا انه يتقبل نتائجه في آخر المطاف ، فلايتجاوز الامر حدود التنديد والشجب ، أما على مستوى القوى الكبرى فإن هذه القوى تعرف معاني اي تدخل لانها تمارسه ، وهي تقبل من الطرف الآخر التدخل إذا ادركت ان حالة ما تشكل تهديداً للتوازن يضر بالطرف المتدخل ، وهي تقبل بصورة خاصة تدخل الأطراف في مناطق نفوذها التقليدية ، ولكنها لاتقبل بسهولة التدخل في مناطق نفوذ الآخرين أو في مناطق الصراع السلمي ، ومهما كان الوضع فإن تدخل الاتحاد السوفيتي في المجر وتشيكوسلوفاكيا كان مقبولاً من طرف الغرب

على الرغم من المعارضة العلنية كما ان تدخل أمريكيا في دول أمريكيا اللاتينية لم يواجه الا بالامتعاض ، لأن كلا الطرفين يعرف اهمية مناطق التدخل بالنسبة للطرف الآخر .

اما حالة التدخل السوفيتي في افغانستان فإنها تمثل النموذج المختلف وغير المقبول لأن أفغانستان ليست ضمن مناطق النفوذ المعترف بها لاي من الطرفين ، فهي منطقة رمادية متروكة للصراع ، وقد اعتبر التدخل السوفيتي فيها عن طريق تمكين الشيوعين من السيطرة عليها ، غير مقبول ، فواجهه الغرب بتدخل مماثل مستغلاً المعارضة الاسلامية ضد التوجهات الشيوعية ، لأن السيطرة الشيوعية ستقلب موازين القوى لصالح الاتحاد السوفيتي .

ان التدخل السوفيتي في افغانستان لم ينطو على اي حكمة سياسية ، فقد اراد الاتحاد السوفيتي قلب موازين القوى لمصلحته ، لكنه بهذا التدخل اعطى الولايات المتحدة الفرصة للتدخل السافر أيضاً ، وقد تمكنت من تحقيق اغراضها وقلب ميزان القوى لمصلحتها .

ز - التأثير في ميزان القوى عن طريق الحرب . . .

١١٥ - لايتحدث الباحثون في العلاقات الدولية عن الحرب كاداة لحفظ توازن القوى أو محاولة تعديله ، وذلك لأن الحرب مسألة أخرى ، فالطرق المتبعة لحفظ ميزان القوى تتسم بالطابع السلمي مهما كانت درجة التوتر التي تحدثها ، فهي وسائل دبلوماسية ، اما الحرب فإنها توقف العمل السلمي من اجل الحفاظ على التوازن .

ان الحرب في الواقع هي السياسة النهائية للحفاظ على توازن القوى أو تعديله ، لكنها بسبب خطورتها لا يتم اللجوء إليها ألاً بعد استنفاذ عمل

الوسائل السلمية ، وفي كثير من الاحيان تكون السياسات الأخرى للحفاظ على توازن القوى مجرد مقدمة للحرب ، فالعمل الدبلوماسي أو التحالفات أو التدخلات بمختلف اشكالها هي مجرد محاولات لمنع الانزلاق نحو اعمال العنف ، لكن توازن القوى ، كما اكدنا مراراً ، يتصف دائماً بعدم الكفاية والعدالة ، لذا يكون توازناً بين طرفين احدهما ساخط والآخر راغب في الحفاظ على الوضع القائم ، ومن الطبيعي ان الأول سيعمل على تغييره بينما سيقاوم الطرف الثاني محاولات التغيير وستكون الخاتمة الحتمية لهذا التناقض هي الحرب ، فمن النادر ان يتنازل الطرف المسيطر على شئ جوهري ومن النادر أيضاً ان يذعن الطرف المغبون إلى ما لانهاية ، وحتى إذا افترضنا ان الراغبين في الحفاظ على الوضع القائم قدموا بعض التنازلات واتبعوا سياسة تهدئة تقوم على القبول ببعض مطالب الأطراف الساخطة فإن ذلك لن يكفي ، لأن هذا الأخير سيواصل سياسة القوة في محاولة لتعديل الميزان ، وإذا نجح في التعديل فإنه سيسعى إلى التفوق وهكذا فإن الحرب ستندلع لامحالة ، وقد يقوم بها الطرف المسيطر في صورة حرب وقائية تهدف إلى اجهاض تغيير الوضع القائم وقد تندلع الحرب بعد الوصول إلى مرحلة من التكافؤ النسبي .

وخلاصة الأمر هي ان الحرب وسيلة نهائية للحفاظ على التوازن أو تغييره ، لكنها تمر بمراحلها الضرورية ذات العلاقة بالتوازن .

وسواء انتصر هذه الطرف أم ذاك فإن الحرب تحدث اثرها الجوهري في توازن القوى ، وتؤدي عملياً إلى انهياره وتشكل توازن قوى جديد .

ثانياً ـ طرق جديدة للتأثير في توازن القوى

١١٦ - عالجنا فيما سبق الوسائل التقليدية للحفاظ على توازن القوى كما اعتاد على معالجتها الباحثون في العلاقات الدولية اعتماداً على المخطط

الذي وضعه (مورجنتاو) في شرح هذه الاساليب والسياسات ، التي لاتكفي في رأينا لاستيعاب الوسائل كافة ، إذ ان القوى الرئيسية لتوازن القوى تستخدم اساليب عدة للتأثير في الوضع الدولي بقصد زيادة رصيدها وزعزعة استقرار المعسكر الآخر وتماسكه ، ويمكن ان نعدد العشرات من صور السياسات والممارسات الهادفة للتأثير في الاوضاع الدولية ، لكن جميع هذه الصور يمكن ردها إلى اسلوبين اساسيين هما الردع والاقناع .

أ - اسلوب الاقناع ...

١١٧ - يقوم اسلوب الاقناع على نهج الوسائل الدبلوماسية بقصد التأثير في الوضع الدولي ، وذلك بالعمل على الحفاظ على تماسك الحلف ومحاولة توسيعه باستقطاب قوى جديدة ، فمهما كان شكل توازن القوى فإنه يتمحور حول قطبين رئيسيين يتزعمان القيادة في كل جانب ، ويسعى القطب المسيطر على زيادة حلفائه ويستعمل اساليب عدة لتشجيع من هم خارج التوازن إلى الانضمام إليه ، محاولاً في الوقت نفسه منعهم من الانضمام إلى خصمه ، ومن اهم هذه الاساليب ما يأتي : -

١ - سياسة الحماية . . .

وهي تعني محاولة فرض حماية القطب الدولي على عدد من الدول المتوسطة أو الصغيرة واغرائها باللجوء إليه ، أما خوفاً من امبريالية القطب الثاني أو من قوة اقليمية ذات أهداف توسعية ، ولنجاح هذه السياسة كان من واجب الدولة القطب خلق حالة نفسية لدى القوى المتوسطة والصغيرة ، تجعلها تعيش حالة خوف من الاعتداء عليها ، وهي تبنى سياستها غالباً على أهداف الخصم وسلوكه واخطائه مما يبرر هذا الخوف من الناحية الواقعية ، وتبالغ الدول

الأقطاب في تصوير الخطر ، وقد تخلق الكثير من الأوهام لدى الدول الصغيرة ، مما يجعلها تستجيب لفكرة الحماية بل انها قد تطلبها بنفسها ، إذا وصلت إلى حالة عالية من الذعر ، بل أن الدول الصغيرة قد تدفع بإرادتها تكاليف هذه الحماية دون ادراك المزايا الاستراتيجية التي تمنحها للدولة القطب .

ويمكن اعتبار فترة مابعد الحرب العالمية الثانية ، مثلاً واضحاً لسياسة الحماية التي فرضتها الولايات المتحدة على دول غرب أوربا ، نتيجة لحالة الخوف التي انتابتها من الخطر السوفيتي ، ذلك الخطر الذي صورته لها الولايات المتحدة وبالغت فيه عن طريق اجهزتها السياسية والاعلامية ، فقد صورت وسائل الدعاية الامريكية الاتحاد السوفيتي على أنه آلة جهنمية لاترحم ، مسلحة بعقيدة شيوعية زاحفة وساسة غير مسؤولين ، بيدهم قدرة نووية هائلة وجيوش متحفزة للانطلاق من جديد ، وهو ما حدى بدول أوربا الغربية إلى القبول بمظلة الحماية النووية الأمريكية ، فوضعت نفسها تحت امرة الولايات المتحدة وقدمت لها ماطلبت من تسهيلات وقواعد ، وهي السياسة نفسها التي أتبعت مع الكثير من الدول المجاورة للاتحاد السوفيتي والقريبة منه كتركيا وايران وكوريا والفلبين . . . . . . الخ .

ومن المحتمل ان الاتحاد السوفيتي نفسه ساعد على خلق حالة الرعب ، بعدم اتباع سياسات مرنة مع حلفائه في أوربا الشرقية ، حيث فرض عليهم نموذج الحياة السوفيتي بكل اخطائه وصرامته .

اما على الصعيد الأقليمي فقد استخدمت الولايات المتحدة هذه السياسة في مختلف بقاع العالم ، وتجسد المنطقة العربية احد مختبراتها الرئيسية ، حيث سعت منذ الخمسينيات إلى بسط حمايتها على عدد من الدول العربية اعتماداً على الخطرين الشيوعي والقومي ، كما انها تمارس الآن على بعض

الاقطار العربية اعتماداً على الخطرين الايراني والعراقي .

٢ - سياسة المكافأة والاغراء

وقد تستخدم الدولة القطب (سياسة المكافأة) ، بالتلويح بمزايا اقتصادية أو سياسية أو عسكرية لمن يقبل الانضمام إليها والتحالف معها ، وقد اتقنت الولايات المتحدة أيضاً هذه السياسة ، ويمكن اعتبار مشروع (مارشال) احد النماذج البارزة لسياسة المكافأة والاغراء ، فدول أوربا الغربية خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي منهوكة اقتصادياً ، لذا كان شكل مشروع (مارشال) اكبر اغراء لهذه البلدان للإنضمام إلى السياسة الامريكية ، وما زالت الولايات المتحدة تتبع هذا الاسلوب الناجح بعد نهاية الحرب الباردة ، فهو الأسلوب الرئيسي المعتمد تجاه بلدان أوربا الشرقية ، حيث اعتمد سياسة المساعدات الاقتصادية للبلدان التي تقبل الانخراط في المنظومة الامريكية ،والبدء بعملية اصلاحات سياسية من المؤكد أنها ستقود فئات بعينها للسيطرة على السلطة السياسية وهي فئات ستكون موالية للولايات المتحدة ومتحالفة معها .

ان نجاح هذه السياسة فيما مضى قد دفع بالولايات المتحدة إلى ابتكار مؤسسات وآليات جديدة لجعل هذه السياسة غير مكلفة لها ولايقع عبء تنفيذها على اقتصادها الوطني ، فقد استحدثت المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي ، وجعلتهما أداتين دوليتين فعالتين لتنفيذ هذه السياسة ، محققة بذلك مزايا مالية وسياسية مهمة ، فضلاً عن عدم التحمل بالأعباء ، فإنها لاتظهر بصورة مباشرة كدولة ساعية للحماية وبسط النفوذ ، وهي بذلك ترفع الحرج عن الكثير من النظم ازاء شعوبها .

كما ابتكرت في السنوات الأخيرة فكرة (الدول المانحة) ، وهي دول

تتعهد بمواجهة المعضلات الاقتصادية الناجمة عن الاوضاع الاقليمية ، وقد استخدمت هذه السياسة كجزء من الحل لمشاكل دول يوغسلافيا السابقة ومشكلة الشرق الاوسط .

٣ - سياسة الاثناء . . .

والمقصود بها اثناء دولة ما ، تحاول الاخلال بتوازن القوى ، عن سياستها بالوسائل الدبلوماسية ، اما عن طريق اقناعها بعدم جدوى مواصلة هذه السياسة ، أو بالاستجابة إلى بعض مطالبها التي لا تلحق ضرراً ملحوظاً بتوازن القوى ، أو بغض الطرف عن بعض ممارساتها إذا كانت محدودة التأثير .

وقد مارست الدول الكبرى هذه السياسة على الدوام ، ومن ابرز الامثلة التاريخية عليها ، سياسة التهدئة التي مارستها بريطانيا وفرنسا مع هتلر بتوقيع اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٩م ، إذ استجابت هذه القوى إلى مطالبه في اقليم السوديت وتسامحت في ضمه إلى المانيا في محاولة لبسط السلام دون اضرار بتوازن القوى الدولي .

لكن سياسة الاثناء غالباً ما تؤول إلى الفشل ولاتحدث التهدئة المطلوبة الا لوقت قصير ، وذلك لعدم كفايتها ، لأنها لاترضي الطرف الساخط على الاوضاع الدولية ولاتنصفه ، بل أنها كثيراً ما تؤدي إلى نتائج معاكسة .

اذ انها تنطوي على بعض الاغراء للطرف الساخط بمواصلة سياسة الابتزاز ، اعتقاداً منه بأن الأطراف الأخرى باحثة عن السلام باي ثمن ، وذلك هو ماجرى بعد اتفاقية ميونيخ ، حيث فسر هتلر محاولة بريطانيا وفرنسا بطريقة خاطئة فإندفع نحو اتجاهات مضرة اضراراً جسيماً بتوازن القوى وهو الامر الذي ادى إلى الحرب العالمية الثانية .

٤ - سياسة المؤتمرات . . .

سياسة المؤتمرات اجراء جماعي تقوم به القوى الرئيسية في النظام الدولي بقصد تسوية المنازعات وتوزيع القوة والنفوذ فيما بينها والاتفاق على المبادئ وقواعد السلوك التي تحفظ الاستقرار الدولي .

وتتبع هذه السياسة غالباً عقب انتهاء الحرب لرسم صورة عالم المستقبل ، ذلك ان الحروب الواسعة تترك آثاراً اقليمية بعيدة ، كما تورث الكثير من المشاكل بين المتحالفين انفسهم ، فأثناء الحرب يكون التركيز الاساسي على هزيمة العدو ، وما ان يتحقق ذلك حتى تظهر على الارض اوضاع معقدة ناشئة عن مواقع الجيوش وغنائم النصر ، وهي اوضاع قد تجر المتحالفين إلى المواجهة ، ولذلك فقد ابتدعت سياسة المؤتمرات لترتيب اوضاع مابعد الحرب .

ويعد مؤتمر فينا عام ١٨١٥م بداية فعلية لتطبيق سياسة المؤتمرات ، حيث رسم هذا المؤتمر شكل عالم ما بعد نابليون ، واقتسمت فيه الدول المنتصرة مناطق النفوذ ، وتلاه مؤتمر اكس لاشابيل عام ١٨١٨م ، وهكذا عقب كل الحروب الكبيرة ، ويعد مؤتمر فرساي الذي اعقب الحرب العالمية الاولى استمراراً لسياسة المؤتمرات حيث اقتسمت فيه الدول المنتصرة مناطق النفوذ واتفق على قواعد السلوك الدولي الجديد ممثلاً في ميثاق عصبة الأمم ، كما تعد اجتماعات يالطا وبوتسدام اثناء الحرب العالمية الثانية النموذج الأحدث لسياسة المؤتمرات وقد نجم عنها التنظيم الدولي الجديد وميثاق هيئة الأمم المتحدة ، قواعد مكتوبة للسلوك الدولي والشرعية الدولية .

وعقب نهاية الحرب الباردة انطلقت سلسلة من المؤتمرات بقصد تسوية المشاكل والمنازعات الدولية والاقليمية ، وتندرج تحت سياسة المؤتمرات

الاجتماعات التي تعقدها مجموعة الدول الثماني الصناعية الكبرى ومؤتمر الأمن والتعاون الاوربي ، فهذه الاشكال من المؤتمرات ، وان كانت تتوجه نحو المشاكل الاقتصادية والأمنية ، الا انها تضع قواعد سلوك جديد وتنحو باستمرار نحواً سياسياً ، كما عقدت سلسلة من المؤتمرات المتخصصة لمواجهة المشاكل المستحدثة ، التي يمكن ان تقود للنزاع والتوتر إذا لم تتم مواجهتها مبكراً ، مثل مؤتمر السكان ومؤتمر الأرض والمؤتمرات الاقتصادية المتتابعة ، والمؤتمرات المخصصة لمنع انتشار اسلحة الدمار الشامل ، وينجم عن هذه المؤتمرات قواعد سلوك جديدة توصف بانها ارساء لقواعد (الشرعية الدولية) ، وهي قواعد ليست عادلة دائماً وانما هي كما يقول هنري كيسنجر (اتفاق دولي حول طبيعة الترتيبات والقواعد العملية التي يتعين ان تحكم سلوك الدول في المجال الدولي وفي علاقاتها المتبادلة ، فضلاً عن الأهداف التي تعتبر مشروعة - من وجهة نظر اللاعبين الرئيسيين[١٠٣] وكذلك الوسائل والسياسات المسموح بها تحقيقاً لهذه الأهداف .

تلك هي أدوات التأثير في ميزان القوى الدولي والتي تقوم على الاقناع أو مايمكن تسميتة بالوسائل الدبلوماسية الدفاعية ، فهي جميعها تهدف إلى الحفاظ على الوضع القائم أو تقنن اساليب التغيير بحيث يتم الصراع في اطار منظم يوفر شكل من اشكال الاستقرار النسبي خلال مرحلة تاريخية محددة .

ب ـ اسلوب الردع ...

١١٨ - إذا كان اسلوب الاقناع يمثل الدبلوماسية الدفاعية فإن اسلوب الردع ينطوي على جانب هجومي ، اي ان الطرف الذي يحاول التأثير في توازن

---

١٠٣) د . ممدوح محمود مصطفى منصور - سياسات التحالف الدولي - ص ١٠٤ أيضاً هنري كيسنجر - درب السلام الصعب ص ١٩

القوى يتدخل بطرق عدائية مباشرة ضد الطرف المطلوب ردعه ، ولايمارس هذا الاسلوب غالباً الا تجاه الدول من المعسكر الآخر أو المرشحين للانضمام إليه أو المترددين في الإنحياز إلى طرف ما ، وذلك كله بهدف زعزعة التماسك والاستقرار في صفوف الخصم ، ومع ان هذا الاسلوب ينطوي على بعض العنف والارهاب ، ولكنه يتم داخل اطار منظم وضمن قواعد السلوك التي لاتمس بالتوازن بشكل خطير ولكنها تؤثر فيه على المدى الطويل .

وهناك عشرات من الأساليب والسياسات التي تندرج تحت مفهوم الردع ، ولكننا لن نعرض الا أكثر الصور شيوعاً ومن اهمها : -

١ -- سياسة العقوبات...

وهي من أكثر صور الردع شيوعاً ، وتستخدم لإستقطاب القوى المتوسطة والصغيرة أو لمعاقبتها على الانحياز لسياسة الخصم ، وهناك صور متعددة للعقوبات ذات طابع سياسي أو عسكري أو اعلامي ، غير ان أكثرها تأثيراً هو اسلوب العقوبات الاقتصادية ، وهو الاسلوب الذي تنتهجه الولايات المتحدة الامريكية منذ بداية الحرب الباردة ، فقد فرضته على دول أوربا الشرقية والصين بقصد أضعافها وزعزعة استقرارها ، كما استخدمته ضد مصر عن طريق سحب تمويل السد العالي بقصد حرمان الاتحاد السوفيتي من نصير محتمل في منطقة الشرق الاوسط ، ومازالت تستخدمه ضد الدول المعارضة لسياستها كليبيا وايران وكوبا وكوريا والعراق والسودان ، ولتضفي الدولة القطب على سياسة العقوبات شرعيتها وتجعلها أكثر فعالية ، فإنها تسعى لتوسيع اطارها بتحويلها إلى عقوبات دولية ، فتستخدم قوتها ونفوذها في المنظمات الدولية ، لتفرض بواسطتها ماتشاء من عقوبات على انها لاتتردد في فرضها بشكل فردي أو جماعي مع حلفائها إذا فشلت جهودها الدولية . . .

ولكي تكون سياسة العقوبات فعالة فإنها غالباً ماتكون مسبوقة بالانذار للدولة التي ستوقع عليها ، لا ان توقع بشكل مفاجئ أو غير متوقع كاجراء انتقامي ضد بعض التصرفات الصادرة عن الدولة المعاقبة(١٠٤).

ان الانذار الذي يسبق العقوبة هو الاجراء المؤثر في سلوك الخصم ، لانه يجبره على اعادة حساباته واحتمال تغيير موقفه ، ويعتمد ذلك على نوع العقوبة واهمية المجال بالنسبة للدولة المعاقبة ، ويكون الانذار في العادة مرناً يسهل التراجع عنه إذا تجاوبت الدولة الموجه إليها بطريقة ترضي الطرف الذي يوجهه ، وان كان لايستجيب إلى المطلب بشكل كامل .

ولتحدث سياسة العقوبة آثارها ، يجب ان يكون الطرف الذي يمارسها قادراً بالفعل على تنفيذها ، ويجب ان يدرسها بشكل دقيق لانها قد تعود بإنعكاسات سلبية عليه دون احداث التأثير المطلوب في سياسة الخصم ، وقد تضعف سياسة القطب نفسه في مواجهة أطراف أخرى ستكون هدفاً له في المستقبل .

ومن امثلة العقوبات غير الناجحة تهديدات الولايات المتحدة للصين بحرمانها من وضع الدولة الأولى بالرعاية خلال سنوات متتالية ، إذا لم تتجاوب الصين مع المطالب الامريكية باحداث اصلاحات سياسية وفي مجال حقوق الانسان ، فقد رفضت الصين هذه المطالب لأسباب فكرية وسياسية عميقة - مما ادى بالولايات المتحدة إلى التراجع ، لأن فرض العقوبات على الصين سينعكس سلبياً على الاقتصاد الامريكي نفسه (١٠٥) .

---

١٠٤) د . اسماعيل صبري مقلد - العلاقات السياسية الدولية - ص ٢٠٢ .

١٠٥) ينتقد د . هنري كسينجر نفسه الموقف الامريكي ويرى ان العلاقات الصينية الامريكية يجب ان تقوم على المصالح المتبادلة وليس على ما تحبذه امريكا ، انظر رأيه مفصلاً في الدبلوماسية ج٢ - ص ٥٦٦ .

ان سياسة العقوبات الاقتصادية لم تنجح كثيراً في احداث الاثر المطلوب ، فقد فشلت في مواجهة كوبا خلال ثلاثة عقود متتالية كما فشلت تجاه مصر ، فسحب أمريكيا لتمويلها للسد العالي لم يثن الرئيس جمال عبد الناصر عن سياسته ، بل دفعه لاتخاذ اجراء ثوري هو تأميم قناة السويس وزيادة توثيق صلاته بالمعسكر الاشتراكي ، وهكذا ادت سياسة العقوبات إلى نتائج معاكسة .

أن نقاط ضعف عديدة تكمن في سياسة العقوبة ، فهي اولاً ليست اخلاقية وهي بذلك لاتحظى بدعم الدول الأخرى ولايساندها الرأي العام الدولي ، فهي موجهة غالباً ضد الانظمة ولكنها تمس حياة الشعوب دونما تأثير يذكر على الانظمة أو توجهاتها ، وهي ثانياً تصيب مصالح أطراف ثالثة تجعلها تقاوم هذه السياسة وتنضم احياناً إلى الدولة المعاقبة حرصاً على مصالحها ، ومن اشهر الامثلة على ذلك (قانون داماتو) ، وهو قانون امريكي يحرم الشركات الاجنبية من مزايا اقتصادية إذا استثمرت في ليبيا وايران بما يزيد عن اربعين مليون دولار سنوياً ، ومع ان الهدف المباشر لهذا القانون معاقبة ليبيا وايران الا انه اصاب مصالح كثيرة لدول أوربا الغربية مما اجبرها على تحدي السياسة الامريكية مما دفعها للتنازل جزئياً عام ١٩٩٨م واضطرت إلى القبول بتعامل شركات هذه الدول مع ايران .

وعلى الاجمال فإن سياسة العقوبات لم تؤد إلى نتائج ايجابية ، فهي رغم اضرارها بالشعوب فإنها لم تنجح في تغيير المواقف السياسية لمعظم الدول التي اصيبت بها .

٢ ـ التهديد باستخدام القوة ...

إن التهديد باستخدام القوة هو موقف منبوذ في العلاقات الدولية ، إذ

يفترض ان يسود مبدأ الحوار والتعاون بين الدول لتسوية المنازعات ، غير ان التهديد باستخدام القوة هو سياسة شائعة تمارسها الدول الكبرى للحفاظ على توازن القوى أو تغييره ، ويأخذ التهديد اشكال مختلف فقد يكون صريحاً في شكل انذار بالتدخل بالقوة إذا لم تتخذ الدولة الهدف ، اجراء ما أو توافق على مطلب أو تكف عن ممارسة سياسة بعينها ، وقد يكون ضمنياً بالتلويح به عبر وسائل الاعلام أو على طاولة التفاوض أو باصدار التصريحات والخطب التي تتضمن التهديد ، كما قد يأخذ شكل استعراض القوة لارهاب الخصم عن طريق حشد الحشود أو اجراء المناورات والتحركات العسكرية ، وهي اجراءات تنطوي على رسائل واضحة بان الدولة عازمة على استخدام القوة لتسوية النزاع .

وتصل درجة التهديد ذروتها بالقيام بعمليات حربية فعلية كأعمالَ الحصار البحري أو العمليات العسكرية المحدودة كالقصف الجوي أو الاغارة على مواقع ما . . . وقد تتصاعد الامور إلى درجة استخدام القوة على نطاق واسع للتدخل في شؤون الدولة المعنية واجبارها على تبديل سياستها أو الاطاحة بنظامها .

وقد استخدمت الولايات المتحدة سياسة التهديد باستخدام القوة خلال الحرب الباردة كما استخدمتها فعلاً للحفاظ على توازن القوى القائم ولدعم مكانتها في هذا التوازن ، فقد استخدمته في جنوب شرق آسيا في فيتنام وكوريا وفي أوربا اثناء ازمة برلين كما ، استخدم ضد كوبا ونيكاراغوا ، وتدخلت بالقوة في جمهوريات هاييتي وغرينادا لاجبارها على تغيير انظمتها وكانت ذروة التدخل غزو بنما الذي نجم عنه اعتقال رئيسها الجنرال (نورييغا) ومحاكمته .

ان الدولة المهددة باستخدام القوة تحاول اسناد سياستها بالبحث عن ذرائع اخلاقية وقانونية لتبرير هذه السياسة المنبوذة ، ولكن هدفها النهائي هو دعم مكانتها في توازن القوى اما بالحفاظ عليه أو العمل على تغييره .

ومهما كانت سياسة التهديد باستخدام القوة كريهة ، الا انها محببة لدى الدول الكبرى وتعتبر في نظرها مجدية لتحقيق أهداف السياسة الخارجية ، ويعتبرها الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي الاسبق أفضل وسائل السياسة ، وهو احد المدافعين عنها كبديل لاستخدام القوة فعلياً ، فالتهديد بها أجدى في نظره من استخدامها فعلا ، ويبرر كيسنجر نظريته مبكراً بان السلام ، وهو الثمرة المقصودة ، لايتحقق الا في ظل القوة فالسلام لاتصنعه الرغبة ، بل على العكس ، فإن أكثر العصور سلماً كانت الأقل حباً للسلام ، ويبدو انه كلما ازدادت رغبة مجتمع ما في السلم كلما قل نجاحه في تحقيق شروطه . كلما كان السلم ، المعروف بعدم الحرب ، الهدف الأول لدولة ما ، أو لمجموعة من الدول ، فإن العائلة العالمية تكون تحت رحمة أكثر اعضائها قسوة . وبالمقابل عندما يتم الإتفاق على بعض المبادئ التي لاتقبل التسوية أو المهانة ، حتى ولو تعلق السلم بعدها بالمفاوضة ، فإن استقراراً مبنياً على توازن القوى ، يصبح عندها ممكناً على الاقل[١٠٦] .

وخلاصة الأمر فإن التهديد باستخدام القوة هو احد اساليب الدبلوماسية الهجومية الهادفة إلى التأثير في توازن القوى بصورة ايجابية أو سلبية ، ومع انه مبدأ غير مقبول في العلاقات الدولية من الناحية النظرية ، الا انه أصبح مسلكاً طبيعياً للدول المتصارعة ، عندما تعجز الوسائل الأخرى عن تحقيق سياستها وعندما تصبح مصالحها معرضة للضرر .

---

١٠٦) هنري كيسنجر - درب السلام الصعب - ص١٩ .

٣ ـ صور أخرى للتأثير في توازن القوى

من الصعب ، في العصر الحديث ، حصر اساليب الدول في التأثير على توازن القوى ، فالدول التي تخوض هذا الصراع الضاري لم يعزها الابداع والابتكار ، وقد زودها التطور التقني الهائل وثورة الاتصالات والاعلام باخطر ادوات التأثير والتي لم تعد غالباً محسوسة ومرئية بحيث تسهل مقاومتها أو التعامل معها ، لكن قاسمها المشترك هو اجبار ارادة الدول والساسة على اتباع سياسة معينة تحقق اهدافها ومصالحها ، ومن المؤسف ان العلاقات الدولية اليوم لايديرها ساسة مهذبين على موائد التفاوض ، فالذين يصنعون قراراتها الحقيقية ليس هم الرجال النبلاء وقادة الشعوب المعترف بشرعيتهم ، بل كثيراً ما تصنع هذه القرارات في مطابخ سياسية ليست نظيفة دائماً ، حيث تختلط المصالح الضيقة والنزوات والعواطف والشهوات والاحقاد والضغائن ، تختلط بمصالح البلدان العليا وتمتزج معها ، وهكذا فقد عرف العالم وسائل ضغط جديدة تقوم على الدعاية والاعلام وعمل الاجهزة السرية التي تدبر للدول سياستها وتتولى تنفيذها ، باعمال مثل تدبير الانقلابات والإطاحة بالانظمة واعمال التخريب السياسي والاقتصادي وتوفير الدعم لأطراف الصراعات الداخلية والتآمر والارهاب وإشعال الفتن والحروب الاهلية واستخدام اساليب الافساد الاخلاقي والرشوة وغير ذلك من الصور التي تهدف دائماً إلى ممارسة الضغوط في اتجاه سياسة محددة .

وهناك عشرات من الامثلة على هذه الممارسات ، التي لاتحرمها القوانين والاعراف الدولية فحسب ، بل تحرمها الدساتير والقوانين الداخلية في معظم الدول ، تلك الدساتير والقوانيين التي يحلف القادة على صيانتها والسهر عليها وحمايتها والالتزام بها نصاً وروحاً .

الفصل الخامس
في الموازن او
(حافظ الميزان)

١١٩ - مهما كان شكل التوازن ، سواء كان ثنائياً أم متعدداً ، فإن هذا التوازن يضم مراكز قوى رئيسية متصادمة بصورة واضحة ومتسابقة على اكتساب القوة ، وإلى جانب وجود القوتين الرئيستين ، يوجد عادة طرف ثالث قد يكون اقل قوة من الخصمين المتنافسين ولكنه يستطيع ان يلعب دوراً بارزاً من خلال الحياد المرن بينهما ، ونعني بالحياد المرن ليس الوقوف في منتصف الميزان ، بل الحياد المتحرك من خلال التحالف مع هذا الطرف أو ذاك بحسب حركة الميزان ووفق ما تمليه عليه مصالحه الوطنية .

ان هذا الطرف المحايد هو مايطلق عليه الموازن أو حافظ الميزان ، لأن أثره وسياسته هي الاحتفاظ بميزان القوى في حالة تعادل بين الطرفين المتصارعين ، عن طريق تحركه الرشيق والرمي بثقله مع الطرف الضعيف .

ومن المحتمل ان الاصطلاح قد اوحى به ما نسب إلى هنري الثامن ملك بريطانيا ، إذ طلب من احد الرسامين تصويره وهو ممسكاً بيمناه ميزاناً في وضع التوازن الكامل ، وقد احتلت فرنسا احدى الكفتين واحتلت النمسا الكفة الأخرى ، ويحمل في يسراه ثقلاً على استعداد لوضعه في احدى الكفتين ، وينسب إلى هنري الثامن القول المأثور (ان من أؤيده هو الذي يفوز)[١٠٧] .

وتاتي اهمية حافظ الميزان ، من ان كل طرف يسعى لكسبه ، فيصبح هو

---

١٠٧) مورجنتاو -السياسة بين الأمم - ص٢٦٩

الهدف الرئيسي للقوى المتصارعة ، فيكون حافظ الميزان في الموقف الذي يسميه (مورجنتاو) (العزلة الرائعة) فهو معزول بارادته واختياره ، ويتحرك برشاقة تامة للحفاظ على الوضع القائم طالما هو في مصلحته ، ففي الوقت الذي يتنافس فيه الطرفان على اضافة ثقله إلى احدهما لتترجح كفته ، فإن حافظ الميزان يرفض اغراء الانضمام بشكل دائم إلى اي من الطرفين ، فعليه ان يظل واقفاً في منتصف الميزان ، مراقباً بكثير من الحياد ، وبعين ذكية عليه ان يلحظ الحركة وفي اي اتجاه ينتظر أين يميل الميزان ، وعندما يحدث ذلك يبدأ حركته ليلقي بثقله في الكفة الأخف لضمان بقاء التوازن وحفظ الاستقرار . وهو وفق ذلك يستطيع تغيير موقفه ، لأن علاقاته ليست دائمة ، وبهذا يصبح الموازن هو المتحكم الرئيسي في لعبة التوازن لانه صديق لجميع الأطراف وعدواً لها في الوقت نفسه .

١٢٠ - أن لعبة حافظ الميزان ، هي اللعبة الذكية في نظام التوازن الدولي ، وهي تعود على الموازن بفائدة كبيرة ، لانه يجني الارباح في كل مرة يستخدم فيها ثقله برميه مع احد الطرفين ، ومع ذلك فإن سياسته تقابل دائماً بالاستنكار ، على اساس انها لاتستند إلى اي معيار خلقي ، ومن اشهر الدول في التاريخ التي اتقنت لعبة التوازن هي بريطانيا ، ويذكر ليدل هارت ان بريطانيا طبقت هذه الاستراتيجية الناجحة على امتداد ثلاثة قرون منذ عهد الملكة اليزابيت الاولى ، فاحبطت بوساطتها كل التهديدات الخطرة التي ظهرت على التتابع في اسبانيا وهولندا وفرنسا ، وعلى الرغم من ان منافسيها قد يتفوقون عليها في القوة المسلحة إلاّ انها تخرج من الصراعات بالمكسب الرئيسي ، فهم في صراعهم يبذلون جهداً مضاعفاً في حملاتهم البرية داخل القارة ، ويتنافسون معها فيما وراء البحار ، وعلى الرغم من مشاركاتها المحدودة

في الحملات البرية الا انها لم تستنزف لانها لاتسعى لتحقيق انتصارات قارية في أوربا ، ولم تخرج بريطانيا عن استراتيجيتها التاريخية هذه ، الا في الحروب العظمى في القرن العشرين حيث استنزفت ذاتها بالاشتراك كقطب ففقدت مكانتها التقليدية في سياسة العالم(١٠٨) .

ومع ان بريطانيا حافظت على وعيها النظري باهمية سياسة حافظ الميزان الا انها عملياً لم تستطع ممارستها في حروب القرن العشرين ، لأن هذا الدور افتكته منها الولايات المتحدة ، كما سنعرف فيما بعد ، فدور حافظ الميزان لايمكن ان تمارسه أطراف متعددة ، وقد كانت ظروف أمريكيا مهيأة بصورة اكبر لممارسة هذه السياسة ، فهي الأقوى عسكرياً واقتصادياً يضاف إلى ذلك موقعها الجغرافي البعيد الذي يتيح لها فرصة الانعزال ، وهو ظرف شبيه بظروف بريطانيا في القرون الماضية ، حين اعطى البحر لبريطانيا فرصة العزلة ، وإذا اخذنا في الاعتبار تطور

التقنية والعلم فإن المحيط الاطلسي لعب الدور نفسه الذي لعبه المانش في حياة بريطانيا ، فالمحيط هو المانش الجديد بالنسبة للولايات المتحدة .

---

١٠٨) يرى ليدل هارت ان الجنرال هنري ويلسون الذي كان قائداً لكلية اركان الجيش البريطاني هو المسؤول عن تبديل الاستراتجية التاريخية لبريطانيا ، فقد عاش طفولته في فرنسا وتشرب افكار (فرديناند فوش) مدير الكلية الحربية الفرنسية حيث قرأ كتبه الحربية وارتبط معه بعلاقات صداقة فنقل افكاره إلى كلية اركان الجيش البريطاني وهي افكار تلائم فرنسا وتتفق مع وضعها الجغرافي ضمن البر الأوربي وفي مواجهة المانيا ، وأصبح ويلسون فيما بعد مديراً للعمليات العسكرية في وزارة الحرب ، وقد كانت استراتجيتة بمثابة الكارثة لبريطانيا ، ويتهم هارث فوش باستغلال ويلسون تراجع مذكرات ليدل هارت - ترجمة بسام العسلي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط١ - ١٩٧٨م ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

وخير من عبر عن الوعي البريطاني باستراتيجية حافظ الميزان ، هو رئيس وزراء بريطانيا الراحل (ونستون تشرشل) بالقول انه ليس لبريطانيا اصدقاء دائمون ولا اعداء دائمون ولكن لها مصالح دائمة ، ان هذا القول يعكس بوضوح تغلغل روح الموازن في الفكر الاستراتيجي البريطاني .

١٢١ - أن لعبة حافظ الميزان تعتمد على جملة شروط ، الواجب توافرها واهمها في اعتقادنا مايأتي : -

أ) شرط القوة :

أي أن حافظ الميزان يجب ان يكون قوياً إلى درجة ما ، بحيث تعد قوته حاسمة في ترجيح الصراع ومهمة لكلا الطرفين ، ولكن لايشترط ان تكون قوته متعادلة أو شبه متعادلة مع كل طرف على حدة . ان شرط القوة مهم من جانب آخر لحماية استقلال الموازن في مواجهة الأقطاب المتصارعة ، فمع ان الأقطاب الرئيسية اقوى منه الا انه قادر على الدفاع عن نفسه وتكبيد من يعتدي عليه خسارة فادحة ، والواقع ان درجة قوته المطلوبة يجب ان تكون كافية للوقوف في وجه المعتدي بعض الوقت ، لأن طرف الصراع الثاني سيهب حتماً لنجدته فهو لن يسمح للمعتدي بالسيطرة على الموازن وضمه إليه ، لانه في هذه الحالة سيحقق تفوقاً كاسحاً .

فشرط القوة ضروري جداً لانه هو المعيار الاساسي لنظرة أطراف الصراع إلى حافظ الميزان ومن الطبيعي اننا نعني بالقوة ، ليس مجرد القوة العسكرية ، بل القوة بالمعنى الشامل .

ب) الارادة السياسة . . .

ومن شروط النجاح ، ان تكون لدى من يلعب دور الموازن ، ارادة سياسية

واضحة لممارسة هذا الدور ومصممة عليه ومدركة لابعاده وفوائده ، فمن دون ذلك وفي ذروة الصراع من المحتمل ان ينجرف الموازن إلى الانحياز إلى احد الأطراف لتحطيم الطرف الآخر ، وقد ينجرف نحو الطرف القوي املاً في جني الارباح بعد نهاية الصراع ، لكنه بمثل هذا العمل يحطم نفسه ويعرض استقلاله للخطر ، لانه بالمساهمة في تحطيم طرف يحول الطرف الرابح إلى قطب مهيمن ، فيضطر هو أيضاً للاستسلام للهيمنة فيما بعد ويمكن اعتبار أوربا في الوقت الراهن مثيل لهذه الحالة ، إذ انها بانحيازها للولايات المتحدة اثناء الحرب الباردة اسهمت في تحطيم التوازن وآخراج الاتحاد السوفيتي منه ، لكن تحطيم التوازن قاد إلى هيمنة الولايات المتحدة وخضوع أوربا لهذه الهيمنة أيضاً . غير ان أوربا ادركت مبكراً خطورة هذا الوضع ، فاعادت الالتفاف حول نفسها ، على امل ان يفضي تكتلها إلى ظهورها كقطب جديد للمشاركة في الصراع والخروج من الهيمنة .

ان وجود ارادة سياسية واعية باهمية دور الموازن مهم للغاية ، فالقوة وحدها لاتكفي لصنع الادوار السياسية ، وعلى مدى التاريخ وجدت امم وبين يديها قدر لابأس به من القوة ولان ارادتها السياسية ضعيفة أو ليست مدركة ، فإنها لم تستطع ممارسة مثل هذا الأثر الحيوي .

ج) اتقان سياسة العزلة . . .

ومن اهم شروط القيام بدور الموازن هو الاتقان الشديد لسياسة العزلة ، ونعني بالعزلة عدم الارتباط الدائم بأي طرف من أطراف الصراع ، فسياسة الموازن تتطلب اتقان الحركة الرشيقة ، فعزلة الموازن هي عزلة السياسة الفطنة وعقد التحالفات المؤقتة وامتلاك القدرة على تغييرها في الوقت المناسب ، فإذا تورط الموازن في علاقات دائمة ولم يختر الاوقات المناسبة للحركة فإن الامور

تفلت من بين يديه ليصبح طرفاً في النزاع . . . والواقع ان الموازن لايهتم باسماء الدول أو طبيعة علاقاته التاريخية معها ، بل ينصب اهتمامه على النظر إلى الميزان والدولة الاقوى فيه ليقف ضدها ويمنع طغيانها ، وانني لا اجد من عبر عن هذه الفكرة بمثل الوضوح الذي عبر عنه تشرشل عام ١٩٣٦م حين يقول :

(مبادئ السياسة البريطانية تجاه أوربا ، التي اتبعتها لسنين عديدة وما أزال اتبعها ، لايمكن ان اعبر عنها أفضل مما فعلت امام اعضاء لجنة الشؤون الخارجية في حزب المحافظين في آخر شهر مارس من سنة ١٩٣٦م ، إذ لأربعمائة سنة ، كانت سياسة بريطانيا الخارجية ، ان تعارض الدولة الاقوى والأكثر عدواناً والاشد طغياناً على القارة ، وان تمنع بصورة خاصة البلدان المنخفضة (هولندا وبلجيكا) ان تقع في ايدي دولة كهذه ، وإذا نظر على ضوء التاريخ إلى هذه الأربعمائة سنة من المثابرة على الغاية ، وسط الكثير من المتغيرات في الاسماء والوقائع والظروف والأحوال ، فإنها تعتبر من اروع الحقب ، وأكثر من ذلك فإن بريطانيا ، في كل المناسبات اتخذت الطريق الأصعب ، كان من السهل عليها ان تنضم إلى الأقوى وتشارك في ثمار فتحه وانتصاره ، ولكن كنا دائماً نسلك الطريق الاشد وعورة ، وننضم إلى الدول الاقل قوة ، ونؤلف بينها ونهزم ونحرم الطاغية العسكري كائناً من يكون ومن كانت الأمة التي يقود . وهكذا حافظنا على حريات أوربا ، وحمينا مجتمعنا الحي المتعدد ، وخرجنا بعد صراعات هائلة بشهرة متزايدة وامبراطورية متسعة ، ذلك هو تقليد السياسة الخارجية البريطانية ، ولاأعرف شيئاً حدث ليبدل أو يضعف العدالة والحكمة والبسالة والحصافة ، التي عمل اسلافنا على اساسها ، ولااعرف شيئاً حصل لطبيعة البشر ، يغير بأضعف الدرجات

قراراتهم ، كما لاأعرف شيئاً في الوقائع العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو العلميـة يجعلني أشعر اننا لايمكن ان نسلك ذات الطريق ، لاحظوا ان سياسة بريطانيا لاتعير اي اعتبار لهوية الدولة التي تريد ان تكون جبارة في أوربا ، وليست القضية ان تكون اسبانيا أو الملكية الفرنسية أو الامبراطورية الفرنسية أو الامبراطورية الالمانية أو نظام هتلر ، لاشأن لها بالحكام أو الأم ، انها تهتم بمن كان الاقوى اومن يكون الطاغية المسيطر)[١٠٩] .

وذلك هو الموقف الحقيقي للموازن ، فهو لايهتم باي اعتبار سوى المحافظة على التوازن والاستقرار عن طريق مقاومة الاقوى ، اياً كان هذا الاقوى .

د) الموقع الجغرافي . . .

يتيح الموقع الجغرافي للموازن فرص اكبر لاتقان دوره إذا كان ملائماً ، فسياسة الانعزال اليقظة يجب ان يدعمها الموقع الحصين ، ولاشك ان الموقع البريطاني قد هيأ لهذه البلاد اعظم الفرص خلال القرون الماضية ، فبما انها جزيرة معزولة عن البر الاوربي ، فقد كانت محصنة إلى حد ما يصعب غزوها أو ارها بها ، وهي من مكانها الهادئ استطاعت ان تراقب الاحداث والصراعات بين الأم الاوربية الأخرى لتختار وقت تدخلها وكيفية هذا التدخل ، اما صراعها المباشرمع ام أوربا فكان يتم وراء البحار في المستعمرات ومناطق النفوذ وهو صراع مهما كانت كلفته فإن إنعكاساته محدودة على الوطن الأم .

ان عامل الموقع الجغرافي قد لعب دوره أيضاً مع الولايات المتحدة ، التي

---

١٠٩) د . اديب نصور – بحث في العلاقات الدولية ، منشورات جامعة قاريونس – الجماهيرية – ١٩٨١م – ص ٢٣ .

لعبت دور الموازن في القرن العشرين ، خلال الحربين العالميتين كما سنشرح فيما بعد ، فقد منحها المحيط الشاسع فرصة الانعزال والمراقبة والتدخل في الوقت المناسب .

غير ان الموقع الجغرافي ليس شرطاً اساسياً ، فهو عامل موضوعي مساعد ، ويمكن تعويضه بحصانة ما من نوع آخر ، توفرها القوة العسكرية والمهارة السياسية ، فقد لعبت دور الموازن بعض الدول ذات الاوضاع الجغرافية الصعبة كالنمسا وفرنسا ، فعلى الرغم من وجود النمسا في وسط أوربا ، مما يجعلها هدف للصراعات ، وسط امبراطوريات جبارة ، وعلى الرغم من وجود فرنسا في مواجهة المانيا ، فإن هاتين الدولتين استطاعتا خلال فترات تاريخية اتقان دور الموازن وجني ارباحه ، كان ذلك عندما توفر للدولتين الساسة الكِبار والدبلوماسيين المهرة . . . . لكن تظل للموقع الجغرافي قيمته في العمل السياسي بشكل عام وفي لعب دور الموازن خصوصاً .

١٢٢ - ولأن لحافظ الميزان هذا الأثر الخطير في السياسات الدولية والاقليمية ، فإننا سنتعرض لاهم النماذج التاريخية القريبة خلال القرنين الماضيين ، فدراسة هذه النماذج ستبرز بصورة اوضح اهمية الموازن وشروط نجاحه ، كما تعرض مقدار المهارة في استغلال الأحداث والأشخاص والظروف للوصول إلى غاية الدولة ، كما سنبين الثمار التي جناها الموازن من خلال أكثر السياسات حكمة ودهاء .

اولاً : (تجربة ميترنيخ في حفظ التوازن الدولي) [١١٠]

١٢٣ - يمكن اعتبار ميترنيخ هو الأبرع من بين الذين استخدموا موقع الموازن ، ليس في الحفاظ على امنّ واستقلال بلاده وحسب ، بل وكيف حولها إلى موقع الدولة القائدة في توازن القرن التاسع عشر ، على الرغم من انها لم تكن الأقوى بين الأقطاب في ذلك التوازن .

ظهر ميترنيخ ، في وقت انعقدت فيه السيطرة ، لفرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا ، وهو توازن متعدد الأقطاب ، يتاح فيه بطبيعته لمن يستطيع ، ان يظهر حافظاً للميزان ، بأن يلعب اكبر الادوار في السياسة الدولية ، إذا تمتع رجل الدولة بالدهاء والعبقرية ، ولم يكن ينقص ميترنخ شيء من هذا ، ولقد ادرك ميترنيخ ان النمسا وهي واقعة وسط أوربا ليس لها من امان ، الا في عالم تكون فيه (المفاوضة) اساس العلاقات الدولية ، وكان عليه اولا ان يحد من سلطة فرنسا ، وهي المنقادة لامبراطور (نابليون) إعتاد إصدار الأوامر ولم يتعود أبداً أن يخضع لمنطق التفاوض ، ذلك ان المفاوضة تقتضي اعترافاً بحدود السلطة وهي مسألة ليست سهلة في حالة نابليون وحالة فرنسا في عهده ، لكن الازدواجية كما يقول (هنري كيسنجر)[١١١] من لزوميات الحياة ، فأبحر ميترنيخ في رحلة الازدواجية ، مبتدءاً بسياسة المساعي الحميدة لأجل سلم شامل ، لأن السلم يتلائم مع مصالح النمسا .

---

١١٠) ان هذا الفصل المتعلق بحافظ الميزان بكامله يعتمد كلياً على المبحث الثالث من الفصل الثاني من كتابنا (العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين) فقد راجعناه مراراً وجدناه صالحاً للاضافة لهذه الدراسة استكمالاً لها ، ولم نجر عليه غير تغييرات طفيفة . . . ويمكن مراجعته في الكتاب المشار إليه - ص١٠١ - ١٣٧ .

١١١) هنري كيسنجر - درب السلام الصعب - سبقت الاشارة إليه - ص٣٧ .

وهكذا فقد عرض ميترنيخ على نابليون مساعيه من اجل السلم العام ، ومن الطبيعي ان يحدد ميترنيخ شروط هذا السلم ، ذلك ان التحالف مع فرنسا أو روسيا أو الوقوف على الحياد ، ستضع جميعها على عاتق النمسا حملاً ثقيلاً مزعجاً ، ولقد افهم نابليون ان رفض شروط السلام كان سيحتم على ميترنيخ الوقوف بجانب اعداء نابليون . . ولأن الشروط لاتملي على امبراطور مثل نابليون ، فقد غلف ميترنيخ مزاعمه بالتحالف مع فرنسا ، بعد ان بالغ في تصوير قوة روسيا . . ولأن نابليون كان يسعى لاستدراج النمسا إلى خطه في حقبة كانت تشهد اعادة تكوين جيشه ، ولأنها حليف لفرنسا ضد التهديدات البريطانية والروسية ، فقد طلب نابليون من النمسا زيادة تكوين جيش احتياطي ، فكون ميترنيخ الجيش الاحتياطي الذي قوامه مائة الف رجل لدعم استقلال النمسا من جهة ولاستخدامه ضد نابليون عند اللزوم من جهة أخرى ، لقد استنتج ميترنيخ الحقائق الآتية بالنسبة لبلاده :

- ان النمسا وهي الدولة الواقعة وسط أوربا ، لاتستطيع ان تنعم بالأمن ، الا بالمحافظة على السلام القائم على تثبيت توازن القوى في أوربا ، وكان يردد في رسائله وبرقياته لأمبراطور فرنسا وقيصر روسيا (ان النمسا لاتسعى إلى النصر بل إلى الهدوء ، ان أمن النمسا لايقوم على استلحاق اراض جديدة بل على توازن القوى ،لاعلى عدم الاتزان بل على العلاقات المتكافئة)[١١٢] .
- ان مفتاح تثبيت التوازن هو تهدئة نابليون ، فصدامه مع روسيا كان يستلزم اختراق النمسا ، والمرور عبر اراضيها ، ولقد بالغ ميترنيخ في تصوير الخطر الروسي ، ليجعل التحالف مع النمسا مسألة حيوية بالنسبة لفرنسا ، وهو ماشجع نابليون ليس فقط على التساهل مع النمسا في تكوين جيشها

١١٢) المرجع السابق - ص ٩ .

الاحتياطي بل ان يشجع عليه ويدعمه .

- لأن نابليون كان منهكاً بسلسلة من المعارك والحروب ، فقد استطاع ميترنيخ سبر أغوار نابليون واوحى إليه بحاجته - اي نابليون - أكثر من غيره للسلم ، ولأن نابليون امبراطور لايقبل املاء الشروط عليه ، فقد استخدم ميترنيخ دائماً ازدواجية في خطابه تدور بين التهديد والوعيد ، وتملق نابليون وعظمة فرنسا وكان كما يقال يتلقى وخزات نابليون بالابتسام .
- أن على مترنيخ ، وقد فعل ، ليس تقوية النمسا وحدها ، بل ان يجعل ام أوربا الوسطى (النمسا وبروسيا) قوية ، ولم يكن من الصعب عليه اقناع حكام بروسيا بالتحالف مع النمسا ، ولكن ليس بشكل ظاهر يثير حفيظة الأعداء ، كان ميترنيخ يرى ان مسلكية الدول الاوربية يجب ان يحددها موقعها الجغرافي ، فبينما لاتوجد لفرنسا وروسيا الا حدود واحدة تدافع عنها ، فإن النمسا وبروسيا من المحتمل تعرضهما لغزو من جميع الجهات ، وهما مهددتان دوماً بقوة فرنسا وروسيا ، لذلك ليس لهما ضمان لاستقلالهما الا قوتهما الذاتية واي ضعف في احداهما يهدد الأخرى بالضرورة ، وبينما انهمك ميترنيخ في سياسته تجاه فرنسا ، فإنه لم يعارض التحالف الروسي الذي وجده يقوي موقف بروسيا تجاه فرنسا ، وبالتالي فإن النمسا نفسها سيصبح التحالف معها مطلوباً من الجميع .
- وعلى الجبهة الروسية قاد ميترنيخ دبلوماسية بارعة ، وقد كان يعتقد انطلاقاً من فهمه للتوازن ، ان انتصار روسيا كترددها هو أمر مخيف ، وبينما شجع التحالف الروسي البروسي الذي يحرر بروسيا من تحالفها القديم مع فرنسا ، ويقوي دول أوربا الوسطي ، فقد عارض السلام المنفرد بين روسيا وفرنسا ، مستغلاً في ذلك النزاع البولوني ، إذ كيف يمكن لروسيا تفكيك

دوقية فرصوفيا ، وهي صنيعة نابليون دون الحصول على نصر حاسم ، ولقد شجع روسيا على مواصلة الحروب خارج اراضيها ، كان يقول (ان بلدنا يستمد قوته ، في مطلع ١٨١٣م من الانهاك الذي يعتري البلاطين الامبراطوريين الآخرين)[١١٣] يعني روسيا وفرنسا . لقد استغل ميرنيخ المزاج الروسي المتقلب ، والمخاوف الاوربية جميعها في علاقته بروسيا ليس لضمان امن بلاده من ناحيتها ، بل ان يحقق مكاسب كبيرة ، بما فيها حدوده التي تشمل كل ممتلكات النمسا القديمة .

- ولتتويج التوازن وترتيبه ، كان لابد من جر بريطانيا إليه ، وعلى الرغم من ان بريطانيا اشتهرت تقليدياً بالمحافظة على التوازن ، فإن الجزيرة تحت ضغط مشاعر تجربة كادت ان تذهب بها ، فقد كانت ترى ان نزع فتيل النزاع في أوربا يوجب وقف المشاغب ، ولذلك فقد كانت مهتمه باقامة تحالف قوى ضد فرنسا ، وان الحل يكمن في تصغير فرنسا وان قوتها يجب ان تتضاءل إلى الحد الذي لاتشكل فيه اي خطر على أوربا وسعى (كاسلري) من اجل هذه السياسة التي لاتستقيم مع منطق التوازن .
- أما مفهوم مترنيخ فقد كان مختلفاً فالسلام في نظره لايعم بتدمير دولة طرف في التوازن الأوربي (ان النمسا حين تساهم في تدمير دولة أخرى وسيطة ، فإنها تحكم على نفسها بالدمار)[١١٤] . . . . . على الرغم من انه انتزع من كاسلري موافقته بان أوربا التي يريد ، يجب ان تكون قوية في قلبها ، مما يقضي ان تكون النمسا وبروسيا قويتين ، كما يجب ان تتضاءل إلى ادنى حد قوة فرنسا ولم يكن الحل في نظر مترنيخ هزيمة نابليون ، بل

---

١١٣) المرجع السابق – ص ٧٠ .
١١٤) المرجع السابق – ص ٩٠ .

نوع من توزيع السلطة في أوربا وهو مايعطي الفرصة لإقامة علاقات مستقرة قابلة للاستمرار .

١٢٤ - لقد تجلت براعة مترنيخ ، اوائل القرن التاسع عشر في حفظ التوازن الأوربي الذي حقق مكاسب لبلاده ، وربما كان اهم هذه المكاسب انه استطاع ان يحول النمسا إلى دولة قائدة ، حيث كان كما يقول عنه تلميذه العصري (هنري كسينجر) يدفع الميزان دفعة صغيرة انما برشاقة يجعلها غير بينة[١١٥] .

لقد كانت دبلوماسية مترنيخ بارعة حيوية ، صبورة مزدوجة ، صلبة ، مناورة وباردة احياناً لم يسهل التنبؤ بها من قبل الدول الأخرى ، أو حتى من زملائه الوزراء الذين بدت لهم مشينة وسخيفة لكنها حققت هدف النمسا النهائي ، تحالف ضخم وارادي في وسط أوربا ، قائم على استقلال الدول وضمان احوالها . . تحالف أكثر عدالة قائم على محاربة اي توسع ترابي من اي جهة يصدر .

كان مترنيخ عبقرية حقيقية في استخدام سياسة التوازن الأوربي ، فبينما كانت أوربا ، اوائل القرن التاسع عشر تعج بأمم كبرى وقوية ومتصادمة بمبادئها ومطامحها ، وكانت تتدحرج نحو حروب ستكون فيها النمسا احد الخاسرين ، ايا كان الرابح في هذه الحروب ، لموقعها الذي يحتم استخدامها في حروب الآخرين ، ولضعف قوتها ، لكن دبلوماسية مترنيخ استطاعت ان تجعلها وسيطاً وموازناً مقبولاً في المراحل الاولى ، بالتزامه بالتحالف مع فرنسا وبخطى يوافق عليها الأمبراطور خطوة بعد خطوة ، لتنضم فيما بعد إلى التحالف الأوربي الرابع ضد نابليون ، وفي الساعة التي اختارتها ، لقد حول النمسا إلى بطلة

---

١١٥) المرجع السابق - ص٩٢ .

التوازن اثناء الهدنة والسلم وفي وقت الحرب وعندما اختارت الانحياز للتحالف ضد نابليون ، لم تكن ضمن التحالف بل على رأسه حيث كان - الامير المارشال النمساوي (شوارزنبرغ) هو القائد العام لجيوش الحلفاء بعد ان كان ذات يوم قائد الجيش الاحتياطي النمساوي عند نابليون ، اما مترنيخ فقد كان وزير التحالف الاول ، هو الذي يتكلم بأسم الحلفاء في محادثات السلام .

ولخص هنري كسنجر [١١٦] نجاح مترنيخ بهذه الكلمات (عندما تكون دولة ما في ذروة سلطانها ، وتكون مواردها غير محدودة ، فمن غير الصعب عليها ان تلعب دوراً على المسرح الدولي . . . وبالمقابل ان قيادة سفينة محطمة طلية عشرين سنة عبر العاصفة ، وتجنب النتوءات البحرية والزوابع ، والهرب بنجاح من الآف العوائق المختلفة ومن القوى المعادية ، واخيراً الابحار في المياه الهادئة ، ان هذه العبقرية قليلة الشيوع[١١٧] .

---

١١٦) المرجع السابق - ص٧١١ .

١١٧) لمن يريد الاطلاع بشكل واسع على تفاصيل دبلوماسية مترنيخ وحنكته ، ومرحلة تخلق القرن العشرين الذي صنعه ، ان يراجع كتاب د . هنري مسنجر (درب السلام الصعب ، وهو اطروحة جامعية قدمت لنيل درجة الماجستير في التاريخ من جامعة هارفارد ، تحت عنوان (عالم يعاد بناؤه) .

ومن المعروف ان كسنجير كان شديد الاعجاب بمينريخ وتجربته فاختاره موضوعاً لرسالته ، التي تحوى في الواقع معظم ارآءه السياسية والتي انعكست في معظم كتاباته فيما بعد واهمها ايمانه بتوازن القوى كأفضل اداة للاستقرار والسلام ، هذه النظرية التي يعبر عنها في كتبه ومقالاته بما في ذلك كتابه الأخير (الدبلوماسية) .

ويرى الاستاذ محمد حسنين هيكل في تقديمه لترجمة اطروحة كسنجر ، ان اهتمام كيسنجر كان اهتماماً (بفترة وليس مجرد اهتمام بميترنيخ . ذلك ناجم عن اعتقاد كيسنجر (بأن الحاضر لايكرر الماضي وانما قد يتشابه معه وان مهمة المؤرخ ان يعرف ويحدد اوجه التشابه واوجه الخلاف بينهما جميعاً . . . . وإذا كانت الحوادث والرجال لايتكررون ، فإن للتاريخ قوانينه الثابتة ، وقد اراد كسينجير ان يلعب في التاريخ المعاصر لعبة متيرنيخ لكن مع سطوع نجمه فإنه في رأينا نجح في فهم ميترنيخ وفشل في تجسيد دوره .

ثانياً ـ الولايات المتحدة الأمريكية...

(ودور الموازن) في الحرب العالمية الأولى . . .

١٢٥ – وفي التاريخ الحديث تبرز بوضوح تجربة سياسية أخرى ، استطاعت ان تلعب في اللحظة الحاسمة دور الموازن ، لتحول بلادها من بلد اتصف بالانعزالية إلى قوة عظمى ، نتيجة الفهم الدقيق لقوانين العلاقات الدولية ، واهمية فهم دور الموازن ، انها تجربة (ويلسون) الرئيس الامريكي الاسبق (١٩١٢ – ١٩١٨م) فكيف حدث ذلك ؟

في عام ١٨٩٨م حققت الولايات المتحدة الامريكية ، انتصارها النهائي على الامبراطورية الاسبانية ، وهي في طور الانكماش ، لتسلبها آخر ماتبقى من ممتلكاتها في البحر الكاريبي ، حين تدخلت لصالح الثائرين الكوبيين ، المتمردين ضد الحكم الاسباني منذ عام ١٨٩٥م بعد ان حصلت على ذريعتها ، بتفجير سفينة حربية امريكية في ميناء هافانا ، فحاربت مع الثائرين وحسمت الحرب بسرعة لمصلحتها فجردت اسبانيا من آخر ممتلكاتها في كوبا والفلبين أيضاً ومنذ ذلك التاريخ ضمنت الولايات المتحدة الامريكية ، سيطرتها على العالم الجديد ، عالم غرب المحيط وأصبح من الواضح لدول أوروبا الغربية ، بان منطقة البحر الكاريبي كانت منطقة «نطاق سيطرة امريكي» لايسمح لأي دولة أخرى بالتواجد فيها وان للولايات المتحدة الحق بالتدخل في املاء السياسات عندما ترى ضرورة لذلك[١١٨] .

كان ذلك هو احد السمات المميزة للسياسة الامريكية في اوائل القرن

---

١١٨) دانيال براو – العالم في القرن العشرين – ترجمة ونشر مركز الكتب الاردني – ١٩٩٠م – ص٢٣ .

العشرين ، ولكي تكتسب هذه القاعدة وجهها العادل ، فقد انتهجت السياسة الامريكية مبدأها الآخر ، وهو الانعزال عن مشاكل ونزاعات العالم القديم والنأي بنفسها عن الصراعات الأوربية ، لتقيم مع الأمم الأوربية علاقات متوازنة تقوم على التبادل التجاري الذي يضمن للاقتصاد الامريكي نموه وازدهاره ، والذي يسمح لامريكا بان تطور على مهل تجربتها ونموذجها السياسي والاقتصادي دون هزات ستنشأ عن الانغماس في الصراعات الأوربية ، وقد ساعد الولايات المتحدة الامريكية على تحقيق السيطرة ، والانعزال موقعها الجغرافي البعيد المعزول بطبيعته عن مشاكل ومطامح العالم القديم ، خاصة بعد ان نجحت في شق قناة بنما ، فاوجدت لنفسها اسواقاً وطرقاً للتجارة كفلت لها حياة متطورة ومزدهرة وهادئة .

١٢٦ - في تلك السنوات نفسها كان القرن البلوماسي يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمهد لعصر جديد كانت الحرب العالمية الاولى بوابة الدخول إليه ، فقد اندلعت عام ١٩١٤م الحرب العالمية الإولى بين دول وسط أوربا (المانيا والنمسا) من جهة ودول شرق وغرب أوربا (روسيا وفرنسا وبريطانيا) من جهة أخرى ، نتيجة لطموحات المانيا والنمسا في التوسع والهيمنة ولتحقيق مكاسب اقتصادية ما كان يسمح بها الوضع الدولي القائم ، ولقد سعت أطراف الحرب بعد اندلاعها إلى توسيع التحالفات ، فوجدت دول وسط أوربا ضالتها في الامبراطورية العثمانية ، وهي التي تصورت ان الحرب ستهيء لها فرصة الثأر ممن سلبوا ممتلكاتها وان النصر سيضمن لها عودة ممتلكاتها في الشرق الاوسط والبلقان ، وهكذا فقد دخلت الحرب إلى جانب المحور ، وفتحت جبهات جديدة للحرب في الشرق الاوسط ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا . . . كما وسع الحلفاء تحالفهم بانضمام اليابان ، التي وجدت في الحرب فرصتها

المنتظرة ، لتوسيع سيطرتها في شرق آسيا ، كما كسب الحلفاء ، ايطاليا عام ١٩١٥م التي اندفعت إلى الحرب لمنع انتصار أوربا الوسطى ، الذي كان من المحتم ان يكون على حسابها أيضاً ، خصوصاً وان تركيا غريمتها الاساسية على ليبيا قد انضمت إلى الطرف الآخر ، والذي سيؤدي إنتصاره إلى تراجع طموحاتها التوسعية وهكذا إندفعت أوربا في حربها الدامية ، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة الامريكية تنعم بعزلتها ، بعيدة عن الحرب وفجائعها ولم تلعب سوى دور الممول والتاجر ، فبينما كان المتحاربون يحشدون الجيوش والموارد من اجل الحرب ، فإن الإقتصاد الإمريكي وصل إلى ذروة إزدهاره إذ ازدهرت صناعتها وزراعتها ليس لمواجهة متطلبات مواطنيها وحسب بل لمواجهة متطلبات الحرب الاوربية ، في ميادين الأسلحة وغيرها من المواد . . . ولقد اعلن الرئيس (ويلسون) المنتخب عام ١٩١٢م ، حياد الولايات المتحدة الامريكية ازاء هذه الحرب ، واستطاع ان يبقي بلاده خارج النزاع الكوني ثلاث سنوات ، كانت كفيلة بانهاك الأمم الاوربية جميعها ، وقد كان انهاك الجميع ، هو الظرف الامثل لجعل حافظ الميزان هو اللاعب الأساسي في السياسة الدولية وهو القوة الباقية التي تجعله محط انظار جميع القوى المتحاربة .

ولأن على الموازن ان يتدخل في الظرف المناسب ، فقد اختار ولسون صيف عام ١٩١٧م وقتا لتدخله وهو الذي استنتج منذ وقت ، ان دخول أمريكيا الحرب أصبح مسألة حتمية تمليها اعتبارات دولية ووطنية ، لكن فن السياسة هو في اختيار اللحظة لتاريخية المناسبة . . . . وهكذا إختار ويلسون وقته المناسب للتدخل وفق الخطوات والاعتبارات الآتية : -

- لقد رفع (ويلسون) اثناء حملته الانتخابية شعار (جعل العالم مكانا آمناً

للديموقراطية) ، وهو شعار لايسمح بالاستمرار في خط الانعزال إلى نهايته ، كما ان الحدود الوطنية وحدها لاتتسع لمن يظن ان عليه رسالة عالمية يجب ان يؤديها ، وبغض النظر عن حقيقة ممارسة السلطة في اي نظام ، فإن امريكيا على الرغم من اعتزازها بتجربتها السياسية وبمؤسساتها فإن الكثير من الامريكيين كان يأخذه الاعجاب بنظام الحكم البريطاني ، في الوقت الذي يتبرمون فيه من الهيئة العسكرية الصارمة للنظام الالماني . . . ولقد كانت الحرب في وجه من وجوهها ، كما هو حال اي حرب ، تصادم بين نظامين يختلفان في الهوية الثقافية والعرقية والمبادئ قبل ان تتصادم المصالح والمنافع ، ذلك ظرف سيؤدي تحت ضغط الانحياز لهوية ما فضلاً عن ضغوط الرأي العام إلى الانحياز ذات يوم لطرف من أطراف الحرب .

- على الرغم من البون الجغرافي الشاسع ووجود المحيط الفاصل بين عالمين ، فقد كان الامريكيون ، ولازالوا ، مشدودين بروابط قوية وعميقة تربط المهاجرين بالوطن الام (بريطانيا) التي هي طرف اساسي من أطراف الحرب ، فقد كان انتصارها يمثل ضمانة اساسية للأمن والاقتصاد الامريكي وهي التي تهجع في طرف المحيط حارساً اخير يضمن سلامة الشواطئ الامريكية وطرق مواصلاتها ، وهو اعتبار كان سيدفع للتدخل عندما يتعرض الوطن الام لمحنة كانت آتية . . . .
- أن انتصار المانيا في الحرب ، وفرض هيمنتها على أوربا كان من المحتم ان يخلق عملاق عالمي سيصعب التعايش معه ، وهو وضع لن تستطيع تحمله الولايات المتحدة الامريكية ذات الاقتصاد المزدهر والطامحة للمزيد من النمو والانتعاش .

● الاعتبارات الانتخابية ، وهي احدى العوامل الأساسية المحركة للسياسة الخارجية الامريكية ، إذ دفعت السياسي الامريكي إلى البحث عن دور عالمي يضيف إلى فرصه ، فرصةً أخرى للنجاح ، ولقد كان شعار (ويلسون) الأكثر شعبية (لقد بعدنا عن الحرب) . . . في وقت كان فيه يسعى وسيطاً (لسلام لا نصر فيه) ، والوساطة هي دائماً الخطوة الاولى للتدخل المباشر وذلك بعد ان تستنفذ الوساطة كل وسائلها .

● وهكذا فقد رفع (ويلسون) في بداية الحرب ، شعار حياد امريكيا في انتظار اللحظة المناسبة للتدخل الفعال ، وفي عام ١٩١٧م وقد كان الشعار المعلن هو الحياد ، قام الرئيس الامريكي باولى مبادراته من اجل السلام ، في خطاب عام القاه في مطلع ١٩١٧م دعى إلى (سلام دون انتصار) وانهاء الصراع بتوازن قوي جديد يقوم على (التوافق في القوى) واحلاله محل سياسة القوة اي العمل الدولي من اجل السلام والدفاع عنه(١١٩) .

١٢٧ - ولأن الحرب لم تحقق غاية اي من الطرفين ، كما ان تكاليفها كانت ابهظ من سلام في منتصف الطريق ، فقد رفضت دعوات سلام جاءت في غير موعدها ، رفض الالمان لانهم اعتقدوا ان مفتاح النصر كان قريباً من ايديهم ، فقد كانت روسيا وهي احد أطراف التحالف الاساسية تعيش مخاض الثورة ، منقسمة على نفسها ، مشغولة بصراعاتها الداخلية ، ذلك يخلق احد الظروف المناسبة للالمان لتركيز جهدهم الأساسي في الجبهة الغربية . . . ولم يمض وقت طويل بعد انتصار الثورة البلشفية حتى وقعت في مارس عام ١٩١٧م معاهدة سلام ، كانت استسلامية في مضمونها ، تقضي باحتلال بعض مناطق شرق روسيا وانشاء حكومة في (اوكرانيا) موالية تماماً

---

١١٩) دانييل براو - المرجع السابق - ص٥٠ .

للحكومـة الالمانيـة ، وقـد وقع الثـوار هذه المعـاهدة تحت ضـغط اوجـدته الاضطرابات السياسية المتزايدة الباحثة عن العيش والسلام كما ان الجيش الروسي عشية التوقيع لم يكن موجوداً كقوة فعلية محاربة ، ولقد دفع لرفض المانيا لدعوات السلام ، احد التطورات الأكثر استراتيجية في ذلك الوقت ، وهو ظهور الغواصة وامتلاك الجيش الالماني لأكثر من مائتين منها ، كانت كافية لفرض حصار على الشواطيء البريطانية الغربية ، واغراق اي سفينة يخطر لها ان تتحدى الحصار ، وذلك يكفي لخنق بريطانيا ونشر الاضطراب والفوضى في قطاعها الاقتصادي ، كما يؤدي إلى هزيمة الحلفاء نهائياً ، كما ان هزيمة الجيش الايطالي عام ١٩١٧م في معركة (كابوريتو) قد شجع المانيا إلى عدم الإلتفات لدعوى السلام ، وهي التي وجدت ان اهدافها لم تعد بعيدة . وبقدر ما كانت المانيا رافضة للسلام ، فقد فرضت على الآخرين مواقف متصلبة ، فقد اشترطوا انسحاب المانيا من جميع الاراضي الروسية والفرنسية ، ومنح الشعوب الاوربية الصغيرة حقوقها الوطنية المشروعة ، وهكذا فقد ذهبت دعاوى ويلسون من اجل السلام ادراج الرياح . . .

أن اعلان الحياد وفشل جهود التوصل للسلام كانت تضع الولايات المتحدة الامريكية في حقيقة الامر على عتبات الحرب ، التي كانت بشكل ما شريكة فيها ، بصورة ليست مباشرة ، فقد كان الاقتصاد الامريكي المصدر الرئيسي لامدادات الحرب لكل من المتحاربين ، غير ان سيطرة الاسطول البريطاني قد حرم دول وسط أوربا من امدادات السوق الامريكي ، وهو أمر قبلته الولايات المتحدة الامريكية ، ذلك ان اسواق بريطانيا وفرنسا وغيرها من دول التحالف كانت كافية لإستيعاب منتجات السوق الامريكي ، حتى ان احتياطي بريطانيا من الذهب ورؤوس الاموال قد نفذت في غضون عام

١٩١٥م ، لتلجأ إلى البنوك الامريكية للاقتراض لتمويل البضائع التي تحتاجها من السوق الامريكي .

أن هذه الاوضاع ، قد خلقت وضعاً مثالياً للاقتصاد الأمريكي للنمو والازدهار ، وأصبحت الامدادات الامريكية ، العصب الرئيسي للمجهود الحربي للحلفاء ، وعندها أصبح الحياد الامريكي مستحيلاً فيما يتعلق بالعلاقات التجارية[١٢٠] . فقد ظهرت الغواصات الالمانية في عرض المحيط ، متحدية السفن المحايدة ، بما في ذلك السفن الامريكية ، وكان على (ويلسون) اما الانعزال مجدداً أو دخول الحرب بصورة سافرة لمصلحة الحلفاء .

إن الانعزال في ذلك الوقت ، كان سيجر إلى نتائج مميتة للاقتصاد الامريكي لانه سيحرمه من شريان التصريف الرئيسي ويعود به من جديد إلى الركود والانكماش ، كما ان استمرار الحياد في وقت انعقدت فيه السيطرة لدول وسط أوربا ، وأصبحت قاب قوسين أو ادنى من الانتصار ، وهو الأمر الذي سيشكل اكبر الاخطار على الأمن الامريكي بعد الحرب ، خصوصاً وان المانيا وهي على ابواب الانتصار ، قد بدأت تتدخل في المدى الحيوي المباشر للولايات المتحدة الامريكية باغراء المكسيك للانضمام إليها ضد جارتها .

أن هذه الظروف قد خلقت الوضع المثالي للموازن ليلعب دوره الايجابي في ترجيح كفة على الأخرى في الوقت المناسب ، وفي شهر ابريل عام ١٩١٧م صوت الكونغرس الاميركي بطلب من الرئيس على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، وادان حرب المانيا ضد البشرية ، وفي صيف عام ١٩١٨م ، تدفق على أوربا مليون جندي امريكي ، ولم يمض غير بضعة شهور لتتبخر

---

١٢٠) المرجع السابق - ص ٥٦ .

احلام المانيا في النصر ، ولينقلب الوضع إلى هزيمة ساحقة ترتب عليها انحلال امبراطورية النمسا و المجر وأضعاف المانيا واهانتها .

ولم يقتصر دور الموازن على حسم الحرب ، بل استطاع وقد تحول إلى القوة العظمى في العالم ، ان يحدد شروط السلام وان يحدد لفترة ليست بالقصيرة شكل العالم الجديد ، فعلى الرغم من العبء الكبير الذي تحملته بريطانيا وفرنسا ، فإن دورهما قد تراجع ليتيح المجال للسيد الجديد ، لفرض رؤيته المتمثلة في نقاط ولسن الأربع عشرة الشهيرة ، والتي تمحورت حول حق تقرير المصير لجميع الشعوب الاوربية ، والعمل على اقامة الحكومات الديموقراطية وانشاء منظمة دولية لحماية السلام وهي المبادئ التي قام عليها النظام العالمي الجديد في ذلك الوقت[١٢١] .

---

١٢١) المرجع السابق – ص ٢٥٨ .

ثالثا: الولايات المتحدة الامريكية ودور الموازن من جديد

الحرب العالمية الثانية

١٢٨ –ما ان انتهت الحرب العالمية الاولى التي كان من ابرز نتائجها ظهور الولايات المتحدة كأعظم قوة بما يمكنها القيام بدور القيادة العالمي .

لكنها انسحبت من المسرح العالمي بسرعة ، ومن المحتمل ان سبب ذلك هو عدم خبرتها الكافية للقيام بدور الزعامة العالمية أو كأنها كما يرى البعض وجدت نفسها من دون مقدمات في موقع الزعامة ، ودون استعداد للقيام بهذا الدور ، كما ان الشعب الامريكي الذي شعر لفترة طويلة بالراحة والأمان في ظل العزلة ، لم يكن مقتنعا حتى ذلك الوقت ، بان من مصلحته القومية والطبيعية ان يشارك بصفة مستمرة فيما يجري في النصف الشرقي من الكرة الارضية[١٢٢] .

ومن المرجح ان الرئيس ويلسون ، وهو بطل لعبة التوازن في الحرب العالمية الاولى ، قد اعتبر ان المرحلة المقبلة ستكون فترة سلام وسيكون ميدان التنافس بين الامم ، ذا طبيعة اقتصادية ، وهو ما دفعه إلى الانعزال للنهوض بالاقتصاد الامريكي ، استعداداً لمجابهات من نوع آخر ، وعليه ان يستغل وقت انشغال أوربا في تضميد جراحها ، باحداث قفزات أخرى للاقتصاد الامريكي ، وها هو يصور الحرب العالمية الاولى بانها (الحرب النهائية من اجل حرية الانسان) مفترضاً ان تكاليف الصراع الباهظة ، سوف تثني الأمم عن العودة إلى

١٢٢) بروستر – ك – ديني – نظرة شاملة على السياسة الخارجية الامريكية – ترجمة د . ودودة عبد الرحمن بدر – الدار الدولية للنشر والتوزيع – القاهرة – بدون تاريخ ط١ – ص ٦٣ .

نظام الأحلاف العسكرية الذي كان يؤدي في الماضي على نحو محتوم إلى الصراع [١٢٣] .

ولقد كان ويلسون على خطأ - هذه المرة - في فهم قوانين التاريخ ، فقد استغل حلفاؤه مثاليته ، عندما كان يصوغ خططه من اجل عصبة الامم ، وافسدوا تدبيره ، كما ان معاهدة فرساي بما فرضته من شروط ثقيلة على المانيا ، واخراجها من مجتمع الأمم باعتبارها عضواً له حقوقه ومسؤلياته ، كانت كافية ، عند اول فرصة ، من تجديد الصراع فعادت الولايات المتحدة الامريكية مرة أخرى إلى عزلتها ، ولم يدافع ويلسون عن عصبة الأمم المتحدة دفاع الزعيم العالمي ، وهو الذي جعل التنظيم الدولي احد مبادئه الرئيسية ، فإنكافأ إلى الداخل وإلى الصراع على السلطة من جديد ، بل ان الولايات المتحدة الامريكية وفي احداث عالمية هامة ، بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، لم تشأ المشاركة ولم يتجاوز دورها دور الدول الصغيرة ، فلم تحرك ساكناً عند غزو اليابان لمنشوريا عام ١٩٣١م ولم يتجاوز موقفها التنديد ورفض الاعتراف بشرعية التوسعات الاقليمية ، ولو كانت زعيمة عالمية أو راغبة في هذا الدور لكان عليها القيام بعمل ايجابي اقله حشد شركائها السابقين لمواجهة الغزو الياباني .

وبينما كانت تصعد إلى السلطة في أوربا وآسيا ، الانظمة الاستبدادية معبأة الجماهير وموارد الدول نحو الحرب ، فإن الولايات المتحدة الامريكية كانت سعيدة بانعزالها ، مندفعة نحو برامج الانعاش الاقتصادي ، ولم تكن السياسة الخارجية سوى موضوعا ثانوياً في حياتها ، بل ان الاعوام التي

---

١٢٣) روبرت كانتور - السياسة الدولة المعاصرة - ترجمة احمد طاهر - مركز الكتب الاردني - عمان - ١٩٨٩م - ص٢٠٦ .

شهدت صعود نجم هتلر في أوربا متوعداً بالثأر واقامة الرايخ الثالث ، شهدت أيضاً اصدار قوانين الحياد في الولايات المتحدة اعوام ٣٥ ، ٣٦ ، ١٩٣٧م .

ان قوانيين الحياد ، كانت رمز لسياسة العزلة التي إنتهجتها الولايات المتحدة الامريكية ، ولقد صدرت هذه القوانيين من الكونغرس دون أية معارضة من (فرانكلين روزفلت) ، على الرغم من انه احد المؤيدين لسياسة المشاركة التي سبق ان انتهجها الرئيس (ويلسون) وشارك فيها باعتباره وزير للبحرية في ذلك الوقت ، بل ربما كان ولأسباب انتخابية بحتة قد ساعد على اصدار هذه القوانين . . .

١٢٩ - في ذلك الوقت كانت أوربا ، تشهد تكوين التحالفات التي لابد وأن تقود إلى التصادم المحتوم ، ففي عام ١٩٣٦م استطاع هتلر ان يدفع بعقيدته النازية إلى السلطة ، وهو المجروح بهزيمة الحرب العالمية الاولى ، والمكبل باغلال (فرساي) التي رآها مهينة لكرامة امته ، وقبله كان موسوليني بعقيدة مشابهة يتوعد باعادة امجاد الامبراطورية الرومانية ، وكانت العسكرية اليابانية في شرق آسيا صاعدة وباحثة عن دور في المحيط الباسفيكي ، وهكذا فقد التقت الأهداف وتشابهت خصائص الانظمة السياسية لتكوين تحالف قوى يستطيع تحطيم توازن القوى القائم وفرض شروطه ، وفي الطرف الآخر كانت الديموقراطية الغربية بزعامة بريطانيا وفرنسا ، امبراطوريتين راضيتين بنتائج الحرب العالمية الاولى ، والتوازن الذي نجم عنها ، و تعيش في ظل انظمة سياسية ذات قيم متشابهة تخلق الظروف الموضوعية لتشكيل نواة تحالف ضد القوى الاستبدادية (ثالوث المحور) ، وفي عام ١٩٣٩م اندلعت الحرب ، وفي زمن قصير استولى هتلر على معظم الاراضي الاوربية ، وسقطت فرنسا بعد مقاومة لم تستمر غير ستة اسابيع ، ولم يجنب بريطانيا الهزيمة غير موقعها

الجغرافي الحصين ، كما انعقدت السيطرة للاسطول الياباني في المحيط الباسفيكي الذي بسط سيطرته على الصين وسنغافورة وبوروما ومعظم الممتلكات البريطانية ، حتى بحر الكورال القريب من استراليا ، وعلى الرغم من حجم الصراع العالمي ، والانتصارات الالمانية واليابانية ، التي حطمت ميزان القوى ، ووضعت تحت تصرف هاتين الدولتين سكان ومصادر الامبراطوريات الواسعة ، فإن الولايات المتحدة الامريكية قد عملت في عهد الرئيس (روزفلت) على اعداد أمريكيا للمعركة ، لانه كان يعلم ان احداث الحرب ستخلق له ذريعة التدخل ، لذلك بدأ في توسيع جيشه منذ اوائل عام ١٩٤١م ، وأنشأ فرقة الاطلسي وهي اول قوة امريكية بحرية في الاطلسي منذ عام ١٩١٨م[١٢٤] .

كما نمى سلاح الجو الامريكي حتى غدى اعظم قوة جوية ، اما القوات البرية فقد أصبحت ثاني اعظم قوة بعد الاتحاد السوفيتي .

ان الاستعداد للحرب في الوقت المناسب ، والمساعدات التي قدمت لبريطانيا والاتحاد السوفيتي بعد ذلك ، بمقتضي قانون الاعارة والتأجير ، قد احدثت تحولاً هاماً في الاقتصاد الامريكي ، حيث بدأ الانتاج الصناعي والزراعي يتزايد بشكل هائل في الولايات المتحدة الامريكية ، كما ان خلق الملايين من فرص العمل بعد فترات الركود قد هيأ المجتمع الامريكي للمشاركة العالمية ، وسد ذرائع كثيرة كانت تدعو للالتفات للمشاكل الداخلية حتى إذا جاءت فرصة التدخل كانت الدولة ومؤسساتها قادرة عليه . . ولقد اعطى الهجوم الياباني على السفن الامريكية في (بيرل هاربر) الحجة للرئيس (روزفلت) لاعلان الحرب على دول المحور في الوقت المناسب عام ١٩٤١ .

١٢٤) بروستر – ك – ديني – مرجع سبقت الاشارة إليه – ص٧٣ .

أن الولايات المتحدة الامريكية لم تصبح مجرد شريك من بين الشركاء بل كانت تتمتع بدور القيادة والتوجيه طيلة ماتبقى من سنوات الحرب العالمية الثانية وذلك بحكم ضخامة مجهودها ومساعداتها التي قدمتها لدول الحلفاء والتي من دونها كان صمودهم مستحيلاً . . . . لقد كان انتصار الحلفاء على المحور ، في الحرب العالمية الثانية ثمرة جهود مشتركة لأطراف التحالف وثمرة تضحيات ضخمة قدمتها كافة الشعوب الكبيرة والصغيرة ، وعلى الرغم من ان العبء الانساني في هذه الحروب قد وقع معظمه على أطراف التحالف الأخرى ، وفي مقدمتهم الاتحاد السوفيتي الذي ضحى بما يقرب من عشرين مليون من مواطنيه ، وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة الامريكية في ميدان التضحيات الانسانية كانت الاقل من بين المتحالفين جميعاً ، لكن كان على الجميع ان يعترف بقيادتها وكانت القرارات التي تصدر عن واشنطن هي الأهم تأثيراً في مجرى الحرب . وعندما وضعت الحرب اوزارها ، وجد روزفلت نفسه الاعظم نفوذاً بين قادة الغرب ، لأرساء القواعد التي سيبنى عليها عالم مابعد الحرب ، ولقد كانت (هيروشيما ونازاكي) في الجوهر رسالة إلى قادة العالم بتحول مركز القوة فيه .

أن (هيروشيما وناجازاكي) وفق تقديرات الخبراء العسكريين لم تكن عمل لازماً لنهاية حرب كان من الممكن ان تحسمها الوسائل التقليدية ، ولكنها رسالة سياسية تفيد بتحول مركز الثقل نحو قطب عالمي جديد ، سيكون لعقود من الزمن المتحكم في اقدار العالم ومصائره ، وليعلن موت سياسة العزلة التي انتهجتها الولايات المتحدة الامريكية ما يقرب من قرنين . . .وهكذا فإن وضع الموازن يعود مرة أخرى ليعطي صاحبه أفضل الاوضاع بين اللاعبين الاساسيين في العلاقات الدولية .

رابعاً ـ فرنسا ودور الموازن

الجنرال شارل ديغول ووضع العالم على عتبة الانفراج الدولي

١٣٠ - بقدر ما خلقت الحرب العالمية الثانية من دمار واحزان ، فقد كان من ضمن ميراثها بروز امبراطوريتين عظيمتين ، هما الولايات المتحدة الامريكية واتحاد الجمهويات الاشتراكية السوفيتية ، فقد خرجت الولايات المتحدة الامريكية من هذه الحرب قوة عظمى لم تصب من جراء الحرب بأي ضرر مباشر على مدنها ومواطنيها وامكانياتها ، ذات اقتصاد مزدهر ورفاهية تميزها عن جميع الامم ، وفوق ذلك جميعه تسلحها بصورة منفردة بأخطر سلاح عرفه التاريخ الانساني وهو السلاح النووي ، كما خرج الاتحاد السوفيتي من هذه الحرب على الرغم من ضخامة التضحيات الانسانية والمادية ، قوة عظمى آخرى ، مسلحة بأسلحة تقليدية متطورة وبعدد هائل من الفرق العسكرية غير المعطوبة ، التي يمكنها ان تنطلق مجددا في اي اتجاه لتحقيق أهداف الدولة ، كما خضع للاتحاد السوفيتي وأصبح تحت تصرفه وهيمنته ، جزء غير قليل من اراضي أوربا وآسيا ، كما أصبحت الشيوعية تحت حراب جيوشه عقيدة رسمية لعدد من الشعوب ، وقد توج ذلك ، بوصوله للأسرار النووية بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب العالمية الثانية ، ليصبح القطب الآخر في توازن دولي محفوف بكثير من المخاطر . . .

أن التوازن الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية ، يعد من اخطر اشكال التوازن التي عرفها العالم في تاريخه ، فهو توازن يقوم على تعارض شديد في القيم والافكار والعقائد التي تدين بها أطرافه ، وهو توازن يقوم لاول مرة في ظل الرعب النووي ، الذي يجعل الحرب هي اللعبة الاولى والأخيرة في الوقت

نفسه ، وهو اخيراً توازن بين طرفين يحتكران السياسة الدولية دون أطراف أخرى يمكن ان تسهم في تعطيل اساليب الكبار ، فقد خرجت المانيا مهزومة ومحطمة وساحة للصراع بين العملاقين من اجل ترتيب اوضاعها ، ولم يكن لايطاليا المهزومة اي شأن اما بريطانيا فقد ادركت ان القيادة قد افلتت من يديها ، وانتقل مركز الثقل العالمي إلى مستعمراتها السابقة الولايات المتحدة ، اما فرنسا فقد خرجت منهكة مجروحة ومخربة ، ومع عظمة حكومة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول ، التي كان يمكن ان تجعل لها بعض الشأن في السياسة الدولية ، الا ان صراع الاحزاب قد ذهب بهذه القيادة في وقت مبكر ، وسرعان ما تهاوت هيبتها في مناطق نفوذها فتجرعت الهزائم المتتالية في الجزائر والهند والصينية وافريقيا . اما دول أوربا الأخرى ، فارتمت كغيرها في احضان العملاق الامريكي ، الذي تمت السيطرة الإقتصادية له بمشروع مارشال ، بعد ان فرضت أمريكيا سيطرتها السياسية والعسكرية على دول غرب أوربا ، ودمجها في نظام دفاعي موحد يخضع بشكل كلي للسيطرة الامريكية . ولم يكن العالم الثالث وبعض دوله حديثة الاستقلال ، وبعضها الآخر لازال يكافح من اجله ، لم يكن له أي حظ في أن يلعب دور محسوس على المستوى العالمي . فلم يبق في هذه الحالة غير القطبين الكبيرين يستعرضان القوة في هذا التوازن الخطر الذي يمكن ان يختل في اي وقت .

ان هذا الوضع قد استمر لفترة كانت مملوءة بالصراعات بين العملاقين وصلت إلى حدود التصادم في بعض الاحيان ، وفي هذه الظروف برز مرة أخرى للحكم الجنرال ديغول ، الذي اقام سياسته الخارجية على الحقائق والاستنتاجات الآتية : -

أن تجديد الصدام المسلح بين القوتين العظميين قد أصبح احتمالاً ضعيفاً ،

فليس للاتحاد السوفيتي أية مصلحة في شن الحرب ، فلا المصالح العسكرية أو الاقتصادية تسمح بذلك ولا حتى العقيدة الشيوعية المتهمة بالتوسع ، فعلى الرغم من من الأعباء المرهقة التي تحملها الاتحاد السوفيتي ، إلاَّ انه خرج من الحرب العالمية الثانية رابحاً ، فقد فرض نفسه قوة كبرى وانضمت إليه عوالم بأكملها ، اما ضمن حدود دولته السياسة أو تحت هيمنة جيوشه كما حصل على مكاسب اقتصادية هائلة بالتعويضات التي فرضت على المانيا بعد الحرب وما حصل عليه بشكل مباشر من المصانع التي طالتها ايديه في الاراضي الالمانية ، كما وانه وقد حصل على هذه المكاسب في أوربا ، فإنه قد ولى وجهه نحو آسيا لملء كل فراغ احدثته الحرب العالمية الثانية ، لهذه الأسباب فإن مصلحة السوفييت أصبحت في البحث عن السلام وليس الحروب المشكوك في نهايتها ، خصوصاً بعد الدروس الاخيرة في الحرب ، التي حملتها هيروشيما وناجازاكي ، كما ان الحرب قد فرضت على شعبه تضحيات كبيرة وتعاسة بلا حدود وحرمان لايمكن الاستمرار فيه ، وعلى الرغم من عقيدة المجابهة بين الشيوعية والامبريالية الا ان التعايش السلمي كان قد ترسخ باعتباره أفضل طريق للتقدم . . .

● لكن إستبعاد الحرب في نظر ديغول ، لم يلغ احتمالاتها التي يجب التهيؤ لها على انها اسوأ احتمال ، ولقد اثبتت الاحداث في برلين وتركيا وايران واليونان وغيرها ، ان العملاقين قد يصلان إلى شكل من اشكال المجابهة ، ولكنهما قادرين على تقديم التنازلات المتبادلة للوصول إلى التسويات ، كما ان الولايات المتحدة الامريكية لاتملك مصلحة حقيقة في الحرب ، خصوصاً بعد استكمال الاتحاد السوفيتي لقدراته العسكرية بالسلاح النووي ، وان اي حرب يكون ميدانها دول أوربا ستحمل لامريكيا كوارث

اقتصادية ، لايتحملها الرأي العام الامريكي ، خصوصاً مع تجدد دعاوي الانعزال بعد ان حققت الحرب اغراضها المتمثلة في القضاء على النازية .

وحيث ظهرت ازمات بدت جدية بين العملاقين ، وارعبت أوربا من خطر تجدد الحرب ، فإن ديغول كان يعتقد ، واعتقاده كان على حق ، بأن من طبائع الدول العظمى ان تخلق للشعوب والدول عدواً وهمياً ، وان تبالغ في تصويره لتضمن زيادة هيمنتها وزيادة تبعية الآخرين لها وقد كان اعتقاده بان الولايات المتحدة الامريكية ، تبالغ في تصوير الاتحاد السوفيتي على انه مصدر خطر ، لتجعل أوربا الغربية تسير وراءها .

ان شارل ديغول لم يكن يخفي اعتقاده ، فقد المح ببعضه وصرح ببعضه الآخر إلى وزير الخارجية الامركي (جون فوستر دالاس) عندما جاءه رسولاً فور توليه السلطة في فرنسا ، دون ان يتخلى عن فكرة الاستعداد لاحتمالات الحرب[١٢٥] .

١٣١ - أن هذا الاحتمال قد اوحى لديغول بجزء من سياسته في وجوب استقلال فرنسا .

● استنتج الجنرال ديغول ، ان فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية قد أصبحت آمنة ولفترة زمنية طويلة ، وانها تخلصت من حالة التوتر والشعور بالخطر الذي فرض عليها طيلة القرون الماضية ، فالمانيا غريمتها الاساسية وسبب نكباتها وهزائمها ومصدر الخطر الرئيسي على كل أوربا ، قد أصبحت محطمة

---

١٢٥) الجنرال شارل ديغول - مذكرات الأمل - الجزء الرابع (التجديد) ترجمة د . سموحي فوق العادة - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق ص ٢٨١ وما بعدها .

ومهزومة وان عافيتها لن تعود لها الا بعد عقود عديدة ، كما انها تأمن جيرانها الآخرين ، فقد ضمنت اسبانيا التي أصبحت تعيش في هدوء بعد توترات طويلة ، ولاخطر من بلجيكا وهولندا أو اللوكسمبورغ ، اما سويسرا فهي دولة حيادية وصغيرة .

ان هذا الأمان في نظر الجنرال ، يملي على فرنسا ان تستأنف مسؤليتها العالمية وان الجنرال وهو شديد الاعتزاز والكبرياء ، يعتقد كما يعتقد الفرنسيون والفرنسيات في نظره ، بان لاوجود لفرنسا دون ان تتولى مسؤولية عالمية ، وهي مسؤولية لاتستطيع ان تنهض في ظل التبعية التي تعودتها فرنسا في حقب طويلة ، وهو رجل من نوع قيادي لايحتمل ان يضع بلاده تابعة للانكلوسكسونيين لأسباب ثقافية ونفسية وتاريخية عديدة ، لذلك فإنه فور توليه زمام السلطة في بلاده قد اعلن عن نهجه الجديد المستقل .

● لقد استنتج الجنرال ديغول ان مصلحة فرنسا هي في استتباب السلم فهي قد خرجت من الحرب منهكة ، كما ان موقعها الجغرافي يجعلها عرضة للخطر في اي حرب ، ومساحتها صغيرة وقابلة للإختراق ويصعب الدفاع عنها كما أن عدد سكانها ضئيل فالحكمة توجب عليها ان تكون بطلة السلم ، ولم يجد ديغول في ظل تلك الاوضاع العالمية ، اي دولة قادرة على ان تقود السلم غير فرنسا ، وقد كان يقول (إذا كان ثمة صوت يمكن ان يكون مسموعاً أو مسعى قد يكون ناجحاً لاقامة نظام دولي فهو في الواقع صوت فرنسا ومسعاها [١٢٦] .

فلم يعد في أوربا الغربية ، دولة تمتلك القدرة أو الارادة للعب دور من اجل

١٢٦) المرجع السابق – ص ٢٢٥ وما بعدها .

السلام غير فرنسا ، التي يرى ديغول ان القدر نفسه ، الذي حقق نجاة فرنسا خلال حربين عالميتين يريد لها ان تلعب دوراً عالمياً ، فهي في وضع نادر ، لاتطالب بأي شيء يملكه الآخرون ، كما انه ليس لدى هؤلاء ما يحملها على المطالبة بما يملكون ، وانها لاتكن اي حقد لاي من الدولتين العظميين ، بل انها على النقيض من ذلك تكن لشعبيها صداقة قديمة العهد ، كما ان القطبين يشعران نحوها بعطف استثنائي[١٢٧] . كما ان لفرنسا نفوذا واسعاً لدى كثير من الشعوب ، بما فيها شعوب العالم الثالث ، التي توجه لها انتقادات مريرة مادامت لم تنته بعد من تصفية الاستعمار ، هذه الانتقادات التي ستتوقف حتماً حين تنتهي فرنسا من الانسحاب من مستعمراتها وهو ما عزم الجنرال على فعله ليتيح لفرنسا دورها ومسؤوليتها .

● استنتج الجنرال ديغول ان فرنسا ، مهما كانت عظمتها واستقلال سياستها فإنها لن تستطيع ان تلعب دوراً مسؤولاً ، مالم تحط نفسها بالسياج الأوربي وما لم تحشد أوربا حول رسالتها وما لم توظف جهود الاوربيين معها نحو السلام .

ان موقفاً تاريخياً كهذا لايتم بمجرد اعلان حسن النوايا ، أو الاكتفاء بالدعاية المظهرية أو بخلق تيار عاطفي قد يفشل عند اول امتحان ، بل يتوجب عمل مدروساً صابراً وامينا ، ولذلك فقد اعلن ديغول (ان سياستي تقوم على انشاء تحالف الدول الاوربية)[١٢٨] . . . . ومن المفارقات حقاً ان ديغول وهو احد صناع أوربا قد اتهم مبكراً بالقضاء على الأمل الاوربي ، فقد جاء ديغول

١٢٧) المرجع السابق - ص٢٢٥ .
١٢٨) المرجع السابق - ص٢٣٣ .

للسلطة في وقت وجدت فيه المنظمات الاوربية (الاتحاد الأوربي للطاقة الذرية) (ومعاهدة روما) وهي منظمات كانت تهدف إلى شكل من اشكال التوحيد الاوربي ، وتتويج ذلك بوحدة سياسية ، حكومتها الهيئة التنفيذية ببروكسل ، وقد كان ديغول معارضاً للوحدة الاوربية في ذلك الوقت ، وهو لايوافق على كيان يعلو الدول الاعضاء . فأوربا بالنسبة له امم واوطان لها خصائصها المتميزة ، ثقافياً وعرقياً وتاريخياً ونفسياً ، وهي في هذه الظروف ليست مهيأة ولايجب ان تكون كياناً واحداً ، ان ذلك (وطن صنعي ابتدعه دماغ المختصين) كما كان يقول ولقد كانت أوربا عند مجيئه يتنازعها تياران ، الأول بريطاني ويهدف إلى الحاق القارة وربطها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً بالعالم الجديد ، والثاني يدعو إلى وحدة القارة وحدة سياسية كاملة يتزعمه ويدعو له (والترهولشتاين) وهو الماني يرأس الهيئة التنفيذية ببروكسل ، وهو كما يقول ديغول ، بحكم جنسيته ، يجد في أوربا الاطار الذي قد تستعيد فيه بلاده مجاناً الاحترام والمساواة في الحقوق ، الذين افقدتهما اياها حماسة هتلر وهزيمته ، ثم اكتساب الاهمية الراجحة التي تضفيها عليها طاقتها الاقتصادية [١٢٩] .

ان ديغول قد صمم المعارضة الناجحة لكلا المشروعين ، لانهما غير واقعيين من الناحية السياسية ، كما انهما لايتلاءمان مع الدور الذي رسمه لفرنسا ولذلك فقد دعى إلى (أوربا أوربية) التي يتم تحقيقها ليس عن طريق دمج الشعوب ، ولا عن طريق جرها للنظام الاطلسي الذي ينفي اي امكانية لانشاء كيان اوربي صرف ، بل يمكن تحقيقها عن طريق تقارب دولها المنظم .

ولقد سعى ونجح في تكوين السوق الاوربية المشتركة من دول ست هي :

---

١٢٩) المرجع السابق –ص٢٥٠ .

(فرنسا ، ايطاليا ، المانيا ، بلجيكا ، هولندا ، لوكسمبورغ) بالتقارب المنظم البعيد عن الاحتواء والهيمنة ، ومن الطبيعي ان الجنرال لم يصل إلى اهدافه بسهولة ، بل وصل إلى ذلك في ظل معارضة شديدة ، كثيراً ما كانت تثيرها هولندا التي وجدها متجهة لإمريكيا وبريطانيا أكثر مما كانت متجهة لأوربا ، وفي ظل مقاومة ليست خالية من التهديدات الصريحة التي حملها إليه ، (هارولد ماكميلان) زعيم بريطانيا في لقاء باريس عام ١٩٥٨م حين يقول (ان السوق المشتركة حصار قارى ، لاتقبل به بريطانيا ، واني ارجو ان تتخلى عنه والا سندخل رحى الحرب ، ستكون في بدايتها اقتصادية ، حتماً ولكنها قد تمتد فيما بعد وعلى مراحل إلى مجالات أخرى[١٣٠] .

لقد نجح الجنرال ديغول في انشاء السوق الاوربية المشتركة ، على اسس منطقية ومنظمة حافظت على مصالح بلدانها واعطت فرنسا ثقلها الحقيقي في السياسة الدولية ، ولان الجنرال كان يشك ، وهو على حق ، في دور بريطانيا وعدم سلامة توجهاتها الاوربية ، فقد عارض طوال حياته انضمامها إلى السوق الاوربية المشتركة[١٣١] ، لانه كان على ثقة من ان بريطانيا وقد فشلت في افساد الفكرة ستسعى لتخريبها من الداخل ، أو جرها نحو التبعية للولايات المتحدة الامريكية ، وهو مبدأ يرفضه الجنرال جملة وتفصيلاً (إذا ظلت الدول الغربية في العالم القديم خاضعة للعالم الجديد فلن يتسنى قط لأوربا ان تصبح اوربية[١٣٢] .

---

١٣٠) المرجع السابق - ص٢٥٥ .
١٣١) بيرنارد ليدويدج - ديغول ما له وما عليه - ترجمة اللواء الركن محمد سميح السيد - دار طلاس - دمشق ط١ - ١٩٨٩م - ص ٢٧٣ وما بعدها .
١٣٢) المرجع السابق - ص٢٦٦ .

وقد صحت ظنون الجنرال ونظرته فقد رحل ديغول عن السلطة في شهر ابريل عام ١٩٦٩م وقبل نهاية العام وبالتحديد في ديسمبر من العام نفسه وعند اول اجتماع لرؤساء حكومات البلدان الاعضاء صدر اعلان وبموافقة فرنسا ان الجماعة كانت على استعداد لمفاوضة بريطانيا العظمى ، والبحث في تعاون سياسي بنية ضمها[١٣٣] .

ان الجنرال ديغول من اجل ان يجعل سياسته ناجحة ، لم يكتف بالسعي لتكوين السوق الاوربية المشتركة ، بل سعى مبكراً إلى خلق محور أكثر فعالية ، بالتحالف مع المانيا ، وقد كان يهدف من وراء ذلك إلى اعادة المانيا للحظيرة الاوربية ، من اجل توازن أوربا الاقليمي ، كما انه يعرف وهو الاستراتيجي اللامع بان آخراج لاعب اساسي من لعبة التوازن ، هو احد الاخطاء المميتة عند العارفين بأصول التوازن الدولي ، كما ان اي سياسة اوربية ناجحة لايمكن ان تستثنى من ترتيباتها احد الشعوب الكبيرة ، وذلك فضلاً عن ضرورة خلق محور جديد يوازن فعلياً محور لندن واشنطن ويستطيع ان يكون الثقل الحقيقي في أوربا .

ولقد استغل الجنرال ديغول ، كما يجب ، الظروف الألمانية ، فهي امة مهزومة ، وممزقة ، ولازالت تجري فوق ارضها نزاعات الدول الكبرى ، التي تحتل جزءاً من اراضيها ، كما ان اوضاعها الأمنية ، باعتبارها امة من دون جيش تجعلها أكثر الأمم تخوفا من الحروب .

وعلى الرغم من ان المانيا قد ارتكبت كل المساوئ ضد فرنسا وضد غيرها

---

١٣٣) يعتبر هنري كسينجر ان انضمام بريطانيا للسوق الاوربية المشتركة هو اهم النتائج التي ترتبت على رحلة ديغول وقد عبر عن هذا الرأي صراحة في مذكراته في البيت الابيض - المجلد الثاني - ص ٨٥ ومابعدها .

من الشعوب ، فقد ادرك الجنرال ديغول انه لايمكن تصور سلم حقيقي ودائم على اسس قد لايخضع لها هذا الشعب الكبير ، وكيف يمكن انشاء وحدة القارة دون ان يشترك بها ، فمصير المانيا وهي وسط القارة الاوربية يقضي بالاً ينشأ اي أمر من دونها(١٣٤) .

ولقد تجاوب الجنرال ديغول مع بعض مطالب (كونراد ادينارو) مستشار المانيا الاتحادية ، عند زيارته لفرنسا عام ١٩٥٨م بتجديد الثقة في المانيا ، والاسهام في ضمان امنها ، والموافقة عندما تحين الظروف على توحيد كيانها .

فعلى الرغم من العداء التاريخي بين الامتين ، والذكريات غير البعيدة عن احزان الحرب العالمية الثانية ، والكفاح الشخصي للجنرال ديغول ضد المانيا النازية ، فإن مصلحة فرنسا كانت تحتم عليه كما يقول (محاولة قلب مجرى التاريخ) ، ليعطي فرنسا ثقلها اللازم ويعيد على اسس سليمة بناء التوازن الأوربي والعالمي .

ولكي لا يثير الجنرال مبكراً حفيظة امريكيا ، ولوجود خطر سوفيتي محتمل أو حقيقي على المانيا ، فقد نصح الجنرال ديغول ،(اديناور) بالتمسك مؤقتاً بحماية امريكيا ، على الرغم من تصريحاته هو ، لاسباب وطنية تخص بلاده بعزمه على الانسحاب يوماً ما من الحلف الاطلسي ، فإعادة المانيا للحظيرة الاوربية ، والمساهمة في امنها مسألة ليست بلا ثمن ، فقد تعلم الجنرال ان المانيا امة تنبعث من الرماد ، وتستمد من ضعفها قوة وقد تتحول ، إذا لم تدقق الضمانات ، إلى مارد جبار ، يمارس صنعته المعهودة ، الفتح والغزو ، لذلك وضمانا لوضع المانيا فقد اتفقا على ضرورة ازالة مطامح المانيا

---

١٣٤) الجنرال ديغول - مذكرات الأمل (التجديد) - ص ٢٣٤ .

القديمة في تشيكوسلوفاكيا والنمسا ، وتصميم حدودها مع بولندا كما لايجوز ان تمنح حق حيازة الأسلحة الذرية أو تصنيعها ، ولقد اقام ديغول مع المانيا روابط أفضلية ، جعلت سياسته ناجحة سواء في توحيد أوربا على الاسس التي ارتضاها ، أم في خلق محور جديد اشد فعالية في السياسة الدولية .

١٣٢ - أن القوة ، عقيدة الكثيرين ، وهي شرط من شروط من يريد ان يقوم بدور حافظ الميزان وديغول كرجل أنضجته التجارب العسكرية والحروب ، أكثر من يستطيع فهم دور القوة ، وفي وقت مبكر في الثلاثينيات ، اودع جزءاً من عقيدته السياسية والعسكرية في سلسلة من الكتيبات ، اشهرها : - (حد السيف) الذي يقول فيه « هل يكفي التحدث عن الحق إذا لم يكن بوسعنا فرضه ؟ لقد قال الكاردينال دوريتز (ان الحقوق العزلاء لاتنال سوى الاحتقار) والقوانين الدولية لاتساوي شيئاً بلا قوات مسلحة ، ومهما كان الاتجاه الذي يأخذ العالم فإنه لن يستغنى عن الجيوش ابداً . ولكن هل يمكننا حقاً ان نتصور الحياة بدون قوة ؟ ان منع الولادة وتعقيم الافكار ، وتجميد الارواح وكبت الرغبات ، يؤدي بلا شك إلى اختفاء القوة بين عالم جامد . . فإذا لم يتم هذا كله بقيت القوة ضرورية للحياة ، فهي سند الفكرة واداة العمل وشرط الحركة ، ومن الضروري ان نجد هذا العامل المولد لنخرج التقدم إلى النور ، والقوة درع السادة وسور العروش وسلاح الصدمة للثورات ، وهي تمنحنا النظام طورا والحرية طوراً آخر ، انها مهد المدنيات ، ورمز الامبراطوريات ومسببة الانحطاطات وهي التي تضع القوانين للشعوب وتحدد لها مصيرها . والحقيقة ان الفكر العسكري ، وفن القتال وفضائل الجنود هي جزء من الثروة البشرية ، ونحن نرى هذا الجزء يدخل في جميع مراحل التاريخ ، حتى انه يغدو غالباً التعبير عن هذه المراحل . . فهل يمكننا ان نفهم اليونان دون معركة سالاميس أو ان نتصور روما

من دون ليجيوناتها ، والشعوب المسيحية بلا حسام والاسلام من دون سيف[١٣٥] .

ادرك ديغول بعد توليه السلطة عام ١٩٥٨م انه مهما كان حجم العبقرية السياسية ومهما كانت سلامة التخطيط فإن القوة هي العنصر الرئيسي لكل سياسة ناجحة ، كما ادرك ان القوة المرتبطة بارادة جماعية لايمكن ان تعطي بلاده دورها المميز ، إذا كانت فرنسا بقيادته تنوي استئناف دورها العالمي فعليها ان تستقل بقوتها كما استقلت بسياستها ، وديغول وحده من بين الاوربيين جميعاً لم يستطع ان يصدق أو يثق في مسألة الحماية الامريكية ، ألم تكن امريكيا قبل الحربين العالميتين حليفةً لأوربا و الشريك التجاري الاساسي لها ؟ ومع ذلك فإنها في كل مرة لم تدخل الحرب الا بعد ثلاث سنوات كانت كافية لتحطيم أوربا وفرنسا ، ولذلك فقد خرج من الترتيب العسكري في الحلف الاطلسي الذي رآه (يخضع سياستنا للخطر وبالتالي سياستنا إلى تقدير الدول الأخرى)[١٣٦] .

ولأن الأسلحة الذرية قد طبعت العصر بطابعها ، فقد امر الجنرال ديغول بتزويد جيشه بهذا السلاح ، ولتحقيق الاستقلالية للجيش والوصول إلى نوع من المساواة النسبية مع الآخرين ، واكتساب وسائل ردعه الخاصة ، ان امريكيا من اجل ضمان سيطرتها وهيمنتها على أوربا الغربية بذلت كل جهودها من اجل اثناء ديغول عن مشروعه النووي ، ليظل مرتبطاً بالحماية الامريكية ،

---

١٣٥) الجنرال شارل ديغول – حد السيف – ترجمة اكرم ديري والمقدم هيثم الايوبي – دار الطليعة للطباعة – بيروت – ص١٢ .
١٣٦) الجنرال شارل ديغول – مذكرات الأمل (التجديد) – ص ٢٣١ .

ولكي لاتتيح له دوره المستقل ، فقد حاولت مع الاتحاد السوفيتي ، تحت ذريعة منع انتشار الأسلحة النووية ، شجب ومعارضة سياسة الجنرال وتعبئة الرأي العام ضده ، وعندما فشلت جربت لعبة اغرائه بالحصول على القنابل الذرية المصنعة في امريكا ، بحجة ان صناعتها ستكلف اموالاً طائلة ، وقبل ان يطويه الموت بثلاثة شهور جاء (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الامريكي ، لزيارة الجنرال في باريس ، ليعرض عليه فلسفة بلاده في مقاومة الشيوعية عن طريق (الاحتواء) وعن طريق الأحلاف العسكرية والاقليمية ، التي نسجتها الولايات المتحدة الامريكية من حول الاتحاد السوفيتي ، ويرى دلاس ان واجب الولايات المتحدة ان تترأس المقاومة ضد الاتحاد السوفيتي وعرض على الجنرال التخلي عن مشروع صنع القنبلة الذرية قائلاً (اننا نعلم انكم على وشك التزود باسلحة ذرية ولكن أليس من الأفضل ان نقدمها لكم ، بدلاً من ان تقوموا بتجربتها وصنعها بأنفسكم بنفقات طائلة ؟ واجاب ديغول انه إذا كانت أمريكيا توافق على بيع القنابل فإنه سيشتريها بطيبة خاطر ، على ان تصبح ملكاً لفرنسا دون قيد أو شرط ، ولتؤكد امريكيا التزامها فقد اعاد الرئيس ايزنهاور العرض في زيارته لباريس ، مؤكداً للجنرال ديغول ، ان فرنسا مهما كانت جهودها فإنها لن تستطيع إدراك المستوى السوفيتي ، ولذلك فإن الاسلم لفرنسا هو القبول بالعرض على ان يكون الاستعمال الفرنسي لهذا السلاح مقيداً بموافقة القائد العام لحف الاطلسي .

ان هذه الحجج لم تستطع ثني الجنرال عن مشروعه ، وإذا كان بالفعل لايستطيع ادراك المستوى السوفيتي ، فإنه يكفي كما يقول ان استطيع قتل عدوي مرة واحدة ولو كان قادراً على قتلي عشر مرات .

وبتاريخ ١٣ فبراير ١٩٦٠م تم بنجاح اول تفجير نووي فرنسي ، لتصل

فرنسا مع الدول العظمى إلى شكل من اشكال الردع ولتعطي سياستها القوة اللازمة لتصبح فعالة على الصعيد الدولي . . . . . ان الجنرال ديغول كان يؤمن - وهو على صواب - ان ارادة الأمة مرهونة بامتلاك القوة ، وانها لايجب ان تجر للحروب بالتبعية للآخرين وكان يقول (يجب ان يكون الدفاع عن فرنسا فرنسياً ، فإذا اتفق ان اشتركت امة كفرنسا في حرب ما ، فيجب ان تكون هذه الحرب حربها ويجب ان يكون الجهد المبذول جهدها)[١٣٧] .

وبعد ان وفر ديغول لسياسته عناصرها اللازمة ، خلق أوربا الموحدة وجرها إلى موقف مستقل عن سياسة الولايات المتحدة الامريكية ، وبعد ان اتجه نحو تصفية الاستعمار الفرنسي وبعد ان حصل كغيره ، على السلاح الذري ، توج ذلك بالخروج العسكري من الحلف الاطلسي ، لتكون سياسته مقبولة لجميع القوى الدولية واكتملت بذلك شروط الموازن ، عندها فتح نوافذ هائلة تجاه الاتحاد السوفيتي[١٣٨] ، وأصبح بالفعل في موقع الموازن الذي اتاح له ان يلعب الدور الاساسي في السياسة الدولية ، ولقد استطاع نتجة لدبلوماسيته الحكيمة ان يجمع الغرماء في كل المستويات ، حول طاولة المباحثات لتسوية المشاكل الدولية ، ولقد كان على اعتاب جمع الكبار على مستوى القمة بباريس ، لاحداث الانفراج الفعلي لولا حادث التجسس الامريكي فوق اراضي الاتحاد السوفيتي ، الذي قابله خرتشوف بكثير من التصلب ، ولربما كان خرتشوف باحثاً عن ذريعة للخروج من مأزق الدخول في طريق الانفراج الذي لم يحن اوانه بعد ، لكن ديغول استطاع ان يواصل سياسته المتزنة ، من اجل

---

١٣٧) المرجع السابق - ص٢٧٦ .

١٣٨) يراجع في خطواته بالانفتاح على الاتحاد السوفيتي - بيرنارد ليدويدج - ديغول ما له وما عليه - مرجع سبقت الاشارة إليه - ص٢٩٣ ومابعدها .

خلق مناخ دولي ملائم لعقود من السلم ، وأصبحت فرنسا في عهده الدولة الموازنة التي تتجه إليها الانظار في كل ازمة دولية . لقد نجح ديغول ، مرة أخرى في ان يعيد لفرنسا هيبتها وان يضمد جراحها ، وهو الذي جاء كما يقول على نداء فرنسا مرات دون شرعية وراثية أو انتخابية ، ولكنها شرعية القيادة العظيمة ، التي اتاحت لفرنسا ان تستأنف من جديد دورها العالمي .

لقد استطاع بعناده وشموخه وكبريائه ، ان يجمع بقايا شعب مهزوم وان يمشي به نحو النصر ، واستطاع ان يقف به في وجه الامبريالية الامريكية ، وان يجعل بلاده طرفاً هاماً في التوازن الدولي إلى جانب القوتين العظميين وذلك بإتقان سياسة حافظ الميزان . . . .

خلاصة...

١٣٣ - لقد عرضنا في هذا الفصل نماذج بارزة من الذين لعبوا بمهارة دور حافظ الميزان ، الذين تحركوا برشاقة في وسط دولي شديد التعقيد ، وعلى الرغم من ان هذه التجارب جميعها تعكس دهاءً سياسياً ، الا أن ميترنيخ وديغول كانا أكثر مهارة ، فقد اعتمد ساسة أمريكيا في الحربين العالميتين على القوة المتفوقة والموقع الجغرافي الحصين ، كما ان دور الموازن قد صنعته لهم ظروف الحرب ، اي ان حروب الآخرين هي التي هيأت لهم دور الموازن ، اما ميترنيخ وديغول فقد لعبا هذه الدور اثناء السلام وعملا على حفظه واستقراره ، وتحولا إلى ابطاله فكانت لهم الارجحية في السياسة الدولية ، ونظن أنه بإستعراضنا لهذه النماذج قد أوضحنا بصورة اكبر شروط لعب هذا الدور ، وخصوصاً ، دور القوة والارادة السياسية المصممة والمقرونة بالحنكة ،فلقد حاولت حركة عدم الانحياز لعب دور الموازن أيضاً ، عن طريق

الحياد الايجابي اثناء الصراع بين العملاقين ، اي بالتحرك الرشيق المدروس ، لكن هذه الحركة فشلت في لعب دور الموازن ، رغم نجاحها في قضايا آخرى ، وتعود اسباب الفشل إلى افتقار هذه الحركة للقوة والارادة السياسية الموحدة ومهارة التحرك ، لانها في نهاية المطاف ، ليست كتلة موحدة بالمعنى الحقيقي ، فقد كانت حركة مثالية رأت في نفسها مجرد رسول لاخلاقية جديدة في العلاقات الدولية ، لكن ذلك لايكفي للعب دور مؤثر في العلاقات الدولية القائمة حتى الان - على القوة وحدها[١٣٩] .

---

١٣٩) لقد عرضنا اسباب فشل حركة عدم الانحياز في لعب دور الموازن في العلاقات الدولية بالتفصيل في كتابنا (العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين) - وهو مرجع سبقت الاشارة إليه - انظر ص١١٩ - ١٢٥ .

الفصل السادس

توازن الرعب ومدى تأثيره على النظرية التقليدية لتوازن القوى...

١٣٤ - حتى وقت قريب كان يمكن الإدعاء ودون تحفظات كثيرة أن توازن القوى هو نظرية علمية كغيرها من النظريات في ميادين العلوم التطبيقية والإجتماعية الأخرى ، فالأحداث التاريخية المتلاحقة يمكن تفسيرها وفق نظرية توازن القوى ، لأن هذه الأحداث تقود دائماً إلى نتائج مشابهة ، فجوهر العلاقات الدولية ، الذي هو الصراع من أجل القوة لم يتغير ، وهو الذي يؤدي إلى ظهور توازن القوى ، وذلك أيضاً لم يتغير ، كما أن توازن القوى بحكم حركيته يتبدل من نوع إلى نوع ، ويفضي كل نوع من هذه الأنواع إلى حالة دولية معينة ، تدور بين السلام والإستقرار والحرب . . . كل ذلك يتم وفق حركة تاريخية منضبطة ، ولكنها تتأثر بظروف كل مرحلة ، كالأوضاع الإقتصادية والحضارية والفكرية والأيديولوجية . . . فهذه العناصر الأخيرة هي المتغير المؤثر بدرجة ما في نظرية توازن القوى . . . لكن هذه المتغيرات لاتؤثر في القانون الأساسي ، أي الصيرورة النهائية للتاريخ . . . ويقتصر دور هذه المتغيرات في تبديل الشكل دون المضمون ، فهي قد تغير مثلاً في طول فترة السلام أو الإستقرار ، أو سرعة إندلاع الحرب أومدى شراستها ، فالتناقض الأيديولوجي مثلاً يدفع بصورة أسرع نحو التكتل ويؤدي إلى الحرب بشكل سريع وقد يجعل هذه الحرب أكثر ضراوة وقسوة ، لكن عدم وجوده لن يمنع التكتل أو الحرب إذا توافرت شروطها الأساسية (التوازن الثنائي) ، لكن ذلك يجعل مسيرة التاريخ

أكثر تمهلاً فإنتماء الأطراف إلى عالم حضاري أو أيديولوجي واحد ، يقود نحو إمكانية التفاهم الظرفي لكنه لايقود بصورة حتمية نحو التفاهم التام . . .

١٣٥ - لكن متغيراً أساسياً قد ظهر هو (الإكتشاف الذري) الذي أنتج نوعاً جديداً من التوازن أطلق عليه (توازن الرعب) ، وهو توازن جعل بعض المحللين ينصرف إلى أن نظرية توازن القوى أصبحت من مخلفات الماضي ، فهي لم تعد صالحة للتطبيق على المستوى الدولي ، لأن الصراع فيما مضى كان يقود إلى الحرب ، التي أصبحت مستحيلة في عصر الذرة ، لأن الحرب أصبحت تعنى الفناء التام للأطراف المتصارعة . . . أما الدليل على ذلك فإن توازن الحرب الباردة ، أجبر أطرافه على اللجوء للتفاهم في كل مرة تصاعدت بينهم أسباب التوتر .

وحتى أكثر المؤمنين بنظرية (توازن القوى) أجبروا على مراجعة إستنتاجاتهم . . . وهناك اليوم سؤالان رئيسيان يجب طرحهما ، يتعلق الأول بمدى تأثير توازن الرعب على نظرية التوازن ، هل أن توازن الرعب متغير أساسي سيؤدي إلى تغيير جوهري في نظرية التوازن؟ أم أنه متغير كغيره من المتغيرات الأخرى سيؤدي إلى نتائج غير أساسية ، تتعلق بشكل الحرب ، لاالحرب نفسها؟

أما السؤال الثاني فيتعلق بمدى التطور العلمي بشكل عام وحجم تأثيره على قوانين التاريخ ، بما ذلك توازن القوى؟

فالواقع أن الإكتشاف النووي ، مهما كانت أهميته ، سيغدو بعد سنوات إكتشافاً عادياً مقارنة بما ستتفتق عنه عقول علماء المستقبل وما ستصنعه آلة الحضارة الحديثة من أسلحة أكثر فتكاً ، فلو نهض أجدادنا من قبورهم

ماصدقوا أن أحفادهم تجاوزوا عصر البارود الذي بدا في عصرهم أشد الأسلحة فتكاً ورعباً ، وربما كان هناك منهم من وصف عصرالبارود بأنه عصر توازن الرعب أيضاً ، لكن ذلك لم يثنهم عن الصراع والحروب رغم أن القتلى كانوا بالآلاف والملايين . . . وما يدرينا نحن في العالم الثالث عما تحويه مخازن الغرب وترساناته من أسلحة أكثر تطوراً وفتكاً من السلاح النووي . . . على أن الأحتمال الأرجح هو ان حضارة المستقبل ستنتج ما هو أشد رعباً وفتكاً ، ومهما كانت الخطوات التي ستتم على طريق نزع السلاح ، فإن السلاح النووي- سيصبح ذات يوم بيد عامة الدول ، لأن العلماء سيوجدون في كل مكان بحكم إنتشار العلم والمعرفة .

١٣٦ - إننا على أية حال ، نذهب إلى ان السلاح النووي ، مهما كانت درجة تأثيره ، لايعدو أن يكون متغيراً من المتغيرات ، وسيكون له تأثيره العميق في مجرى الأحداث ، لكنه لن يستطيع تغيير قوانيين التأريخ ، فمن المؤكد أنه سيبدل من إستراتيجيات الدول ، وقد يجعل قرارات الحرب والسلام أكثر عقلانية ، فحجم الدمار وعدد الضحايا لابد ان يدخل في حساب المسؤولين عن أقدار شعوبهم والعالم ، كما أنه سيؤثر في شكل الحروب إذا إندلعت ، لكن الأعتماد على توازن الرعب في خلق السلم والأستقرار هو دعوة طوباوية ستكون عديمة الجدوى .

وبدلاً من الأعتماد على توازن الرعب فإن الأجدى في رأينا هو بذل الجهود الفكرية والسياسية بالبحث عن جراثيم الحرب ومكافحتها ، وبما إننا نعتقد بأن توازن القوى ، وأنواع محددة منه ، هي هذه الجراثيم ، فإن علينا أن نعطلها عن النشاط وأن لاندعها تنخر الجسم الأنساني وتفتك به . . . وإن

ذلك لايتأتى إلاّ بالعمل على بناء توازنات القوى الدولية والأقليمية الصالحة لبناء عالم يسوده الأستقرار والسلام ، وفي ضوء التاريخ وتجاربه ، فإنه يمكن بناء هذه التوازنات القائمة على العدالة والكفاية واليقين ، والمعترفة بمصالح الدول كبيرها وصغيرها ، والكف عن التحالفات المقلقة للتوازن والمبنية على الأطماع والهيمنة والتوسع ، فالتوازن القلق القائم على الظلم والأضطهاد والأستعباد لابد وأن يؤدى إلى الحرب مهما كان فتك الأسلحة أو قدرة الأعداء ، فالحرب في نهاية المطاف محاولة لإزالة الظلم والتخلص من القهر ، أما الجنود الذين يخوضونها فيعرفون أنهم يجازفون بحياتهم ، ويعرفون أنهم يسيرون في طريق االموت ، الموت الذي لايعنيهم من أية جهة يأتي وما نوع السلاح الذي يحمله ، يستوي في ذلك أن يكون رمح مسموم أو صعقة لاتدوم سوى برهة قصيرة .

إن العقل الأنساني هو المتحكم في مجرى التاريخ وهو صانعه ، ويمكن لهذا العقل ان يصنع ألسلام بالبحث الجدي في كيفية الوصول إليه ، وأمام الإنسانية اليوم تجارب تاريخية هائلة تمكن من تلمس طرق السلام ، فهو نتاج واقع موضوعي علينا أن نبحث عنه . .

أما إذا لم نتلمس هذا الواقع في ثنايا التاريخ ، فإن أسلحة الفتك والدمار لن تكون قادرة على صنع السلام ، لأنها ببساطة قد صنعت من اجل الحرب والدمار لا من أجل الإستقرار والسلام . . .

وإذا سارت الأمور في غير هذا الإتجاه ، فإننا نظن أن الحروب ستاخذ شكلاً جديداً هو ماسنعرضه في الفصل القادم عند بحثنا للتوازن الإقليمي ، لكننا قبل ذلك نعرض لمعنى توازن الرعب ومدى تأثيره في نظرية توازن القوى ووجهات النظر المختلفه حول ذلك .

معنى توازن الرعب...

١٣٧ - إرتبطت نظرية توازن الرعب النووي بإمتلاك الولايات المتحدة الإمريكية والإتحاد السوفيتي للاسلحة النووية في النصف الثاني من القرن العشرين ، فلم يتناولها الباحثون كنظرية علمية مجردة صالحة للتطبيق بين أي طرفين يمتلكان الأسلحة النووية ، لكن هذا الوضع قد تبدل الآن بانتشار الأسلحة النووية ، وامتلاك دول أخرى لهذا السلاح ، بل ان هذا الانتشار يسير نحو التوسع ، وعند كتابة هذه السطور أصبحت الهند وباكستان ، وهي دول متوسطة دولاً نووية كما أن دولاً أخرى عديدة في طريقها للدخول إلى النادي النووي .

ان هذا الحدث هو تحول تاريخي بكل معنى الكلمة ، لأنه وللمرة الأولى يظهر بصورة جلية ان السلاح النووي أصبح متاحاً خارج العالم الغربي ، حيث استطاعت دول العالم الثالث ، بمساعدة أو من دونها دخول العصر النووي ، وهو حدث سيكون بعيد الآثار ، ليس على صعيد التوازن بين الدولتين ، أو حتى على المستوى الاقليمي ، بل ستكون له ابعاده العالمية العميقة ، وهو حدث مهما كانت مساوئه ، من وجهة نظر الغرب ، فإنه سينطوي على مدلولات ايجابية ، لعل في مقدمتها اعادة النظر - جدياً - في مسألة انتشار هذا السلاح أو احتكاره . . .

ان المضمون التقليدي لنظرية توازن الرعب يذهب إلى قيام حالة من التوازن المرعب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، ويستند هذا التوازن إلى الردع المتبادل ، أي قدرة كل من الطرفين على تدمير بعضهما تدميراً كاملاً ونهائياً في حالة وقوع الحرب النووية تحت اي ظرف من ظروف المبادأة ، ويستمد الردع النووي المتبادل فعاليته من حقيقة استراتيجية مهمة تتمثل في

نجاح القوتين في تنمية قدراتهما النووية بشكل هائل والوصول إلى مستوى القدرة على التدمير بالضربة الثانية[١٤٠] .

ومعنى ذلك ان اي طرف يقوم بالمبادأة بتوجيه ضربة نووية أولى ، يعرف مقدما ان الخصم قادر على استيعاب هذه الضربة وتوجيه ضربة مضادة له ستكون خسائرها مشابهة لما ألحق بالخصم ، فعلى الرغم من فعالية السلاح النووي وحجم الدمار الذي يخلفه إلا ان ذلك لن يدفع الخصم نحو الاستسلام ، بل على العكس فإن المبادأة بالهجوم النووي ستدفع حتما نحو الرد النووي الشامل ، وإذا اندلعت الحرب النووية فإنها لن تتوقف لأ نها ستكون ضربات وضربات مضادة ، ومن المحتمل ان تنتهي هذه الحرب دون وجود طرف يمكنه اعلان الاستسلام ، لأن الطرفين سيكونان قد إنتحرا بشكل متبادل . . .

١٣٨ - إن السلاح النووي قد استبعد تقريبا ، فكرة الدفاع ، وأحل محلها فكرة الردع ، ففي الحروب التقليدية إنصبت استراتيجيات الدول على الدفاع والهجوم ، فمهما كان شأن الخصم ومقدار قوته فإن جزءا من مقدرات الدولة يمكن الدفاع عنه حتى في حالة الهزيمة ، وهذا هو الجزء الممكن الاستسلام لأجل الحفاظ عليه ، أما الحرب النووية فقد بدلت ذلك جذريا ، بإحلال الردع محل الإرغام والدفاع ، اي بجعل الطرف الآخر في حالة إدراك واقتناع بأن اتخاذ قرار القيام بعمل أو إجراء ما لايرتضيه الطرف الآخر سيؤول إلى الحاق المضار بكل منهما ، لذلك من الاولى الامتناع عن القيام بذلك الفعل[١٤١] .

---

١٤٠) د .اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - مرجع سبقت الاشارة إليه ص١٣٠

١٤١) د . كاظم هاشم نعمة - العلاقات الدولية - ص٢٥٤

إن أي طرف لا يذهب الى الحـرب إلا مكرها ، وبعـد ان تعـجـز وسـائله السياسـيـة الأخرى عن تحقيق أهداف الدولة ، وهو لايذهب إلى الحرب ، الاً بشرطين هما ، وجود حظوظ للفوز بالحرب ، وأن المكاسب التي ستدرها عليه ستكون اكبر من خسائر الحرب نفسها ، وبغير هذين الشرطين أو أحداهما على الأقل ، فالنتيجة الحتمية للحرب بين طرفين نووين هي المحو النووي . . .

إن هذا الوضع قد أنتج وضعا سيكولوجيا هو الرعب المتبادل بين الطرفين فـأصبحا في حالة توازن مرعب . . . وقد قـاد هذا الوضع للاستنتـاج ، بأن الاحسـاس المتبـادل بالأخطار والمضاعفات بين القوى النووية ، خلق شعورا بالتضامن بين هذه القوى ، وبخاصة في المواقف التي تطغى فيها المخاطر المحتملة على الأهمية الفعلية للمصالح موضوع التنازع أو الصراع ، وهكذا فقد رأينا ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، يتراجعان مرارا عن المجابهة وذلك بعد وزن نتائج الحرب النووية مع المصالح المراد تحقيقها ، فقد تراجعت الولايات المتحدة عن الخيار النووي في أزمة برلين ، وتراجع الجميع عن الخيار النووي في أزمة كوبا[١٤٢] ، لأن المصلحة المراد تحقيقها كانت أقل بكثير من تكلفة الحرب .

ومع ذلك فلا أحد من المحللين السياسيين الجادين ، إستبعد بصورة نهائية إحتمالات الحرب النووية ، التي يمكن ان تندلع بشكل مقصود ، أو بخطأ ناتج عن تدبير غير متعمد .

وقد وجهت لنظرية توازن الرعب ، كأداة لمنع الحرب ، إنتقادات عديدة ، وينصرف أول هذه الانتقادات إلى الإدعاء الذي يردده دعاة هذه النظرية من حيث الدور الذي تقوم به الأسلحة النووية الإستراتيجية في الحيلولة دون

---

١٤٢) يراجع في تطور هذه الأزمات- كولن باون وبيتر موني-

نشوب حروب الانتحار المتبادل ، فيقول أصحاب هذا النقد أنهم لا يرون سببا يحول دون إنطباق هذا المنطق نفسه على عالم يخلو من الأسلحة النووية . ففي الماضي وجدت قوى عسكرية شبه متعادلة من حيث امكانات القوة المتاحة لها وكانت تستطيع القتال إلى آخر الشوط ، أي إلى حد الفناء التام ، ولكن ذلك لم يحدث إطلاقا ، فإحدى هاتين القوتين كانت تبادر إلى الاستسلام قبل ان تتفاقم الأمور وتصبح مسألة انتحار قومي جماعي . وبالمثل فإن وضعا شبيها بذلك يمكن ان يتحقق في ظروف الحرب النووية ، فالعمليات التدميرية الأولى في هذه الحرب قد تنتهي بإستسلام الطرف الذي يداخله اليأس من جراء التدمير الذي يتعرض له[١٤٣] .

وبمعنى آخر فإن دعاة هذا الرأي يذهبون إلى ان تصور الحرب النووية ممكنة ، إذ ستدفع الضربات النووية الموجعة إلى سرعة استسلام الخصم ، لأن اليأس سيداخله بسرعة فيفضل الإذعان للطرف الآخر دون الدخول في حرب شاملة تؤدي إلى الانتحار ، ويضيف دعاة هذا الرأي بأنه إذا استطاع احد الطرفين تحصين اهدافه الاستراتيجية ، فإن ذلك سيغريه بشن هجوم نووي مفاجيء ، والواقع ان هذا الاحتمال أصبح ممكنا بصورة كبيرة ، إذا غض النظر عن الأهداف المدنية ، كأهداف استراتيجية ، إذ أن القوات النووية نفسها أصبحت محصنة بشكل كبير ضد الهجوم النووي ، بحكم ان قواعدها أصبحت محمولة ومتحركة على ظهور السفن والغواصات ، ولا شك أن هذا التحول الإستراتيجي قد أعطى جميع الأطراف خيار الضربة الثانية كما يضيف دعاة هذا الرأي حجة أخرى تتعلق بأن نظرية توازن الرعب تجعل من

---

١٤٣) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - ص١٣١ .

التوازن متجمداً وغير متحرك ، وتلك حالة لم تظهر قط في تاريخ العلاقات الدولية ، إن هذه الحجة منطقية في ضوء الماضى لكنها لاتدحض نظرية توازن الرعب ، فهذه حالة ناشئة ولكنها يمكن ان تؤثر في المفاهيم التقليدية .

١٣٩ - وما من شك فإن الجدل سيظل مستمرا حول مسألة توازن الرعب ودورها في تحقيق الاستقرار ، ذلك أن بحث هذه المسألة مازال يدور في الإطار النظري ، وهو إطار يسمح بتعدد وجهات النظر ، إذ لاتوجد وقائع تاريخية محددة يمكن الاستناد إليها للبت في المسألة بشكل نهائي ، وقد حدث ان تأزمت العلاقة بين العملاقين النوويين مرات عدة ، ووضع العالم على حافة الحرب النووية ، لكن الطرفين امتنعا عن المواجهة ، والاسئلة المطروحة تتعلق بسبب الامتناع عن الحرب ، فهل تم ذلك بفعل الرعب النووي ؟ ، أم أن موضوعات النزاع كانت أصغر من الدفاع عنها بالحرب النووية ؟

إننا نرجح الإحتمال الثاني ، ففي كل المناسبات التي وصل فيها التأزم إلى درجة خطيرة ، كانت مسائل النزاع محدودة ويمكن تسويتها بالوسائل السلمية ، أو تجميد النزاع حولها وتأجيله أو التنازل كليا من أحد الأطراف ، دون تعرض ميزان القوى لخلل خطير يستوجب الحرب للحفاظ عليه أو تغييره .

ففي أزمة برلين مثلا ، وهي أولى المناسبات الخطيرة ، تلك الخطورة التي نجمت عن تصعيدات غير مبررة من الطرفين ، فقد انساق الاتحاد السوفيتي للتصعيد آملا في تحقيق مكاسب اقليمية معتمدا على حسابات خاطئة تتعلق بأوضاع الغرب وأمريكيا خصوصاً ، إذ إعتبر خورتشوف أن صعود كندى لتسلم السلطة ، وهو صغير السن قليل الخبرة سيهيئ له الفرصة لفرض شروطه ، وعندما اتضح أن ذلك مجرد وهم فقد تم التراجع ، لأن هذا المكسب الاقليمي لا يساوي الخسائر التي ستنجم عن الحرب النووية ، ومثل ذلك حدث مجددا

في كوبا ، فعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتي بافتراض نجاحه في نقل الصواريخ النووية إلى قواعد في كوبا ، كان سيحدث انقلابا خطيراً في توازن القوى لمصلحته ، إلاّ أن سحب هذه الصواريخ واعادة التوازن إلى وضعه الأصلي لايؤثر في وضع الاتحاد السوفيتي الإستراتيجي ، لكن تثبيتها لو تم الاصرار عليه سيلحق بالولايات المتحدة اضرارا خطيرة لايمكن قبولها ، مما كان سيدفعها للحرب ، مهما كانت النتائج ولذلك فقد اختار الاتحاد السوفيتي التراجع لأنه المخرج الوحيد لتتجنب الحرب النووية .

إننا إذن اعتمادا على التأمل النظري وعلى بعض الوقائع التاريخية المحدودة نعتقد بأن العصر النووي لم يبدل بصورة جذرية في نظرية توازن القوى التقليدية ، فالحرب بين الأطراف النووية مازالت ممكنة ، لكن استخدام الأسلحة النووية في حربها ليس ضروريا ، فقد وجدت هذه الأطراف صيغة جديدة لحروبها ، وهي الحروب الاقليمية ، وهي حروب غير مباشرة بين الذين يمتلكون الأسلحة النووية ، وسنشرح ذلك في الفصل القادم .

ونعتقد أن الحجة الحاسمة لعدم استبعاد الحرب النووية ، هي استراتيجيات القوى العظمى التي تفترض بصورة واضحة احتمال هذه الحرب ، إذ لو تيقنت هذه الدول بأن توازن الرعب سيقودها نحو الاستقرار لما أجهدت نفسها في وضع هذه الاستراتيجية الجديدة ، ولما كيفت أوضاع قواتها المسلحة مع هذا الوضع الجديد .

إستراتيجيات القوى العظمى في العصر النووي.

١٤٠ - في نهاية الفصل الثالث من كتابه (مابعد الحرب الباردة) يطرح (روبرت مكنمارا) وزير الدفاع الامريكي الأسبق ، البعد الأخلاقي للمواجهة النووية بين الشرق والغرب ، لأن المواجهة النووية لن تقع أعبائها على الأطراف

المتصارعة وحسب ، بل أنها ستنعكس على عموم الناس والأمم الأخرى ، ومع القيمة الأخلاقية لذلك ، فإن مكنمارا يعترف ، وفق تجربته الشخصية ، أن إدخال مثل هذا الاعتبارات في المناقشات السياسية يعد عمل ساذجا ، فأمام ٥٢ الف سلاح نووي سوفيتي ليس أمام الغرب سوى اتباع سياسة الردع القائمة على افهام الروس ، بوضوح شديد ، على أن أي ضربة نووية موجهة للغرب ستواجه بقصفة مدمرة تمنعهم من التفكير في بدء هذه الضربة(١٤٤) .

ومنذ إمتلاك الطرفين للأسلحة النووية في النصف الثاني من القرن العشرين ، فقد دأبا على إعادة صياغة استراتيجياتهما بما يتلائم مع هذا الظرف الجديد ، وهي استراتيجيات تقوم على إفتراضات متعددة ترسم سيناريو الحرب النووية ، بما يؤدي إلى تحقيق الأهداف السياسية ويحافظ ، بقدر ما ، على أطراف التوازن ، فالحرب النووية إن وقعت ، فإنه لايمكن الافتراض دائماً بأنها ستؤدي إلى الدمار التام ، فهي ككل الحروب ستكون متناسبة مع الأهداف السياسية ومحدودة في حجم دمارها إذا أذعن الطرف المقابل . . .

إن الحروب التقليدية أيضاً قد تقود للدمار الشامل للطرف المهزوم ، فبإمكان المنتصر أن يواصل التدمير إلى أن يمحو من الوجود الطرف المقابل ، فقد كان الحلفاء ، من الناحية النظرية ، قادرين في الحرب العالمية الثانية ،من محو ألمانيا ، لكن الحرب توقفت بعد تحقيق غاياتها ،وهي تحطيم قوة المانيا واستسلامها دون قيد أو شرط .

إن ذلك يمكن ان يحدث في الحرب النووية ، فمهما كانت قوة الأسلحة النووية ، فإنها ستبدأ في التدرج إلى حين تحقيق الهدف السياسي وهو

---

١٤٤) روبرت مكنمارا – ما بعد الحرب الباردة – سبق الاشارة إليه – ص ٩٥

استسلام الخصم ، وعلى هذه الأسس فإن القوى العظمى صاغت إستراتيجياتها في العصر النووي .

الأستراتيجية الأمريكية...

١٤١ – منذ عام ١٩٤٥م حتى اليوم مرت الأستراتيجية الأمريكية بمراحل مختلفة ، تتناسب مع ميزان القوى بينها وبين الاتحاد السوفيتي ، فاتخذت إستراتيجيتها الأشكال الآتية : –

أ – استراتيجية الحصر والاحتواء . . .

وقد تبنت الولايات المتحدة هذه الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ولفترة قصيرة ، وهي الفترة التي احتكرت فيها الأسلحة النووية ،وتقوم هذه الاستراتيجية على حصر الاتحاد السوفيتي واحتوائه ومنع امتداد نفوذه إلى مناطق جديدة من العالم ، وقد بنيت هذه الاستراتيجية على افتراضات اقتصادية وسياسية وأيديولوجية وعسكرية ، وهي ذات شقين دفاعي وهجومي ، أما الشق الدفاعي فيقوم على منع السوفيت من التوسع غرباً ، أي تأمين أوروبا الغربية ضد التغلغل السوفيتي ، وذلك عن طريق حمايتها عسكرياً بالمظلة النووية الامريكية في ظل التفوق السوفيتي في مجال القوات التقليدية فقد كان ميزان القوى يميل بشكل واضح إلى الاتحاد السوفيتي ، ولكي تكتسب هذه الاستراتيجية فعاليتها ، فقد استكملت في الميدان الاقتصادي بمشروع مارشال ، الذي كان أحد أهدافه النهوض بالاقتصاديات الأوربية لمنع انتشار الايديولوجية الشيوعية .

اما الشق الهجومي من هذه الاستراتيجية ، فقد اتجه نحو أضعاف الاتحاد السوفيتي في مناطق سيطرته وذلك عن طريق إحاطته بسلسلة من القواعد

والاحلاف من جهة ، وزعزعة استقرار المعسكر الشيوعي من جهة أخرى ، اعتماداً على أن النظام الشيوعي لن يكون قادراً على المنافسة السليمة في بلدان أوربا الشرقية التي جرت محاولات ربطها بالاقتصاد الغربي ومن المعروف ان سياسة الاحتواء هي من افكار جورج كينان الخبير بالشؤون السوفيتية وقد تبناها الرئيس الامريكي (هاري ترومان) ويذهب المؤرخون إلى ان سياسة الاحتواء قد فشلت لأسباب عديدة ، من أهمها حصول الاتحاد السوفيتي على السلاح النووي بعد فترة قصيرة وظهور التشققات في المعسكر الغربي نفسه ، وتفكك الامبراطوريات التقليدية ، فرنسا وبريطانيا ، وبروز حركات التحرر في العالم الثالث التي اقتربت بصورة اكبر من الاتحاد السوفيتي ، وربما كانت الحرب الكورية هي المحك العملي لفشل هذه السياسة(١٤٥) .

ب - إستراتيجية الرد الإنتقامي الشامل . . .

وهي استراتيجية متطرفة وغير واقعية تنسب إلى وزير خارجية امريكيا (جون فوستر دالاس) وتقوم هذه الاستراتيجيةعلى ان أية محاولة من قبل الاتحاد السوفيتي للاخلال بميزان القوى في اي مكان من العالم يجب أن يواجه برد انتقامي شامل بواسطة الأسلحة النووية الامريكية ، والهدف هو ارعاب الاتحاد السوفيتي وحلفاءه إلى اقصى درجة .

وقد جاءت هذه الاستراتيجية بعد فشل سياسة الاحتواء ، وإذا كان من الممكن تصوير سياسة الاحتواء بأنها سياسة البيع القطاعي ، فإن استراتيجية

---

١٤٥) د . كاظم هاشم نعمة - العلاقات الدولية -ص٢٦١ والدكتور اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسةالدولية - ينظر أيضاًفي عرض نظرية الاحتواء - هنري كيسنجر - الدبلوماسية - الفصل الثاني (نجاح الاحتواء ومراراته ص ٤٢ وكذلك الفصل الثالث (شرك الاحتواء بالحرب الكورية) ص ٨٠ وما بعدها .

الانتقام الشامل تعد بمثابة سياسة البيع بالجملة ، إذ على الاتحاد السوفيتي أن يعي ، أنه قد فات وقت الحروب المحدودة ، كالحرب الكورية ، وعليه ان يتوقع التدمير الكامل كعقاب على أي فعل عدواني تجاه الولايات المتحدة أو الغرب الذي أصبح متبرماً من الحروب المحدودة بفسادها ومهاناتها .

إن استراتيجية الانتقام الشامل قد فشلت أيضاً عند اول امتحان في حروب جنوب شرق آسيا ويرجع الفشل إلى عدم واقعية هذه الاستراتيجية ، وإلى امتلاك الاتحاد السوفيتي إلى الأسلحة النووية ، فضلاً عن بروز الصين قوة ذات شان في الصراع الاقليمي ، وعلى الرغم من عدم امتلاك الصين للرادع الحقيقي في ذلك الوقت ، الاّ ان عمقها الديموغرافي والجغرافي كانا في نظر قادتها قادران على تعويض الاختلال في ميزان القوى النووي[١٤٦] .

وهكذا فإن الحروب الآسيوية أظهرت أن استراتيجية الانتقام الشامل هي مجرد تهويش للتاثير على سلوك الخصم ومعنوياته ،فلم يكن وراء هذه السياسة ارادةِ سياسية حقيقية أو تهديدات قابلة للتنفيذ ، وذلك بحكم عدم واقعيتها ، فهي تفترض ضرورة الرد الساحق على أي نزاع اقليمي مهما بدا محدوداً ، وذلك بالطبع هو ضرب من الجنون لايمكن أن تنقاد إليه امة عاقلة ، ولايمكن أن يأخذه بشكل جدي الطرف الآخر .

١٤٦) كان الرئيس الراحل (ماو تسي تونغ) من المحتقرين لسياسة التسلح النووي ومعارضاً لها من الناحية الأخلاقية وكانت عقيدته العسكرية تقوم على مبدأين هما الاتكال على جيش شعبي كبير والحد الأدنى من الردع النووي فتفوق الاعداء بالسلاح التقليدي أو النووي تستطيع الصين مواجهته بالطاقة البشرية الضخمة فالتغلب على الصين يتطلب إحتلال مساحات شاسعة منها حيث يستدرج العدو بواسطة المقاومة الشعبية التي تستطيع فيما بعد سحقه ، أما الردع فيجب أن يكون للصين رادع محدود تستكمله الصين بأعداد مواطنيها الضخم .

إن هذه الاستراتيجية قد تعرضت للنقد العنيف في امريكيا نفسها ، واتهمت بأنها أصابت السياسة الخارجية بالشلل ، فالتهديد بالحرب في كل مناسبة أثار الذعر في حلفاء امريكيا دون التأثير في سلوك الخصم المطلوب ردعه وارهابه(١٤٧) .

ج - استراتيجية الرد المرن . . .

أن تبني استراتيجية الانتقام الشامل قد أفضى إلى تصور أحد وضعين ، أما الحرب النووية الشاملة أو الجمود والشلل التام ، وكلا الخيارين غير مقبول فكان لابد من اختيار طريق ثالث يسمح بخوض الصراعات المحدودة دون التورط بالضرورة في المواجهة النووية الشاملة ، وازاء االانتقادات التي وجهت لأستراتيجية الخمسينيات ، فقد ظهرت استراتيجية جديدة أطلق عليها استراتيجية الرد المرن ، أو الاستجابة المرنة ، ويعتبر (ماكسويل تيلور) رئيس هيئة الاركان المشتركة الأسبق ، هو المبتكر الأول لأسسها ومبادئها الرئيسية ، ومضمون هذه الاستراتيجية هو منح القدرة للقوات الامريكية لمواجهة أي تحد وفي أي مكان وذلك عن طريق التنويع في وسائل الردع والقتال بأعادة هيكله تقوم على الاحتفاظ بقدرة نووية قادرة على توجيه الضربة الثانية للخصم بافتراض التعرض لضربة نووية اولى ، عن طريق تحصين هذه القدرة ومراكز التوجيه السياسية والعسكرية ضد الخصم ، أما الصورة العملية لهذا التحصين فتعتمد على الاحتفاظ بالقدرة النووية في حالتي الحركة والانتشار ، بحيث يستحيل على العدو تدميرها وشلها بضربة مفاجئة ، وقد اقترحت جملة من التدابير الوقائية ، كالأحتفاظ بجزء من الأسطول الجوي في حالة تحليق دائم

١٤٧) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية _ص ٢١٨ .

ومتبادل وموزع على قواعد جوية متباعدة ، وتركيب منصات أطلاق الصواريخ على قواعد متحركة كالشاحنات والقطارات والغواصات التي تجوب أعماق البحار والمحيطات وخلاصة الأمر هي جعل القوة النووية في حالة جاهزية تامة للإنطلاق لتدمير الخصم في أي وقت ، أن ما يستكمل هذا التفكير هو إنشاء قوات تقليدية قادرة على التحرك السريع والتواجد في أماكن النزاعات ، وهكذا فإن هذه الأستراتيجية تقوم على التنوع في أشكال الردع ، فهي تصلح لمواجهة الحروب التقليدية والنزاعات المحلية أو الحروب النووبة التكتيكية أو الحرب الشاملة إذا تصاعدت الأمور في هذا الإتجاه .

وقد تبنت أدارة الرئيس (كيندي) هذه الأستراتيجية في الستينيات ودافعت عنها على أنها البديل المقبول للحرب الشاملة أو الشلل السياسي .

أن هذه الأستراتيجية لا تخلو أيضاً من الغموض والعيوب ، وعلى الرغم من تحمس الكثيرين لها ، إلاً أنها قوبلت ببعض التحفظ خصوصاً من الحلفاء الأوربيين ومن المحللين المدنيين ، ومصدر الأنتقادات الأوربية ، أن الأستراتيجية الأمريكية تستند على مفاهيم أمريكيا وحدها دون الأخذ في الأعتبار بوجهة النظر الأوربية ، إذ لم يتم تطوير أي مفهوم أوربي للدفاع ، كما لم يتم تطوير احساس أوربي حقيقي بالمسؤولية ، ويعزو هنري كيسنجر ، هذا الوضع لأوربا نفسها ، التي شجعت الولايات المتحدة على اتخاذ دور المهيمن لإخراجها من عزلتها وتأكيد التزامها بالدفاع عن أوربا[١٤٨] .

ان نظرية الرد المرن تعرضت للتبديل لتحل محلها استراتيجية التصدى

---

١٤٨) د . حسين شريف – السياسة الخارجية الأمريكية في السبعينيات والثمانينيات – الهيئة المصرية العامة لكتاب القاهرة – الجزء الأول– ص٤١٥

الشامل وهي استراتيجية تقوم على ضرورة تحقيق التفوق على الاتحاد السوفيتي ودفع الاوربيين إلى المزيد من المشاركة ، وكل ذلك بهدف تهيئة الظروف للتفاوض مع السوفيت من موقع القوة بوضعه امام احساس بالتهديد المستمر الذي يمكن أن يصل مداه إلى نقطة التهديد بالابادة الكاملة(١٤٩) .

ولضمان هذا التفوق بصورة نهائية ، فقد طرحت مبادرات جديدة ، كان اهمها على الاطلاق ، (مبادرة الدفاع الاستراتيجي) التي أطلقت في عهد الرئيس اليميني المتطرف (رونالد ريجان) وهي المبادرة التي عرفت بأسم حرب النجوم ، لأنها ستنقل الصراع إلى الفضاء الخارجي وستعتمد أساليب تقنية معقدة وستعتمد على أسلحة جديدة بأمكانها ابطال مفعول الهجوم النووي في الفضاء الخارجي(١٥٠) .

إن هذه المبادرة كان يمكن أن تنقل العملاقين إلى مرحلة قاسية من مراحل سباق التسلح لكن الحماس لها قد خف مع صعود (غورباتشوف) إلى السلطة وتهاوي الاتحاد السوفيتي بشكل سريع ، وهو أمر أحدث تبدلات جذرية في العلاقات الدولية ، انعكس بالضرورة على المفاهيم الاستراتيجية .

وإذا كنا نعيش اليوم مرحلة انتقال ، فإن الاستراتيجية الامريكية نفسها تعيش هذه المرحلة ، ولن تتبلور هذه المرحلة نهائياً إلاّ بعد نهاية هذه المرحلة وظهور نوع ما من النظام العالمي بخطوطه وتحالفاته وعداءاته الأكثر وضوحاً .

---

١٤٩) د . اسماعيل صبري مقلد - العلاقات الامريكية السوفيتية ، مشكلات الأمن والتسلح في الثمانينات - منشورات ذات السلاسل الكويت -ط١- ١٩٨٧م ص ٤٧

١٥٠) يراجع في هذه المبادرة - المرجع السابق - ص ٧١ وما بعدها .

الإستراتيجية السوفيتية...

١٤٢ - انه لمن الصعب الحديث عن الإستراتيجية السوفيتية ، التي لايرشح عنها غالباً إلاّ القليل من الافكار غير الموثوقة ، وذلك بالنظر إلى طبيعة المجتمع السوفيتي المغلقة ، خصوصاً إذا تعلق الامر بالمسائل الأمنية والاستراتيجية السوفيتية فما يقال عن الإستراتيجية السوفيتية ، لايتجاوز التخمين والتحليل النظري ، فليس من تقاليد السوفيت الحديث عن قضاياهم الأمنية والإستراتيجية كما يحدث في الغرب .

وما يمكن أن يقال هو ان الاستراتيجية السوفيتية قد مرت بمراحل مختلفة وفق تطورات توازن القوى ، فبعد الحرب العالمية الثانية وجد الاتحاد السوفيتي نفسه متفوقاً في الأسلحة التقليدية في الساحة الاوربية ولكنه كان مكشوفاً من الناحية النووية ، ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يتبنى استراتيجية واقعية تنسجم مع هذه المعطيات ، فأرتكزت استراتيجيته على ثلاث حقائق هي ، تعزيز التفوق التقليدي في أوربا ، وكذلك تعزيز الدفاع الجوي للتخفيف من مضار أي هجوم ، تجنب الحرب النووية ، وجوهر هذه السياسة هو (الردع) المرتكز على الامساك بالساحة الاوربية كساحة محتملة للصراع وضمان التفوق في هذه الساحة لتوجيه عقابه إليها عند أي هجوم غربي ، فقد بنى الاتحاد السوفيتي سياسته على أساس النظر إلى الغرب كتلة واحدة ، وبما ان الولايات المتحدة خارج قدراته فإن عليه تعزيز وجوده في أوربا وضمان التفوق المطلق في هذه الساحة ، وقد نجحت السياسة السوفيتية في هذه المرحلة الانتقالية التي أعقبها حصول الاتحاد السوفيتي على السلاح النووي في المرحلة الثانية وتطوير قوته الصاروخية في المرحلة الثالثة ليصل إلى مرحلة التوازن في وسط الستينيات .

ومن الطبيعي أن تنعكس هذه المتغيرات على التفكير الاستراتيجي السوفيتي ، ومع ذلك فإن الفكرة الجوهرية هي استمرار سياسة (الردع) وبناء الاستراتيجية السوفيتية على الدفاع سواء في مواجهة امريكيا أو القوى النووية الأخرى[١٥١] .

وعلى الرغم من الدعاية الامريكية التي بدأت تروج لوجود استراتيجية سوفيتية هجومية ، الاّ انه لايوجد دليل على ذلك ، فقد نفى السوفيت باستمرار وجود مثل هذا التفكير ، وفي كل المناسبات تم التأكيد على الطابع الدفاعي للاتحاد السوفيتي ، أما ما تستند إليه الادارة الامريكية من أن الاتحاد السوفيتي لم يتوقف قط عن تطوير قواته النووية ، فيرد عليه السوفيت من حيث هو ضرورة دفاعية ، فالاتحاد السوفيتي كان دائماً في حالة ملاحقة للتفوق الامريكي وليس العكس ، فقد فرضت الاستراتيجية الامريكية ذات الطابع الهجومي والعدائي ، فرضت على الاتحاد السوفيتي الدخول في سباق التسلح ، خصوصاً وأنه يواجه قوى نووية متعددة تضم أيضاً فرنسا وبريطانيا والصين ، ويقدم السوفيت دلائل عديدة على موقفهم ، وفي مقدمتها هوس الولايات المتحدة بالحصول على القواعد العسكرية وبناء حاملات الطائرات النووية والاقتراب المستمر من الاتحاد السوفيتي .

والواقع انه لاتوجد أدلة مقنعة على عدائية الاتحاد السوفيتي أو تخطيطه لشن هجومات نووية مفاجئة ، وأن هذه الذرائع التي روجتها وسائل الاعلام الامريكية ، كانت تقصد ارعاب حلفائها أيضاً ، عن طريق وجود هذا المخطط الوهمي ، وذلك لدفعهم لمزيد من الاحتماء بالمظلة النووية الامريكية .

---

١٤١) أنظر في حجج السوفيت على الطابع الدفاعي لأستراتيجيتهم - موسوعة العلوم السياسية - جامعة الكويت - ص ٦٥٨ .

ومن المرجح أن سياسة السوفيت لم تخرج عن الطابع الدفاعي ، وحتى تلك المحاولات التي جرت للاقتراب من الاراضي الامريكية ، يمكن تفسيرها على أنها تحوطات دفاعية لمواجهة أي هجوم امريكي . .

أن الاتحاد السوفيتي قد نجح في تصميم سياسة رادعة تعززت بتطوير قدراته العسكرية والوصول إلى مرحلة التوازن ، والتفوق احياناً ، كما تعززت بسياسة خارجية مخططة ومعتمدة على التغييرات الاقليمية الكثيفة التي كانت في صالح الاتحاد السوفيتي في معظمها ، غير أن صعود غورباتشوف جعل هذه الاستراتيجية في مهب الريح .

١٤٣ - وخلاصة الأمر هي أن توازن الرعب ظاهرة جديدة في العلاقات الدولية ومتغير من المتغيرات الاساسية التي أضفت بعداً جديداً على علاقات القوى العظمى وتحكمت في سلوكها ، لكن مع عمق هذا المتغير الاّ أنه لايهدم نظرية توازن القوى التقليدية أو يعطل نتائجها كما هي معروفة تاريخياً ، فستظل هذه النظرية فاعلة في ظل وجود الأسلحة النووية أو حتى ما هو مدمر أكثرمن ذلك ، لأن هذه النظرية هي قانون تاريخي مرتبط بوجود الدول يدور معها وجوداً وعدماً ، وطالما بقيت الدول فإن هذا القانون سيظل باقياً ، وكلما تطورت الدولة فإنه سيتطور معها ويتكيف مع اشكالها وأنواعها .

أن ذلك في رأينا لايجب أن ينتقص من أهمية توازن الرعب الذي أنتج في رأينا ثلاث نتائج رئيسية هي : -

١ - جعل قرارات السلم والحرب أكثر عقلانية ، وذلك قياساً على حجم الدمار الناجم عن الصراع النووي ، وهذه النتيجة توسع بالضرورة دائرة السياسة وتزيد من خياراتها وتجعل الصراع أكثر ميلاً نحو العنصر التنافسي

وبوسائل أكثر سلمية .

٢ - إيجاد تبدل اساسي في إستراتيجيات الدول بالتفكير في نمط الحروب التي تحقق أهداف الدولة دون التعرض لدمار شامل ، فليس من المعقول أن تتورط الدول في صراع قد يؤدي إلى زوال الدولة ذاتها .

٣ - تبدل اشكال الحرب ، من الحروب الواسعة والشاملة إلى نمط جديد هو الحروب الاقليمية ، وهذا ما سنبحثه في الفصل القادم .

الفصل السابع
التـــوازن الاقليمـــي
وأثـره في التـوازن الدولي

١٤٤ - تحدثنا فيما مضى عن توازن القوى العالمي ، والذي يطلق عليه احياناً توازن القوى الرئيسي أو توازن القوى المسيطر ، لأنه ينظم علاقات القوى الرئيسية المسيطرة على السياسة العالمية ، وهو على اهميته وشموله ، الا انه يعتمد على توازنات أخرى ذات طابع محلى يتأثر بها وتتأثر به ، وهي مايطلق عليه (التوازن الاقليمي أو التوازن الفرعي) وهي اشكال من التوازنات التي تتكون داخل أطر جغرافية محدودة تجمع عدد من الدول التي تدخل فيما بينها في علاقات تتسم بالصراع على السلطان والنفوذ في هذا الاطار الجغرافي المحدود ، وكمحصلة لهذا الصراع فإن دولاً محدودة تصل إلى مرحلة متعادلة أو شبه متعادلة من القوة ، مما يؤدي إلى قيام توازن قوى محلي ، يتحكم في سلوك الدول ويضبط علاقاتها بعضها مع بعض ، فيجري التنافس بين اقطابه أيضاً بالاساليب السلمية وقد ينتهي بالحروب ، مثله في ذلك مثل توازن القوى العالمي .

١٤٥ - أن شراح العلاقات الدولية لم يعطوا بعد هذا النوع من التوازن اهميته من الشرح والتحليل ، وذلك ناجم - على الأرجح - عن الاعتقاد بان المؤثر الرئيسي في العلاقات الدولية هو توازن القوى العالمي ، الذي يؤثر في الصراعات الاقليمية وينعكس عليها بشكل مباشر ، وربما إعتقدوا أن هذه الصراعات مجرد تداعيات للصراع الدولي .

وإذا كان (مورجنتاو) هو اهم الباحثين في نظرية توازن القوى ، الا انه لم يعط غير اهتمام قليل للتوازن الفرعي ، فمن مجموع ماكتب عن توازن القوى لم يخصص غير صفحات اربع لهذا النوع من التوازن ، وكانت هذه الصفحات القليلة مخصصة للنظر في الماضي دون اهتمام يذكر بقراءة المستقبل ،(١٥٢) اما عدا مورجنتاو ، فإن اغلب الباحثين يميل إلى إهماله ، وهم وان تناولوا النزاعات الاقليمية ، فإنهم يتناولونها كقضايا دولية دون اخضاعها لقوانين التوازن ومنطقة .

والواقع ان توازن القوى الاقليمي ، مثله مثل توازن القوى العالمي ، يخضع للقواعد نفسها ويتسم بخصائص مشابهة ويؤدي إلى النتائج عينها تقريباً .

ذلك على المستوى المحلي أو الاقليمي ، ولكنه يلعب دوراً مركباً ، إذ انه يؤثر تأثيراً مباشراً في الصراع العالمي ويؤدي إلى حسمه احياناً ، ولا نظن انه توجد مبالغة كبيرة في القول بان الصراعات العالمية الكبرى تعتمد في تطوراتها ونتائجها على ما يجري في الصراعات والتوازنات المحلية .

١٤٦ – أن هذه القاعدة قد أصبحت أكثر اهمية اليوم ، وفي العصر النووي بالذات ، إذ تراجعت ولاشك فرص الحروب المباشرة والواسعة بين القوى العظمى ، أركان التوازن العالمي ، فاستعيض عن ذلك بالصراعات الاقليمية المحدودة ، حيث يتدخل كل طرف دولي في هذا الصراع بقصد تحقيق مكاسب اقليمية تزيد رصيده في ميزان القوى العالمي وتحطم معسكر خصمه ، فإذا تداعت المكاسب وتعددت في مناطق الصراع ، فإن توازن القوى العالمي يتحول ضرورة نحو الطرف الرابح ، وذلك هو بالضبط ماجرى في صراع الحرب الباردة ،

---

١٥٢) هانز – جي – مورجنتاو – السياسة بين الأمم – ص ٢٧١ وما بعدها .

حين استطاعت الولايات المتحدة ان تربح معظم مناطق الصراع الاقليمي ، وحين خسر الاتحاد السوفيتي معظم هذه المناطق ، كانت النتيجة ، تحول ميزان القوى نحو الولايات المتحدة ، مما ادى ، بالاضافة إلى عوامل آخرى ، إلى تفكك الاتحاد السوفيتي نفسه .

أننا في هذا الفصل سنلقي بعض الضوء على هذا النوع من التوازن من الناحية التاريخية وسنحاول تبيان درجة تأثيره وكيفيتها في التوازن الرئيسي وذلك من خلال نماذج محدودة ولكنها كافية لايضاح مدى اهميته .

التوازن الاقليمي... هل هو ظاهرة جديدة؟

١٤٧ - توازن القوى هو قانون تاريخي سواء تعلق الامر بالتوازن الدولي أم الإقليمي ، فمنذ القدم عرف الاثنان ، غير ان ثورة المواصلات والاتصالات وامتداد العلاقات الدولية بشكل افقي ، وسع بالضرورة اطار التوازنات .

والواقع ان التوازن الاقليمي هو الاسبق وجوداً ، وبما أن العلاقات الدولية في الماضي كانت اقل شمولاً ، فإن توازنات القوى أخذت الطابع نفسه ، فعالمنا اليوم ، كان في السنين الغابرة عوالم متعددة كل منها مستقل بذاته ، ولذلك كان لكل عالم توازنه الخاص وعلاقاته المحدودة مع غيره من المناطق الأخرى .

وحتى في ظل هذا الوضع ، فإن شكلين من التوازن قد عرفا ، الأول هو التوازن الرئيسي الذي يضم الأمم المسيطرة في المنطقة أو القارة ، والثاني هو التوازن المحلي بين الدويلات أو الامارات أو ماشابه ذلك .

فقد شهدت القارة الاوربية منذ قرون هذين الشكلين من التوازن ، فعندما كان التوازن المسيطر (او العالمي على المستوى الاوربي) بين فرنسا والنمسا في القرن السادس عشر ، فإن المدن الايطالية كانت تمثل التوازن الاقليمي ، وفي

القرن الثامن عشر شهدت أوربا الوسطى هذا االنمط من التوازن ، إذ أصبحت بروسيا والنمسا طرفا التوازن المسيطر في العالم الالماني ، بينما مثلت الدويلات الأخرى التوازن الفرعي أو الاقليمي ، فقد كانت المانيا (أوربا صغيرة) اي عالم خاص ضمن عالم اشمل هو أوربا كلها .

وفي القرن التاسع عشر كانت دول البلقان ، هي التوازن الفرعي الذي أثار اهتمام القوى المسيطرة على التوازن (وهي روسيا وبروسيا وتركيا) ، فأصبح الصراع في البلقان هو المحرك لسياسات هذه الدول وحركة تحالفاتها .

لكن تطور العلم والتقنية ادى إلى تكبير صور التوازن ، فخلال القرون الماضية مثت أوربا التوازن الرئيسي المسيطر ، ونشأت فيها وحولها عدد من التوازنات الاقليمية ، في افريقيا وآسيا خصوصاً ، لكن أوربا أصبحت فيما بعد وحتى اليوم هي نفسها عبارة عن توازن فرعي مرتبط بالصراع على المستوى العالمي .

ومثلما جرى في الماضي ، فإن عالمنا المعاصر يشهد التركيب نفسه ، فهناك توازن القوى العالمي بين القوى الرئيسية وهناك عدد وفير من التوازنات الاقليمية ، فيمكن ان نتحدث عن توازن القوى في شرق آسيا ، وتوازن قوى الشرق الاوسط ، وتوازن القوى في البلقان ، وتوازن القوى في وسط أسيا ، وتوازن القوى في أمريكيا الوسطى أو الجنوبية ، وتوازن القوى في البحر المتوسط ، وتوازن القوى الافريقي ، وتوازن القوى الاوربي . . . الخ من مناطق العالم ، بل ان هذه المناطق قد تنقسم إلى توازنات أكثر فرعية على مستوى مناطق جغرافية أكثر ارتباطاً بعضها مع بعض وأكثر انعزالاً عن غيرها من المناطق ، فيمكن ان يقال ، توازن القوى في شبه القارة الهندية ، وتوازن القوى في غرب افريقيا أو شرقها ، وتوازن القوى في جنوب شرق آسيا . . . .الخ .

١٤٨ - القاعدة العامة في نظرنا ، هي ان التوازن الفرعي لايمكنه ان يعمل مستقلاً ، اي ان تفاعلاته لاتجري بينها بمعزل عن أطراف التوازن الرئيسي ، ولكنه يستطيع ان يوسع من دائرة استقلاله إلى اقصى مدى ممكن ، بحيث يبدو وكأنه توازن مسيطر ، وقد يضيق به مجال العمل بحيث يتحول إلى مجردصدى وانعكاس للتوازن الرئيسي .

وتتوقف درجة تأثيره وتأثره على مدى استقلاله ، فإذا اتسعت دائرة الاستقلال فإن هذا التوازن يمارس دوراً تأثيرياً واضحاً في التوازن الرئيسي نفسه ، اي ان أطراف هذا التوازن تستطيع ان تلعب دوراً عالمياً من خلال قدرتها الاقليمية ، فتصبح جزءاً محسوباً في اللعبة الدولية الكبرى ، اما إذا ضاقت دائرة الاستقلال ولم تدرك الأطراف اهمية التوازن الاقليمي ، فإنها تصبح مجرد اداة في يد اللاعبين الكبار .

ان درجة الاستقلال ، والدور المترتب عليها ، يعتمد على عوامل شتى ، لكن اهمها هي : القدرة الدبلوماسية ، امكانيات الأطراف ، الموقع الجغرافي .

١٤٩ - والقاعدة الأخرى هي ان الأطراف الدولية في التوازن المسيطر ، لاتصنع التوازنات الاقليمية من العدم ولكنها تستغل وجودها لدعم مكانتها ، فمن طبيعة الاشياء ، ان كل مجموعة من الدول المتجاورة تشهد بعض اشكال الصراع ، مهما تقاربت النظم أو الاهداف ، إذ ان عوامل الصراع تظل كامنة ، لكن القوى الدولية لاتعدم الوسائل لتحريك هذه العوامل عند الحاجة من اجل خلق مفاتيح التدخل للسيطرة على توازن القوى الاقليمي .

التأثير المتبادل بين توازن القوى العالمي والتوازنات الفرعية...

١٥٠ - تلعب التوازنات الاقليمية دوراً فاعلاً ومؤثراً في العلاقات الدولية ، إذ ان التوازن الدولي يعتمد في استقراره أو تغييره على الصراعات الاقليمية ، وإذا صح تشبيه التوازن العالمي بالبنيان المشيد فإن التوازنات الاقليمية هي الاحجار المكونة لهذا البناء ، فإذا هدمت أو تبدلت فإن البنيان لابد وان يتداعى .

إن الصراعات الاقليمية ما هي الا صراعات ممتدة للصراع العام في قمة الهرم ومتى كان الامر كذلك فإن القوى العظمى ، خصوصاً في العصر النووي ، أصبحت تخوض صراعاتها من خلال التوازنات الاقليمية ، فتغيير ميزان القوى العالمي يتطلب تغيير موازين القوى الاقليمية .

فالقطب الذي يستطيع تحقيق انتصارات اقليمية متعددة يستطيع قلب التوازن العالمي لمصلحته ، كما ان الحفاظ على التوازنات الاقليمية بحسب وضعها القائم يؤدي إلى الحفاظ على توازن القوى العالمي .

ونظراً لإدراك اللاعبين المحليين لاهميتهم فإنهم يستطيعون التأثير في توازن القوى العالمي وفي سياسات الدول الكبرى ، بشرط ان يدركوا قواعد اللعبة وان يستخدموا مكانتهم في التوازن الاقليمي بكل المهارة والاتقان .

والواقع ان الصراع بين العملاقين اثناء الحرب الباردة اعتمد اعتماداً كلياً على الصراعات الاقليمية ، وقد حققت الولايات المتحدة انتصارها على الاتحاد السوفيتي ، ليس عن طريق الحرب المباشرة ، بل من خلال تعديل الاوضاع الاقليمية لمصلحتها ، فسقطت خنادق الاتحاد السوفيتي الواحد تلو الآخر ، حتى أصبحت الدولة السوفيتية نفسها ساحة للصراع ، وتفككت نتيجة للعجز عن ادارة الصراعات الاقليمية .

فالعلاقة بين التوازن الدولي والتوازنات الاقليمية هي علاقة جدلية ، إذ يتأثران بعضها مع بعض بشكل مباشر ، فأصبحت العلاقات الدولية مرتبطة بهذه الجدلية ، فمن خلالها يمكن الكسب والخسارة في المستويين .

وسنعرض فيما يلي الشروط الرئيسية للتأثير في التوازن العالمي من خلال الصراعات الإقليمية وبعض النماذج للتوازنات الاقليمية ، وكيف استطاعت الأقطاب كسبها ، وكيف استطاعت الأطراف الاقليمية تحقيق انتصاراتها من خلال التأثير في التوازن العالمي نفسه .

شروط تأثير التوازن الإقليمي في التوازن الدولي

١٥١ - لكي ينعكس التوازن الاقليمي على التوازن الدولي ويؤثر فيه بشكل فاعل فلابد من وجود شروط تتعلق بالطرفين الاقليمي والعالمي ، وهي شروط يمكن اجمالها في ثلاثة :

أ - أهمية الطرف الإقليمي (المحلي)

فمن شروط تأثير التوازن الفرعي في التوازن الرئيسي ان يكون للطرف الاقليمي اهميته وقدرته العسكرية والاقتصادية والجغرافية كي يستطيع لعب دوره لحساب القطب العالمي وليحقق لنفسه مكاسب مهمة على الصعيد الاقليمي ، ففي كل توازن محلي يظهر عدد من الأطراف ، لكنها ليست على المستوى نفسه من الاهمية والقدرة ، فبعضها لايستطيع تجاوز الدور المحلي والاحتماء بالقوى المحلية ، لأن قدراته العسكرية أو الاقتصادية لاتمكنه من إداء دور قيادي ، ففي التوازن الاقليمي الآسيوي مثلاً لاتستطيع دول مثل سنغافورة اولاوس أو بورما القيام بدور جوهري ، لانها ذات قدرات محدودة لاتمكنها من خوض الصراع المستمر ، وفي التوازن الأوربي لايمكن لدولة صغيرة مثل

سويسرا أو بلجيكا أو اللوكسمبورغ ان تتحول إلى قوة اقليمية عظمى ذات تأثير في التوازن الدولي .

ومن أمثلة الأطراف المؤثرة في توازن القوى الإقليمي في الشرق الأوسط ، المثال الصهيوني فهو مؤثر بفعل الدعم الأمريكي والغربي من جهة ولكن اهميته العسكرية والاقتصادية والعلمية جعلته يحظى باهتمام الأقطاب الدولية المتصارعة واستخدمته في الصراع لحسابها ، ولكنه استطاع ان يحقق مكاسب هائلة لنفسه نظراً إلى أهميته وقدرته على ادراة هذا الصراع .

ب - إدراك القطب الدولي لأهمية توازن القوى الإقليمي . . .

تشارك الأقطاب الدولية في الصراعات الاقليمية من اجل زيادة مكاسبها ودعم مكانتها في توازن القوى العالمي ، وهي لاتخوض هذا الصراع الا إذا ادركت اهمية الصراع المحلي ووجدت الطرف الاقليمي المناسب الذي يتوجب دعمه والاستفادة من دوره ، وعلى الطرف الدولي بناء استراتيجية واضحة لضمان تفوق الطرف الاقليمي في الصراع ، ويعود الصراع العربي الصهيوني كمثال صالح لابراز مسألة مدى ادراك الطرف الدولي لأهمية الصراع الإقليمي وقدرة أطرافه ، فقد إعتمد الغرب في صراعه بمنطقة الشرق الأوسط على الكيان الصهيوني ، فمنذ نشوء هذا الكيان حظي بالدعم الغربي ، لادارك الأقطاب الغربية (بريطانيا قبل الحرب الباردة والولايات المتحدة فيما بعد) لأهمية صراع الشرق الاوسط في التوازن الدولي ولأهمية هذا الكيان في ادارة هذا الصراع وادامته ، وعلى العكس من ذلك فإن الاتحاد السوفيتي لم يرتفع ادراكه إلى المستوى نفسه ، فعلى الرغم من انه وضع المنطقة في دائرة اهتماماته ، الا ان ادارك كان اقل من حيث المستوى ، فلم يرم بكل ثقله في هذا الصراع ولم يدعم حليفه الإقليمي بصورة كافية ، فهو لم يمكّن العرب وهم الطرف الاقليمي الحليف ، من التفوق على الكيان الصهيوني أو حتى التوازن

معه ، وقد نجم ذلك عن نظرة ضيقة للصراع كما سنفصل ذلك فيما بعد .

ج – وجود مصالح مشتركة بين الطرفين الدولي والاقليمي . . .

أن هذا الشرط مهم للغاية ، فلابد من وجود مصالح مشتركة حقيقية بين الطرفين الدولي والاقليمي ، مصالح ذات طابع استراتيجي ، اما عسكرية أو إقتصادية أو ثقافية أو تاريخية ، فمن دون وجود هذه المصالح يغدو التحالف بين الطرفين هشاً ومرحلياً وكلما ارتفع مستوى هذه المصالح كان التحالف متماسكاً وقوياً .

وإذا اخذنا مجدداً الصراع العربي الصهيوني كمثال ، فإن تحالف الغرب مع الكيان الصهيوني قام على وجود مصالح مشتركة قوية وذات طابع استراتيجي ، إلى الدرجة التي أصبح معها وجود هذا الكيان حيوياً من وجهة نظر الغرب ، إذ أن مجرد أضعاف دوره أو الحاق الهزيمة به يعد خطأً احمراً لايمكن قبوله ، وليس من العجب بعد ذلك ، انه وفي كل حروب الشرق الاوسط القى الغرب بكل ثقله لدعم هذا الكيان وتثبيت وجوده وعدم السماح بالحاق الهزيمة به ، فمن الثابت ان الولايات المتحدة تدخلت في كل حروبه مباشرةً إلى درجة التعبئة النووية في حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م عندما تعرض وجود هذا الكيان للخطر .

ان العرب والاتحاد السوفيتي في هذا الصراع لم يرتقوا إلى هذا المستوى من المصالح ، فقد ظلت العلاقة بين الطرفين حبيسة الاطر الرسمية ، ولم تكتسب بعداً استراتيجياً واضحاً فقد كان هذا الصراع في نظر السوفيت مجرد فرصة للتغلغل الايديولوجي ، اما العرب الذين تحالفوا معه فقد وجدوا فيه مجرد حليف يبيع الأسلحة المدفوعة نقداً .

تلك هي على الاجمال الشروط الاساسية للتأثير المتبادل بين التوازنين

الاقليمي والدولي وسنعرض فيما يلي بعض النماذج للتوازنات الاقليمية في مرحلة الحرب الباردة ، وكيف استطاعت هذه التوازنات احداث تأثيراتها بتغير موازين القوى العالمية نفسها .

أ ـ التوازن الإقليمي في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية...

١٥٢ - بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أصبحت أوربا اهم ساحة للصراع الدولي بين الشرق والغرب ، حيث انقسمت أوربا إلى كتلتين ، احداهما غربية خاضعة للنفوذ الامريكي والأخرى شرقية تابعة للاتحاد السوفيتي ، وتبلور ذلك عن طريق انقسام أوربا بين حلفي الاطلنطي ووارسو .

وبهذا الانقسام فقد نشأ في أوربا توازن اقليمي عام يضم كافة امم أوربا ، وتوازنان فرعيان هما توازن أوربا الغربية الصغيرة ، وهو توازن شهد بعض الصراع في داخله ، وهو صراع ناجم عن الاختلاف حول إختيارات أوربا وتوجهاتها ودرجة إستقلالية أوربا تجاه القطبين العالميين .

وبصورة مشابهة ، وان كانت اقل حدة ، نشأ نوع من التوازن المقابل داخل بلدان اوربا الشرقية ، وهو توازن لم يخل من الصراع أيضاً ، وكان مبعثه درجة استقلالية هذه البلدان عن الدولة القطب (الاتحاد السوفيتي) أيضاً ، ولكن هذا الصراع لم يكن ظاهراً ومكشوفاً نظراً لطبيعة السيطرة السوفيتية .

وفي ظل هذه التوازنات الفرعية جرى الصراع بين القطبين ، ومن الطبيعي إن هدف كل قطب إنحصر في تثبيت الوضع القائم أولاً ومحاولة كسب بعض النفوذ في معسكر الطرف الآخر ثانياً وصولاً إلى صنع توازن اقليمي يعمل لمصلحته ، وهكذا فقد جرى التنافس على المانيا مما ادى إلى انقسامها إلى دولتين ، كما جرى التنافس على ايطاليا واليونان وتركيا ، وهو التنافس

الذي حسمته الولايات المتحدة لمصلحتها بتثبيت الاوضاع في هذه الدول كجزء من المنظومة الغربية والحلف الاطلسي .

وقد عملت الولايات المتحدة في اتجاهين يسعى الأول إلى ضمان التماسك في الحلف الغربي ، اما الثاني فهو السعي إلى زعزعة التماسك في البلدان الشيوعية وتشجيعها على الخروج من قبضة الإتحاد السوفيتي .

إما في الاتجاه الأول فقد استندت إلى سياستين ، اقتصادية ، وعسكرية ، وقد نجحت الولايات المتحدة في استخدام مشروع (مارشال) كأداة اقتصادية لتثبيت تماسك الغرب وحرمان الإتحاد السوفيتي من اي استخدام لهذا العامل في زعزعة الاستقرار الغربي ، وقد ادت الاوضاع الاقتصادية الممتازة للولايات المتحدة إلى تحقيق هدفها بالسيطرة على الكتلة التابعة لها ، وفي الميدان العسكري فقد كانت مظلة الحماية النووية هي اداة السيطرة ، وهي الحماية التي كرسها حلف الاطلنطي وعبر عن نجاحها ، ولم يمس هذا النجاح إلاّ بصورة طفيفة بخروج فرنسا من الترتيبات العسكرية لهذا الحلف .

وعلى الاجمال فإن الاتحاد السوفيتي لم يحقق اي نجاح في زعزعة استقرار المعسكر الغربي ، وقد انتهج الإتحاد السوفيتي سياسة مشابهة لسياسة الولايات المتحدة فيما يخص المعسكر الشيوعي بفرض سيطرته الاقتصادية والعسكرية ، غير ان ضعف الامكانيات الاقتصادية وفرض الحلول الايدولوجية بشكل صارم قد بذرا بذور الفشل في تحقيق نجاح مشابه ، فجرى التبرم مبكراً في المعسكر الشيوعي من السيطرة السوفيتية ، وظهرت تشققات واضحة في هذا المعسكر ، عبرت عنها الصين بالخروج من الهيمنة السوفيتية ويوغسلافيا بنوع من السياسة الوطنية المستقلة التي عبر عنها (تيتو) بوضوح عن طريق الانضمام لدول عدم الانحياز وكذلك محاولات الثورة في المجر عام ١٩٥٦م

وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨م وهي الثورات التي سحقت بكل عنف من اجل الحفاظ على قدر من التماسك في المعسكر الشيوعي .

١٥٣ - أن الولايات المتحدة التي استطاعت تثبيت معسكرها لم تتوقف عن محاولات زعزعة الاستقرار في المعسكر الشيوعي وعملت بكل جهد على الاخلال بتوازن القوى لمصلحتها ، والواقع انها نجحت في ذلك عن طريق اختراق الصين بعد ربع قرن من العداء ، وكسبت الكثير من المصالح والنفوذ في أوربا الشرقية ، اما الضربة القاصمة فقد كانت في بولندا ، وهي البطن الرخو في حلف وارسو ، إذ استطاعت عن طريق العمل السياسي البطئ احداث تغيير سياسي مهم بتمكين (نقابة التضامن) من الوصول إلى السلطة والخروج من السيطرة السوفيتية ، ولاشك ان هذا الحدث يمثل ذروة النجاح في تغيير ميزان القوى الاقليمي وهو الذي ادى بعد وقت قصير إلى تفكيك حلف وارسو برمته .

إننا لانريد تحليل سياسات الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة ، ومناطق النجاح أو الفشل لكل منهما ، لكن المهم هو النتيجة النهائية ، وهي نجاح الولايات المتحدة في استخدام التوازن الاقليمي للتأثير على التوازن العالمي ، معتمدة في ذلك على امكانيات اقتصادية وعسكرية ودبلوماسية متكاملة ، وذلك هو ما كان ينقص الاتحاد السوفيتي .

١٥٤ - أما الصورة المعاكسة فهي كيفية تأثير الأطراف الاقليمية في السياسة العالمية عن طريق استخدام مكانتهم الاقليمية ، فالسياسي الاقليمي البارع يستطيع ان يلعب دوراً مؤثراً في توازن القوى العالمي ، من خلال موقعه وفي التوازن الاقليمي المشار إليه استطاعت فرنسا ان تمارس هذا الدور في عهد الجنرال (شارل ديغول) .

فعقب الحرب العالمية الثانية تأرجحت أوربا بين اتجاهين رئيسين ، وسيطرت عليها قوتان رئيستان هما فرنسا وبريطانيا . . . .

اما الاتجاه البريطاني فتجسد في محاولة جر القارة نحو الاطلنطي واخضاع سياسة أوربا للتوجهات الامريكية بفرض الطابع الانجلوسكسوني عليها .

اما الاتجاه الثاني الذي قادته فرنسا ، فقد سعى إلى بناء أوربا مستقلة ومتحالفة مع الولايات المتحدة في الوقت نفسه . . . . وبينما اعتمدت بريطانيا على قوة أمريكيا ونفوذها فإن (ديجول) اعتمد على أوربا وخصوصاً على التحالف مع ألمانيا غريمته القديمة . فقد استطاع بالعمل مع المستشار الالماني (كونراد اديناور) تكوين محور (باريس بون) في مواجهة محور (لندن واشنطن) [١٥٣] . . .

ودون حاجة إلى اعادة تفاصيل هذه المرحلة والفن السياسي الذي اظهره ديغول ، فإنه من خلال الصراع الاقليمي واستخدام توازن القوى القائم في أوربا ، استطاع ديغول ان يحول بلاده إلى طرف دولي فاعل ومؤثر في السياسة الدولية ، وهو دور لم يكن سهلاً بالنظر إلى التآمر البريطاني الامريكي وظروف الصراع القاسي في تلك المرحلة .

وخلاصة الأمر فإن التوازن الاقليمي في أوربا أثر بصورة ملحوظة في توازن القوى العالمي ، وبما ان الولايات المتحدة قد خرجت منتصرة في هذا الصراع ، إذ استطاعت تبديل الوضع القائم لمصلحتها ، فإنها بذلك قد هدمت خندق الدفاع الأول للاتحاد السوفيتي من خلال الانتصار في توازن أوربا الإقليمي .

---

١٥٣) ينظر في التفاصيل – د . اسماعيل صبري مقلد – الاستراتيجية والسياسة الدولية – ص ٥٢٨ .

كـمـا ان توازن القـوى الاقليـمـي قـد مـارس دوره في التـأثيـر على التـوازن العالمي ، وأصبح للطرف الاقليمي حصة واضحة في سياسات الدول الكبرى .

ب ـ توازن القوى في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية وتأثيره في توازن القوى العالمي...

١٥٥ – قز لا توجد منطقة في العالم ذات قدرة على ان تتحول الى مختبر مستمر لاهمية التوازن الاقليمي مثلما هي منطقة الشرق الاوسط[١٥٤] ، فطوال القرون الماضية كانت هذه المنطقة ساحة للصراعات بين القوى العظمى ، فقد تبدلت القوى الكبرى مراراً ، فسقطت امبراطوريات ونهضت أخرى ، وظلت هذه المنطقة ساحة للصراع ، وليس من المبالغة ان يقال ان هذه المنطقة بالذات تحولت إلى ساحة الحسم في الصراعات الدولية ، فالطرف الغالب في الصراع دائماً هو من استطاع الامساك بهذه المنطقة والتحكم في صراعاتها ، فما من امبراطورية سقطت الا وسبق سقوطها فقدان هذه المنطقة الحيوية ، وما من امبراطورية استطاعت الصعود الا بعد ان وجدت لها مكان هنا في الشرق الاوسط .

---

١٥٤) ان مصطلح الشرق الاوسط هو من اشد الاصطلاحات غموضاً ، فقد استخدم على مدى التاريخ بمعان مختلفة وللدلالة على منطقة معينة وذلك بحسب القوة المسيطرة وطبيعة الصراع ، ويعتقد ان اول من استخدمه هو عالم الجغرافيا الشهير (الفرد ماهان) عام ١٩٠٢م وحتى بعد هذا التاريخ فقد استخدم بمعاني مختلفة ، وهو يعني اليوم ، بغض النظر عن استخدامات الماضي ، المنطقة المحصورة بين المغرب وباكستان ، ولان المنطقة في معظمها اسلامية فإنه أصبح في الحقيقة يدل على العالم الاسلامي الفعال .... يراجع هنري لورنس – اللعبة الكبرى – الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية – ترجمة د .محمد مخلوف – دار قرطبة للنشر والتوثيق والابحاث – قبرص – ط١ – ١٩٩٢م – ص ٧٠ .

وما من منطقة استطاعت تقديم الامثلة الكثيفة للصراعات بمثل ما استطاع الشرق الاوسط ، فمنذ ظهور الاسلام ، على الاقل ، وإلى اليوم ، فإن الشرق الاوسط لم يتوقف عن الاسهام في الصراع الدولي ، اما كطرف فاعل وامبراطورية قطب ، واما كأداة لصراع الكبار وتسوية حساباتهم ، ولا نريد ان نتعرض لمكانة هذه المنطقة في السياسة الدولية واسباب هذه المكانة ، فتلك رواية معروفة أفاضت فيها كتب التاريخ والعلاقات الدولية ، غير ان اسباباً ثلاثة يتوجب الاشارة إليها ، اسباب لهذا الاسهام الخالد .

فمهما تبدلت الدنيا ومهما حفلت العلاقات الدولية بالمتغيرات ، فإن هذه الأسباب ، هي الثوابت التي لن تتغير ، ومن ثم فإن هذه المنطقة ستستمر فاعلة في الصراع الدولي ، لانها اسباب موجودة في كيان المنطقة منذ الازل وإلى الابد ، ونعني بذلك المكانة الروحية للشرق الاوسط ، والموقع الجغرافي الفريد ، والثراء المتجدد من دون حدود .

ولقد استمدت هذه المنطقة مكانتها الروحية من كونها مهد الرسالات ومهبط الوحي وارض الانبياء والرسل وقبلة المؤمنين في كل مكان ، وهذا عامل خالد واثر باق ومؤثر في جميع الاجناس اما مباشرة في قلوب اهل هذه الديانات أو بالتأثير التي تركته في غيرها من الديانات الأخرى .

اما الموقع الجغرافي ، فهو بيّن لايحتاج إلى ايضاح ، فهو يمتد في قارتين عظيمتين ويعد مفتاح الدخول إلى هاتين القارتين ، ويجاور أوربا عن قرب ويسيطر على المحيطات والبحار والخلجان في العالم القديم كله ، كما يسيطر على مداخل ومخارج القارات الثلاث ويتحكم في طرق مواصلاتها وتجارتها ، ومهما تطورت العلوم وفاضت التكنولوجيا فإن هذه المكانة خالدة لاتمس ، اما

الثروات وهي السبب الثالث للمكانة ، فإن ما من منطقة في العالم احتوت على الثروات المتجددة الناجمة عن التنوع الهائل في الطبيعة والمناخ ، مثل هذه المنطقة ، فهي ارض الماء ، بحاراً وانهاراً وامطاراً ، وينبوعاً للنفط والغاز ، وفي جوفها مالا يحصى من الخيرات والمعادن ، وفي سمائها خيرات الغد الاتية من الشمس والقمر ، وهي أيضاً مهما تطور العلم واكتشف ، فإنها ارض الخير ومصدر الطاقة والغذاء ، ولا يعلم الا الله مقدار ما تحتوي عليه المنطقة من الكنوز .

لهذه الأسباب وغيرها ، أصبحت منطقة الشرق الاوسط اهم مناطق الدنيا ، ومفتاح الفوز في الصراع العالمي ، ومن المؤسف ان القوى الكبرى ادركت هذه الاهمية بأكثر مما ادرك اصحابها ، ومن المؤسف أيضاً ان هذه المنطقة أو ساستها ، طوال التاريخ الحديث لم يدركوا اهمية توازن القوى العالمي ، ولم يفهموا بدرجة كافية اصول لعبة الامم ، وفي مقدمتها (التوازن الاقليمي) عامل مؤثر في التوازن العالمي ، فتحولت المنطقة إلى ورقة يتلاعب بها اللاعبون الكبار ، نتيجة اما لسوء الفهم السياسي أو للخيانة والغدر أو الطمع والأنانية أو غير ذلك من الأسباب .

١٥٦ - ولقد شهد القرن العشرين ثلاثة صراعات كبرى على الاقل ، وخرجت فيها المنطقة خاسرة ، وربحت امبراطوريات جديد وخسرت آخرى ، بفعل التوازن الاقليمي الذي لم يفهمه العرب ولم يستخدموه .

ففي الحرب العالمية الاولى ، لم يفهم العرب بدقة توازن القوى العالمي ولا التوازن الاقليمي المؤثر فيه ، فتلاعبت بهم الامبراطوريات الكبرى (فرنسا وبريطانيا) واستخدمتهم لتحطيم الامبراطورية العثمانية ، وتحقق للقوى الكبرى

ما ارادت ، وخرج العرب صفر اليدين ، بعضهم يرزح تحت الاستعمار المباشر وبعضهم تحت الوصاية والانتداب ، ولقد تكرر الدرس نفسه في الحرب العالمية الثانية ، فكانت ارض العرب احدى اهم ساحات الصراع ، وقاتل العرب تحت رايات غيرهم في مجاهل افريقيا وفي آسيا وفي البلقان ، وخرجوا من الحرب بصفر آخر ، واشكال أخرى من الوصاية والانتداب مع خنجر مسموم في قلب العروبة فلسطين ، ودخلوا الحرب الباردة ، بما حفلت به من حروب ، دفع العرب معظم ثمنها لمصلحة الكبار ، انهار من الدم وقوافل من الشهداء واموال بغير حساب ، اما النتيجة فهي تثبيت الكيان الصهيوني قوة عظمى وبلدان عربية أكثر هشاشة بعضها مستضعف وبعضها محاصر وبعضها يعيش حالة تشابه حالة الاستعمار والوصاية والانتداب .

وكل ذلك بسبب سوء الفهم لأهمية توازن القوى بمستوييه العالمي والاقليمي .

اننا لا نريد التوقف عند مخططات (سايكس – بيكو) ولامحادثات (حسين مكماهون) ولا ألاعيب (لورنس) أو أحابيل (كنج كرين) ، فكلها تصلح دروساً في كيفية التأثير في التوازن الدولي واهمية التوازن الاقليمي فيه .

ولكننا نتوقف عند آخر الحروب وهي الحرب الباردة ، التي كانت المنطقة العربية واحدة من اهم ساحات الصراع فيها ، وكيف امكن للقوى الكبرى الاعتماد على توازن القوى الاقليمي لكسبها ، وكيف فشل العرب في التأثير في توازن القوى العالمي من خلال موقعهم الاقليمي ، وكيف نجح عدوهم (اسرائيل) في استخدام توازن القوى الاقليمي استخداماً مثالياً ، للتاثير في ميزان القوى العالمي .

هذا الدرس هو صورة مطابقة لصراعات الماضي ، كما يمكن ان يكون صورة أخرى لصراع المستقبل ، وهو صراع قد لانحسن المشاركة في ادارته ، ومن ثم فإننا قد نحصد الفشل في المشهد القادم أيضاً .

١٥٧ - فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفي خضّم الصراع بين العملاقين ، تشكل التوازن الاقليمي في المنطقة من قوى متعددة ، ويمكن حساب اسرائيل ومصر وسوريا وتركيا وايران كأطراف رئيسية لهذا التوازن ووراء هذه القوى بعض اقطار العرب بعضهم بأمواله وبعضهم بعمقه وبعضهم بحماس الجماهير والثورات .

وتحولت المنطقة برمتها إلى ساحة للصراع المعقد ، فهي ساحة للصراع بين الامبراطوريات القديمة (فرنسا وبريطانيا) من جهة وبين الولايات المتحدة الامريكية من جهة أخرى ، وقد استطاعت هذه الاخيرة ، اعتماداً على العرب انفسهم ، من حسم الصراع فأخرجت فرنسا من مناطق نفوذها (سوريا ولبنان والمغرب العربي) ، كما أخرجت بريطانيا من مناطق نفوذها (مصر والسودان والمشرق العربي) وقد تم ذلك بطريقة أكثر سهولة ، لأن الصراع بين بريطانيا وأمريكيا ، كما يقول محمد حسنين هيكل ، كان عائلياً ، شديد الضراوة ، لكنه يحاول ستر المظاهر ، حرصاً على روابط الدم ، وإتقاءً للفضيحة وشماته الاعداء[١٥٥] .

وقد استكملت الولايات المتحدة سيطرتها عند التكفل بحضانة اسرائيل ، وهي طرف ضعيف اقليمياً في ذلك الوقت ، ولكنها القوة الاقليمية الصاعدة والمرشحة للحفاظ على توازن القوى الاقليمي لمصلحة الولايات المتحدة .

١٥٥) محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - مركز الاهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ط١ - ١٩٨٦م - ص ٦٢ .

ولقد انتبه الاتحاد السوفيتي لأهمية المنطقة ، وحسب ان اوضاعه العالمية تعتمد على وجود ما بمنطقة الشرق الاوسط ، فهي بوابة المياه الدافئة ومنبع الثروات ، ولكن الأهم من ذلك هو موقعها الجغرافي باعتبارها احد خنادق الدفاع عن الاتحاد السوفيتي ، فإذا خضعت المنطقة برمتها للنفوذ الامريكي فإن ذلك سيسهل عليها الاقتراب منه وسيجعل المعركة قريبة من اسواره وحصونه ، فالمنطقة تشكل مكمن النجاح لسياسة الاحتواء التي خططتها الولايات المتحدة ضده .

١٥٨ - إن الولايات المتحدة لم تخف استراتيجيتها في السيطرة ، بدءاً بالاعتراف المبكر باسرائيل وتعهد أمنها ، مروراً بحلف بغداد ، وانتهاءً بالتحالفات الاستراتيجية مع تركيا وايران .

وعلى الرغم من ان الاتحاد السوفيتي قد حاول الاقتراب من الكيان الصهيوني عن طريق اعترافه المبكر بهذا الكيان والعمل على مساعدته ، الا ان هذا الجهد قد فشل بسبب ادراك الكيان الصهيوني لأ همية التوازن الاقليمي مما جعله يرمي بثقله في الاتجاه الذي قدره رابحاً في نهاية المطاف .

وهكذا فإن الاتحاد السوفيتي لم يجد بداً من الاقتراب من العرب وهم الطرف الآخر في الصراع ، وقد ساعد على ذلك عوامل كثيرة ، يأتي في مقدمتها ان العرب هم جزء من حركة التحرر العالمي التي تخوض صراعاً جاداً ضد الغرب من اجل الحرية والاستقلال . .

ولقد امتدت يد العرب إلى الاتحاد السوفيتي ، وقد كانت نظرة جمال عبد الناصر ان عوامل عديدة ستدعم التعاون ، على ان عنصرين اثنين يدفعان نحو هذه العلاقة ، الأول هو البعد الايديولوجي في سياسة الاتحاد السوفيتي ، الذي ظهر كقاسم مشترك بين الاثنين ، فبغض النظر عن الخلاف الديني فإن

شعارات الاشتراكية والمساواة التي انطوت عليها عقيدة السوفيت كانت قاردة على تذويب عوامل الاختلاف .

اما العنصر الثاني فهو البعد الإستراتيجي المتمثل في اهتمام الاتحاد السوفيتي وحلفائه بالمنطقة باعتبارها خطاً دفاعياً له ، مما سيدفعه للاستماتة في الدفاع عن المنطقة وإبعادها عن أن تصبح منطقة نفوذ إمريكي مطلق .

وهكذا فإن علاقة العرب والسوفيت بدأت بشروط موضوعية ملائمة وتوفرت لها اسباب النجاح للحفاظ على توازن القوى الاقليمي أو حتى ميله في اتجاه الاتحاد السوفيتي إذا احكمت السياسات وخلصت النوايا ، وتدعم ذلك بصفقة الأسلحة التشيكية المعروفة ثم بالانذار الشديد الذي وجهه الاتحاد السوفيتي لدول العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م .

غير ان الولايات المتحدة واسرائيل ، كانتا أكثر دهاءً مما هم عليه العرب والسوفييت ، فقد تبنت الولايات المتحدة سياسة متصلبة كان هدفها ضمان تفوق اسرائيل عسكرياً وذلك للتحكم في التوازن الاقليمي ، واردفت ذلك بجملة من السياسات ، من اهمها منع قيام قوة عربية موحدة يمكنها التوازن مع اسرائيل ، وذلك باختراق الوطن العربي نفسه وكسب مناطق نفوذ جديدة والسيطرة على مناطق النفوذ التقليدية ، واعطت هذا التوازن الاقليمي بعداً اعمق بربطه بسلسلة من التحالفات مع كل من باكستان وايران وتركيا ، كما إن اسرائيل وهي اداة الصراع الرئيسية لم تكتف بضمانات الحماية والامن الامريكية بل وسعت علاقاتها بالقوى العظمى الأخرى وخصوصاً الدول الاوربية ، بل ان الاتحاد السوفيتي نفسه لم يغب قط عن سياستها وعملت على الدوام على كسبه أو أضعاف تحالفه مع الوطن العربي .

ويمكن ان يقال ان توازن القوى الاقليمي في الشرق الاوسط مر بمرحلتين ، المرحلة الاولى هي مرحلة التوازن النسبي بين العرب واسرائيل ، وهي أيضاً مرحلة التوازن النسبي بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وتمتد هذه المرحلة منذ انشاء الكيان الصهيوني وحتى نهاية عام ١٩٧٣م ، فعلى الرغم من هزيمة العرب عام ١٩٦٧م ، الا ان هذه الهزيمة ، لم تستطع من الناحية السياسية الاخلال بميزان القوى الاقليمي أو العالمي ، فقد ظل الانتصار الاسرائيلي ذو طبيعة عسكرية بحتة ، ولم ينعكس على الاوضاع السياسية بشكل عام .

اما المرحلة الثانية وقد بدأت عام ١٩٧٣م فهي مرحلة اختلال ميزان القوى الاقليمي والعالمي لمصلحة الكيان الصهيوني والولايات المتحدة .

فعلى الرغم من الانتصار العسكري النسبي الذي حققه العرب ، في حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م ، الا ان الادوات السياسية كانت عاجزة عن توظيف هذا النصر في تثبيت توازن القوى القائم على الاقل ، بل أن مصر وهي القوة العربية الرئيسية ، ونتيجة لإحباطاتها من السياسة السوفيتية ، قد غيرت وجهة شراعها وإنحازت للطرف الإمريكي الذي قدرت أنه الرابح في الصراع .

وهكذا فقد استطاعت الولايات المتحدة تحقيق نصراً اقليمياً ، واستطاعت اسرائيل ان تتحول إلى القوة الاقليمية العظمى ، وبالمقابل فقد خسر الاتحاد السوفيتي هذه الحرب ليسقط الخندق الثاني من خنادقه الدفاعية . ولتنتقل المعركة إلى تخومه تمهيداً لتفكيكه وسقوطه .

١٥٩ - والسؤال هو ، هل يرجع هذا الفشل ، إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره قوة عظمى لم تستطع ادارة الصراع الاقليمي ، ام ان السبب يعود إلى العرب الذين لم يستطيعوا التأثير في توازن القوى العالمي من موقعهم الاقليمي الممتاز؟

والاجابة هي ان الطرفين ، ارتكبا اخطاءً فاحشة في ادارة الصراع ، وهي اخطاء تتعلق بطبيعة العلاقة بينهما من جهة وبنظرتهما إلى الصراع من جهة أخرى . فقد اتسمت العلاقة بين العرب والاتحاد السوفيتي بعدم الوضوح والشمولية ، إذ بدت العلاقة بين الطرفين وكأنها علاقة اضطرار ، وليست علاقة اختيار ، فقد تصور الاتحاد السوفيتي ان العرب مدوا ايديهم إليه بعد ان ظلت معلقة في الهواء في اتجاه الغرب منذ زمن طويل ، وتصور العرب ان الاتحاد السوفيتي مد يده مجبراً لأن طوق الاحتواء يأخذ بخناقه وضاقت امامه فرص المناورة وبغير التعاون مع العرب فلن يكون له وجود في منطقة الشرق الاوسط ، وهذا هو عدم الوضوح ، اما عدم التكامل والشمولية ، فإن العلاقة بين الطرفين كانت علاقة بين القيادات وعلى المستوى الرسمي ، إذ ظلت العلاقة حبيسة هذا المستوى ، دون إعطائها اي بعد شعبي اقتصادي وثقافي وجماهيري ، وذلك يعود لاسباب جغرافية وحضارية وثقافية ، تبدأ من غرابة اللغة وتمتد إلى طبيعة الشعوب ومسلكها .

اننا لانريد ان نفيض في هذا الموضوع ، بالبحث في من المخطىء ؟ فقد عدد الاستاذ محمد حسنين هيكل عشرة اخطاء رئيسية شابت العلاقات العربية السوفيتية[١٥٦] ، وهي صحيحة في معظمها لكننا نظن ان الخطأ

---

١٥٦) يعدد الاستاذ محمد حسنين هيكل عشرة اخطاء ، كانت المسؤولة في تقديره عن تعثر العلاقات العربية السوفيتية وهي اخطاء تتعلق بالطرفين وليس بطرف واحد ، وعلى الرغم من تقديرنا لاهمية هذه الاخطاء الا اننا نظن ان الخطأ الاستراتيجي الاكبر جاء من طرف السوفيت ، إذ اتسمت نظرتهم بالقصور وعدم العمق ومحاولة تحقيق المكاسب الايديولوجية دون المكسب الاستراتيجي .... يراجع الاستاذ هيكل زيارة جديدة للتاريخ - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت - ط٢ - ص ١٣٦ ومابعدها .

الرئيسي جاء من طرف السوفيت ونظرتهم إلى الصراع ، إذ شاب نظرتهم فهم خاطىء ادى إلى خسارة فادحة ، وهو فهم لايتعلق بالمنطقة العربية وحدها بل بمجمل الصراعات الاقليمية ، وعلى العكس تماماً فإن خصمهم ، الولايات المتحدة اتبع سياسة مخالفة قادت للنجاح لانها تتفق مع الشرط الاساسي لادارة الصراعات الاقليمية (وهو ضمان قوة الطرف الاقليمي وتعزيز تفوقه الاستراتيجي) . ويتمثل الخطأ السوفييي في النظرة العقيمة للصراعات الاقليمية عموماً ، وصراع الشرق الاوسط خصوصاً ، فقد قامت الاستراتيجية السوفيتية على مبدأ (المحافظة على الصراعات الاقليمية مشتعلة) انسياقاً وراء فهم ، ذهب إلى ان استمرار المشاكل الاقليمية ينطوي على ضمان اكبر للتواجد السوفيتي ، ذلك ان انهاء الصراعات سيقذف بهم إلى خارج المنطقة ، وسيندفع حلفاؤهم السابقون إلى الغرب مرة آخرى ، وبفعل هذا الفهم فقد حرص السوفيت على استمرار الصراع ، وكان دعمهم غير كاف لتحقيق الانتصار أو حتى التوازن الاستراتيجي مع العدو .

لقد كانت هذه السياسة عقيمة ومضرة بالاتحاد السوفيتي على المستوى الاستراتيجي ، وقد دفعت به اخيراً إلى خارج المنطقة ، لتنفرد بها الولايات المتحدة وتحقق واحداً من اهم انتصاراتها التي اسهمت في الاخلال بالتوازن لمصلحتها مما عجل بسقوط الاتحاد السوفيتي نفسه .

فلقد كانت المنطقة العربية ذات دور اساسي في تدعيم موقف الاتحاد السوفيتي كقطب متوازن مع الولايات المتحدة ، إذ لم يكن الوطن العربي مجرد إضافة لثقل السوفيت بل انه كان اقتطاعاً لمنطقة مهمة وإخراجها من دائرة النفوذ الغربي ، وتحطمت فيها محاولات انشاء نظم امنية شرق أوسطية مرتبطة

بالامن الغربي[١٥٧] ومضرة بالاتحاد السوفيتي ضرراً كبيراً .

فلقد هيأت الامة العربية للاتحاد السوفيتي فرصة تاريخية للنيل من خصومة ، وأخرجت من نفوذ الغرب منطقة ذات امكانيات حيوية ، فهذه المنطقة برصيدها الروحي والثقافي والحضاري الهائل ، كان يمكن ان تكون اكبر عائق امام النفوذ الغربي الحضاري والعسكري الذي يهدد الاتحاد السوفيتي ، فقد كانت المنطقة بحق خط الدفاع الاستراتيجي الأخير للاتحاد السوفيتي والتي يحتمل ان يؤدي سقوطها بيد الغرب إلى سقوط الاتحاد السوفيتي نفسه ، ولقد كانت هذه وجهة نظر جمال عبد الناصر التي عبر عنها بكل وضوح إلى القادة السوفيت وذلك عقب حرب ١٩٦٧م وبالفعل فإن السوفيت فقدوا نفوذهم ووجودهم بعد حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م ، لانهم لم يرموا بثقلهم مع حليفهم الاقليمي ولم يعملوا على تعزيز موقفه في توازن القوى الاقليمي ، ولقد خلقت هذه السياسات مرارات عديدة لدى العرب ، وهي المرارات التي دفعت بالرئيس المصري الراحل انور السادات إلى الارتماء في الحضن الامريكي متذرعاً بان ٩٩٪ من اوراق اللعبة أصبح بيد الولايات المتحدة فلا فائدة ترتجى اذن من الاتحاد السوفيتي والتحالف معه .

ولقد بلغت درجة العقم ذروتها بصعود (غورباتشوف) إلى السلطة ، وقد روى احد الكتاب العرب ان قضية الشرق الاوسط ، حسب تصريح احد المسؤولين السوفيت لم تعد تمثل أكثر من ١٪ من اهتمامت الاتحاد السوفيتي ، ذلك وهي اهم القضايا الاقليمية بعد الحرب العالمية الثانية[١٣٨] .

---

١٥٧) خير الدين حسيب وآخرون – مستقبل الامة العربية – التحديات والخيارات – التقرير النهائي لاستشراف مستقبل الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الاولى – ١٩٨٩م –ص٢٠١ .

١٥٨) محمد حسنين هيكل – الزلزال السوفيتي – دار الشروق – القاهرة – ط١ – ١٩٩٠م – ص١١١ .

ولعله من غرائب السياسة ان اول تقرير قدمه (غور باتشوف) باعتباره اميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفيتي لم يمر فيه على مشكلة الشرق الاوسط ولم يذكرها مجرد ذكر [١٥٩] .

هذا هو خطأ السوفيت ، اما خطأ العرب ، فربما تمثل في عدم القدرة على الحساب الدقيق والركون إلى طرف خاسر في توازن القوى العالمي .

اما الولايات المتحدة فقد اتبعت سياسة مخالفة إذ عززت على الدوام من قوة الطرف الاقليمي الحليف ، حيث امدته باحدث الأسلحة وعالجت اختلالاته الاقتصادية ووفرت له الحماية السياسية والدبلوماسية ، بل انها ذهبت إلى حد ابرام اتفاق استراتيجي معه عام ١٩٨١م ، لانها تعرف ان قدرتها على التحكم في الصراع الاقليمي مرهونة بقوة حليفها المحلي .

وإذا كانت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م قد انطوت على اكبر الاخطار لإسرائيل فإن صراع القوى العظمى في هذه الحرب يعطي أكثر الامثلة وضوحاً على كيفية النظر لاهمية الصراع الاقليمي ، فقد وقف الاتحاد السوفيتي بلا شك مع العرب وبذل جهوداً كبيرة ، غير ان ذلك لم يرتقع إلى مستوى الموقف الامريكي الذي وصل إلى درجة اعلان الانذار النووي ، فمن الثابت ان هنري كيسنجر قد امر باعتباره رئيس مجلس الأمن القومي بتعبئة جميع القوات المسلحة الامريكية في القطاع الاطلسي ، وخصوصاً الطيران الاستراتيجي المزود باسلحة نووية ، وقد ردع هذا الانذار السوفيت وأرعبهم[١٦٠] .

إن هذا الحدث يمثل مدى اهمية الفوز الاقليمي ، على ان الولايات المتحدة

---

١٥٩) يمكن مراجعة هذا التقرير المقدم للمؤتمر السابع والعشرين ص ٨٠ وما بعدها ، كذلك المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

١٦٠) هنري لورنس – اللعبة الكبرى – مرجع سبقت الاشارة إليه – ص٢٨٤ .

لم تتوقف عند هذا الحد ، بل عملت على تحطيم كافة القوى الاقليمية الأخرى ، وخصوصاً ايران والعراق ، من خلال حربي الخليج الاولى والثانية وذلك لتعزيز قوة طرفها المحلي في توازن القوى الاقليمي وبالتالي سيطرتها العالمية .

إن منطقة الشرق الاوسط مازالت تموج بالصراعات ، وهي تشهد الآن صراع آخر بين القوى العظمى ، وقد ظهرت اخيراً بوادر هذه الصراع عن طريق بروز أوربا كقوة عظمى بازغة في توازن القوى الآخذ في التشكل ، فها هي فرنسا تحاول العودة من خلال مناطق نفوذها التقليدية في سوريا ولبنان ، لكن هذه العودة ستكون مرهونة بمدى قوة حلفائها الاقليمية ، فإذا عملت على تقويتهم فإنها تستطيع ان تشارك في الصراع العالمي وسيكون لها مكان فيه ، ونعني بتقوية حلفائها تعزيز قوتهم العسكرية والاقتصادية إلى الدرجة التي تجعلهم في الوضع المتوازن مع الكيان الصهيوني ، اما إذا اقتصر الامر على الدعم السياسي والمعنوي ، فإنه من الطبيعي ان تظل اسرائيل متفوقة في التوازن الاقليمي وذلك سينعكس مباشرة على توازن القوى العالمي لمصلحة الولايات المتحدة كما هو جارى إلى حد الآن .

ومن المعروف ان أوربا ومنذ سنوات وهي تحاول ايجاد منفذها للمشاركة في الصراع الدائر في الشرق الاوسط ، وعلى الاقل فإنه منذ عام ١٩٨٠م (مؤتمر البندقية) حاولت أوربا إيجاد خط موازي للسياسة الامريكية ودون الاصطدام معها أو مع حليفتها اسرائيل ، لكن هذه المحاولات بائت بالفشل ، بل كثيراً ما قوبلت بالاهانة المتعمدة لعدد من قادة أوربا (شيراك) على سبيل المثال ، وذلك لافهامهم بطريقة واضحة انه لادور لأوربا كي تلعبه في ازمة الشرق الاوسط .

١٦٠ - ويرجع بعض المحللين العرب اسباب ضعف الدور الاوربي ، إلى

عوامل عربية وأخرى اوربية[161] ، فالتفكك العربي وعدم جدية بعض الدول الاوربية فضلاً عن انهيار الاتحاد السوفيتي ، هي الأسباب المسؤولة التي ادت إلى فرض الهيمنة الامريكية على المنطقة .

ان هذا لصحيح ، لكنه نتيجة حتمية لادارة الصراع الاقليمي ، فالسبب الاعمق هو حسن استخدام الولايات المتحدة لهذا الصراع بتقوية طرفها الاقليمي وفرضه قوة عظمى في المنطقة ، والا لما استطاعت التفرد ، ولايمكن اليوم أو غداً لأية قوة أخرى (أوربا أو روسيا) ان تنافس الدور الامريكي ، الا عن طريق سلوك المنهج نفسه اي بتقوية طرف اقليمي ما ، وتمكينه عسكرياً حتى يتحول إلى قطب اقليمي متوازن مع الكيان الصهيوني وقادر على اجباره على تغيير سياسته ، فالادوار الاقليمية أو الدولية تصنعها القوة وليس سياسة مهذبة يقودها رجل أنيق .

ج ـ توازن القوى الإقليمي في شرق آسيا وتأثيره على توازن القوى العالمي...

١٦١ – يعتبر التوازن الاقليمي في القارة الآسيوية من اشد التوازنات تعقيداً بحكم ان هذه القارة من أكثر مناطق العالم المهددة بالمشكلات الاقليمية ، كما تتعدد قواها الاقليمية ، ففيها إثنتين من القوى العظمى النووية (الاتحاد السوفيتي والصين) وقد لحقت بهما قوى نووية أخرى هي (الهند وباكستان) ، كما ان هذه القارة احد مراكز الاهتمام لجميع القوى الكبرى ، ويضاف إلى ذلك جميعه التعقيدات القومية الناجمة عن كونها تحتوي على اكبر تجمع بشري في العالم ، فالدولة التي تعد بعشرات الملايين تحسب دولة صغيرة في هذه القارة المحشودة .

---

١٦١) عماد يوسف واروى الصباغ – مستقبل السياسات الدولية تجاه الشرق الاوسط – مركز دراسات الشرق الاوسط – عمان الاردن – ط١ – ١٩٩٦م – ص٢١٥ .

إن هذه الظروف قد اوجدت بعد الحرب العالمية الثانية احد اهم التوازنات الاقليمية تعقيداً ، وهو يتداخل مع التوازن العالمي مباشرة ، فتضم المنطقة الصين والاتحاد السوفيتي كشركاء مباشرين في التوازن الاقليمي والعالمي ، كما تضم الهند وباكستان كقوي اقليمية لها اهميتها ، وذلك فضلاً عن اليابان وكوريا والفلبين وتايلند وفيتنام ودول الهند الصينية .

ونظراً إلى تعقيدات هذا التوازن فقد اندلعت الحروب والازمات مبكراً في هذه القارة ، وانجرت جميع الأطراف الدولية والاقليمية ووجدت نفسها في اتون هذا الصراع ، فقد كانت للغرب مصالحه ، وهي مصالح تهم خصوصاً الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ، لكن هذه المصالح متناقضة أيضاً ، بحكم الصراع بين الولايات المتحدة التي اعتبرت نفسها وريثة للمصالح الغربية وبين الامبراطوريات القديمة (فرنسا و بريطانيا) ومحاولتها للابقاء على مناطق نفوذها في القارة الآسيوية .

وكانت للقوى المحلية مصالحها الحيوية العليا ، فالمنطقة مهمة للاتحاد السوفيتي والصين بحكم الجغرافيا والجوار المباشر ، ولكن مصالحهما متناقضة أيضاً بحكم العداءات القديمة والخلافات الايديولوجية التي نشبت بين الطرفين بشكل مبكر ، وهكذا فإن المنطقة شهدت سلسلة مستمرة من النزاعات والحروب ، افضت في نهاية المطاف إلى ترتيبات اقليمية يمكن ان يقال انها حافظت على توازن القوى في المنطقة ، فلم تستطع قوة ما ان تفرض نفسها قوة مهيمنة ، لأن الأقطاب جميعها استطاعت الحفاظ على قوة الأطراف الاقليمية ، لكن تدقيقاً أكثر يسفر عن وجود قوتين هما الولايات المتحدة والصين ، استطاعتا الحفاظ على توازن القوى بالمنطقة ، اما فرنسا فخرجت مبكراً من الصراع بهزيمتها في حروب الهند الصينية والتي كانت خاتمتها معركة (ديان بيان فو) .

ويمكن اخذ مثال فرنسا في النمطقة كنموذج لاستخدام التوازن الاقليمي ، فعلى الرغم من ان فرنسا خاضت حروب الهند الصينية محاولة الظهور بمظهر المدافع عن المصالح الغربية ، الا ان هذه المصالح كانت في الحقيقة متناقضة ، فقد كانت سياسة الولايات المتحدة قائمة على اساس طرد فرنسا من مستعمراتها القديمة وخلق فراغ تقوم بملئه فيما بعد ، ولذلك فإن دعاوي فرنسا لمآزرتها ضد التهديد الشيوعي الذي تتعرض له المنطقة ذهبت ادراج الرياح ، ولم تجد هذه الدعاوي الصدى المطلوب الا بعد ان تأكدت هزيمة فرنسا ، فتدخلت عند ذلك الولايات المتحدة لملء الفراغ عن طريق ابرام معاهدة حلف جنوب شرق آسيا (السياتو) عام ١٩٥٤م وهو الحلف الذي ضم كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندة والباكستان وتايلاند والفلبين ، وشمل نطاق هذا الحلف كل من كمبوديا ولاوس وجنوب فيتنام ومنطقة جنوب غرب الباسفيكي[١٦٢] .

وقد تذرعت الولايات المتحدة في البدأية ، اي في فترة المعاناة الفرنسية ، تذرعت بعدم الاقتناع بالتورط في الترتيبات العسكرية الجماعية في آسيا بالذات وعارض الكونجرس اي تورط في آسيا لانه يثقل كاهل الولايات المتحدة ، لكنها وبعد ن تحققت من هزيمة فرنسا لم تتوان عن هذا التورط الذي دفع بها إلى خوض اكبر حربين آسيويتين وهما حرب كوريا وفيتنام .

ولقد حاولت الولايات المتحدة الاطاحة بتوازن القوى الاقليمي في مواجهة الصين والاتحاد السوفيتي ، وذلك بوسائل ثلاث ، الاولى هي تشديد قبضتها على اليابان بفرض حمايتها عليها بسلسلة من المعاهدات التي ابرمت منذ عام ١٩٥١م ، والثانية بخوض الحرب الكورية ، فقد انتهزت الولايات

١٦٢) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - ص١٨٤ .

المتحدة إجتياز قوات كوريا الشمالية لحدود كوريا الجنوبية في يونيو عام ١٩٥٠م لتحشد المجتمع الدولي وتعلن الحرب على كوريا الشمالية تحت علم الأمم المتحدة ، لا لتعيد القوات الغازية إلى الخطوط الدولية للحفاظ على الوضع القائم ، بل انها ونتيجة لإنتصاراتها في البداية خططت لازاحة كوريا الشمالية من الوجود واعادة توحيد شبه الجزيرة الكورية ، وبدت هذه المهمة سهلة للولايات المتحدة ، فصمم (ماك آرثر) الذي قاد القوات بأسم الأمم المتحدة على تحطيم توازن القوى بتوحيد كوريا ، وضمها بالطبع إلى دائرة النفوذ الامريكي .

غير ان الصين كانت حازمة في مواجهة هذه السياسة التي تشكل اكبر خطر على أمنها ومصالحها الحيوية ، وهي لذلك لم تترد في التدخل المباشر ، على الرغم من التحذيرات الامريكية .

وقد تلقت الولايات المتحدة هزيمة مهينة في الحرب الكورية نتيجة لعدم دقة تقديراتها السياسية ، وبعد ثلاث سنوات من الحرب اكتفت الولايات المتحدة بالحفاظ على الوضع القائم ، وتراجعت سياسة توحيد كوريا بالقوة [١٦٣] ، ومما لاشك فيه ان تحقيق هذا الهدف كان مرضياً للصين الذي

---

١٦٣) دخلت الولايات المتحدة الحرب الكورية بهدف اعادة كوريا الشمالية الى حدودها عن الخط ٥٣٨ ، غير ان انتصاراتها في بداية الحرب اغرتها بتطوير استراتيجيتها بالقضاء على نظام كوريا الشمالية وتوحيد كوريا ، وكانت تلك وجهة نظر (ماك آرثر) لكن بعد تلقي سلسلة من الهزائم بعد تدخل الصين فان رئيس الاركان الجنرال (عمر برادلي) لم يوافق على الاهداف الجديدة اذ رأى انه لا مصلحة للولايات المتحدة في خوض حرب واسعة مع الصين ، وهي حرب من المؤكد ان تؤدي الى اضعاف القوة الامريكية في القارة الاوربية وذلك يخدم مصلحة الاتحاد السوفيتي ، وقد انتصرت وجهة نظر برادلي وتبنتها الادارة الامريكية - يراجع د . اسماعيل صبري مقلد - المرجع السابق ص ٦٥٤ .

انصب اهتمامها على الحفاظ على النظام الشيوعي في كوريا الشمالية ، لأن هذا الوضع يحافظ على توازن القوى الاقليمي ولايضر بمصالح الصين الامنية .

اما السياسة الثالثة التي انتجتها الادارة الامريكية ، فهي إستخدام سياسة فرق تسد بتحريض القوى الاقليمية على بعضها بعضاً ودفعها للنزاع ، ومن اخطر النزاعات التي إندلعت في القارة هو النزاع الصيني السوفيتي ، والنزاع الهندي الباكستاني .

ومما لاشك فيه ان الصراع الصيني السوفيتي كان من اخطر الصراعات في الحقبة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، وقد كان من الممكن ان يعرض المنطقة والعالم إلى خطر ما حق نظراً لانه نزاع اشبكت فيه قوتان نوويتان .

وليس هناك شواهد ظاهرة وباته على وجود تحريض مباشر من الولايات المتحدة على هذا النزاع ، لكن ليس ثمة أية شكوك في انها كانت سعيدة بهذا النزاع الذي اضعف بشكل خطير الكتلة الشيوعية وزعزع استقرارها .

وعلى الرغم من أن هذا النزاع اتخذ بعض المظاهر الايديولوجية ، إذ تبادل الطرفإن الاتهامات من هذا المنطلق ، الا ان العامل الايديولوجي لم يكن سوى القشرة الخارجية ، اما الأسباب الفعلية فهي اعمق من ذلك بكثير ، فهي اسباب قومية وسياسية وجغرافية واستراتيجية ، بنيت على تراكمات تاريخية بعيدة الجذور ، اهمها مشاعر الظلم التي سيطرت على الصين والناجمة عن اتفاقيات غير متكافئة فرضتها روسيا القيصرية على الصين في القرن التاسع عشر ، وهي اتفاقيات اقتطعت من التراب الصيني مئات الآلاف من الاميال المربعة لمصلحة الامبراطورية الروسية ، وتلك اوضاع لم تعد مقبولة في نظر الصين خصوصاً في ظل الحكم السوفيتي الجديد الذي يرفع شعارات الاشتراكية ومقاومة الاستغلال .

وهكذا فقد تورطت الصين والاتحاد السوفيتي في هذا الصراع الذي ادى إلى حرب الحدود بين الطرفين في مارس عام ١٩٦٩م .

ولسنا معنيين في هذا المقام بمتابعة هذا الصراع واسبابه وتفاصيله ، لكن ما يهمنا هو الخطة الامريكية الهادفة إلى استخدام توازن القوى الاقليمي من اجل دعم مكانتها في توازن القوى العالمي ، إذ ان الولايات المتحدة على الرغم من عدائها الايديولوجي للصين فإن ذلك لم يمنعها من التقارب معها بهدف الاضرار بالاتحاد السوفيتي ، إذ انها وعقب توترات عام ١٩٦٩م بين الصين والاتحاد السوفيتي ، وعقب الهزائم المتلاحقة للولايات المتحدة في فيتنام ومع وضوح فشل سياسة الاحتواء الاميركي للصين ، فلم يكن هناك امام أمريكيا سوى التقارب مع الصين ، فذلك سيمكنها من قلب موازين القوى الاقليمية والعالمية ، وبالفعل فإن الولايات المتحدة بدأت بهذا التقارب ، وبتشجيع من الجنرال ديغول ، اقدم (ينكسون) عن طريق وزير خارجيته (كيسنجر) على اتخاذ خطوات ملموسة وتوج كل ذلك بالزيارة التي قام بها نيكسون للصين عام ١٩٧٢م ، لتطوي صفحة مهمة في التاريخ وتفتح آخرى ، فاعترفت الولايات المتحدة بالصين كقوة عظمى ، وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي على مستوى السفراء ، وأصبحت الصين عضواً دائماً بمجلس الأمن الدولي وازداد التبادل التجاري والثقافي بين البلدين ، وبما ان العوائق امام التقارب الصيني الامريكي هي حرب فيتنام والعلاقات الامريكية مع تايوان ، فإن هذه المشاكل صفيت أيضاً بالإنسحاب الامريكي من فيتنام وبانهاء الارتباطات الأمنية الامريكية التايوانية ، إذ ألغى الرئيس الامريكي الاسبق (جيمي كارتر) معاهدة الدفاع المتبادل عام ١٩٧٨م .

ومنذ هذا التاريخ ، الذي تزامن مع الانفتاح الصيني ، دخلت العلاقات بين البلدين مرحلة جديدة اتسمت بالتقارب بينهما والعداء للاتحاد السوفيتي ، إذ اختطت الصين سياسة أكثر جرأة في مواجهة السوفيت ، الذين اعتبرتهم الأكثر خطراً على السلام العالمي ، ودعت دول العالم الثالث ، بما في ذلك البلدان الآسيوية إلى مقاومة الهيمنة السوفيتية .

إن الاتحاد السوفيتي ، تلقى بالتقارب الصيني الامريكي ، هزيمة سياسية أخرى بفقدان فعاليته في توازن القوى الاقليمي والعالمي ، وقد حاول تفادي الاخلال بتوازن القوى عن طريق التقارب مع الهند وغزو افغانستان ، لكن هذه السياسة فشلت في الوصول إلى اهدافها .

اما التقارب الصيني الامريكي فقد انتج ثماره بالنسبة للبلدين ، إذ عززا نفوذهما في توازن القوى ، وحققا مكاسب مرحلية مهمة .

غير ان هذا التقارب معرض الآن للاهتزاز ، فاختفاء الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى الغى القاسم المشترك نسبياً ، وأصبح الحذر هو المسيطر اليوم على العلاقة بين البلدين .

١٦٢ - إن الصراع الآسيوي الثالث هو الصراع الهندي الباكستاني ، الذي استخدمته الولايات المتحدة في مراحل مختلفة ، سواء للاضرار بالاتحاد السوفيتي أو الصين .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد عولت فيما مضى على الباكستان للتحكم في توازن القوى الاقليمي ، فإنها الان تسعى للامساك بهذا التوازن عن طريق الهند أيضاً .

ذلك ان طبيعة المرحلة ، تتطلب مواجهة الصين ومحاولة أضعاف موقعها في توازن القوى بمستوييه .

وعند كتابة هذا الكتاب ، (صيف عام ١٩٩٨) . فإن الهند اعلنت عن قيامها باجراء تفجيراتها النووية ، وقد ردت باكستان باجراء تفجيرات مماثلة بعد ايام قليلة ، ولاشك ان انضمام البلدين للنادي الذري سيفتح صفحة جديدة في توازن القوى الاقليمي والعالمي .

وعلى الرغم من أن المحللين ذهبوا مبكراً إلى ان هذه التفجيرات تدخل ضمن الصراع الإقليمي بين الهند وباكستان ، الا ان الواقع ابعد من ذلك ، فعلى الرغم من اهمية السلاح النووي في صراع البلدين ، فإننا نعتقد ان الامر يتعلق بالصين وروسيا ، فهو محاولة امريكية غربية لايجاد توازن اقليمي يخدم صراعهما في المستقبل مع هذين البلدين الكبيرين ، وإذا كانت لاتوجد دلائل ثابتة حتى الآن تثبت مساعدة الغرب للهند في الحصول على التقنية النووية ، بقصد خلق طرف جديد متوازن مع الصين ، فإننا لانشك في ذلك ، فدخول الهند للنادي النووي يخدم الاستراتيجية الامريكية بشكل واضح ، وربما كانت احدى الدلائل المهمة هي رد الفعل الامريكي الضعيف على التفجيرات الهندية ، ومطالبة باكستان بضبط النفس وعدم الانجراف نحو مرحلة جديدة من سباق التسلح . كما ان الغرب يشهد ومنذ سنوات حملة شعواء على الصين متهماً اياها بمساعدة باكستان في المجال النووي .

وسواء صدق ذلك أم لم يصدق ، فإن مساعدة الصين للباكستان هي سياسة صينية حكيمة ، وهي تدخل في اطار دفاعها عن النفس للحفاظ على توازن القوى في المنطقة ، وهو التوازن الذي يخدم بلاشك امن الصين ومصالحها ، فإذا كان الغرب سيعول على قوة الهند لإأضعاف الصين ، فقد كان على هذه الاخيرة ابطال مفعول المؤآمرة بخلق قوة جديدة توازن الهند وتشغلها .

الخلاصة

١٦٣١ ـ وخلاصة الامر هي ان التوازن الاقليمي يلعب دوراً اساسياً وفاعلاً في توازن القوى العالمي ، بل ان طبيعة العصر النووية قد ضاعفت من اهمية التوازنات الفرعية ، فإذا كانت الحرب العالمية الواسعة أصبحت مستبعدة ، فإن الحروب القادمة ستأخذ الطابع الاقليمي ، حيث تستطيع القوى الكبرى مواجهة بعضها خارج اراضيها ودون أية خسائر مباشرة تقع على مدنها وسكانها ومواردها ، وهي تستطيع عن طريق التوازن الإقليمي تعديل ميزان القوى العالمي لمصلحتها سواء بالحفاظ عليه أم تحطيمه .

إن هذا هو الدرس الاساسى الذي افرزته الحرب الباردة ، فقد تمكنت الولايات المتحدة من تحطيم توازن القوى العالمي واخراج الاتحاد السوفيتي كلاعب عالمي من خلال المكاسب التي حققتها في التوازنات الاقليمية ، فقد كسبت التوازن الاقليمي في أوربا مبكراً بالحفاظ على مناطق نفوذها وزعزعة استقرار معسكر الخصم بسلسة من المكاسب المتتالية ، كما حققت مكاسب نسبية في منطقة جنوب شرق آسيا بالحفاظ على توازن القوى إلى الدرجة التي تمكنها من الوجود كطرف اساس في المنطقة .

وإذا كانت الولايات المتحدة لم تحقق التفوق التام في القارة الآسيوية فإن ذلك يعود بصورة اكبر للجهد الصيني ، لكن ذلك لايلغي كلياً الدور السوفيتي في المنطقة .

أما في منطقة الشرق الاوسط فقد حققت الولايات المتحدة اكبر نجاحاتها ، إذ استطاعت ان تحول حليفها الاقليمي (اسرائيل) إلى القوة الاقليمية العظمى سواء بالعمل على انتصارها المستمر خلال حروبها المباشرة ، ام بالعمل على تحطيم القوى التي يمكن ان تهدد هذا الكيان في المستقبل .

اما الاتحاد السوفيتي فقد خرج من المنطقة نهائياً نتيجة لسوء سياسته وعدم ادراكه الدقيق لاهمية التوازن الاقليمي وبناءه الاستراتيجية على إدامة الصراع ، وعدم اصراره على التمسك بقوة حلفاءه ، واننا لانشك اطلاقاً في ان رصاصة الرحمة التي اطلقت عليه جاءت من منطقة الشرق الاوسط ، فقد انهار الاتحاد السوفيتي فور انهيار توازن قوى الشرق الاوسط وإذا كان بعضهم يعتقد بان انهيار توازن القوى الاقليمي هو احدى تداعيات انهيار الاتحاد السوفيتي ، فإننا نعتقد ان المسألة معكوسة ، فقد انهار الاتحاد السوفيتي ، وتوازن القوى العالمي ، بسبب الخسارات الاقليمية المتعاقبة ، وآخرها ماجرى في الشرق الاوسط ، إذ لو ادرك الاتحاد السوفيتي مبكراً اهمية الصراعات الاقليمية وعمل على الحفاظ على توازناتها بما يلاءم مصالحه الاستراتيجية لما وصل الحريق إليه في عمق أراضيه .

ان احدى الدروس التي أستفيدت أيضاً من مرحلة الحرب الباردة هو قدرة اللاعبين الاقليميين على التأثير في التوازن العالمي ، إذا استطاعوا ادارة دفة السياسة بمهارة ووضعوا اثقالهم في الميزان في الاوقات المناسبة ، فقد استطاع ديجول مثلاً ان يحول فرنسا إلى دولة قائدة وان يظهر للعالم كبطل لسياسة الوفاق الدولي من خلال التوازن الاوربي ، كما استطاع بعض قادة العالم الثالث أن يساهموا بتأثيرات مشابهة على الصعيد العالمي من خلال التوزنات الاقليمية ، ولاشك ان ابرز هؤلاء هم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، والزعيم اليوغسلافي (جوزيف بروز تيتو) ، ورئيس الوزراء الهندي (جواهرلال نهرو) وخليفته المرحومة (انديرا غاندي) .

فقد كانت لهؤلاء أدواراً متميزة على المسرح العالمي ، وخاضوا الصراعات

الاقليمية بكل الحكمة والاقتدار فنالوا إحترام العالم ورضا شعوبهم .

ان التاريخ يعيد نفسه ، وستظل الصراعات الاقليمية مشتعلة ، بما في ذلك صراع الشرق الاوسط ، وعلى القادة ادراك حقائق التاريخ وقوانينه ، وفي مقدمة هذه القوانين اهمية التوازنات الاقليمية ، إذ يستطيع قادتنا ان يفرضوا وجودهم على السياسة العالمية ، إذا تحلوا بالحكمة والصبر والمهارة في ادارة هذه الصراعات .

الفصل الثامن
استنتاجات عامة عن توازن القوى والرؤية المستقبلية في ضوئها...

١٦٤ - إن هذا الفصل قد لايكون ضرورياً من الناحية الشكلية لاستكمال نظرية توازن القوى ، فقد غطت الفصول السابقة معظم موضوعات التوازن ، وتضمن كل فصل من الفصول جملة من الاستنتاجات و القواعد المستخرجة من التجربة التاريخية ، وهي قواعد نظنها صالحة للتطبيق على اوضاع عالم اليوم كما انها صالحة لالقاء الضوء على المستقبل .

غير ان وجود هذه الاستنتاجات في ثنايا بحث واسع قد يصعب العثور عليها ، ولذلك فقد رأينا ان نثبت الاستنتاجات الرئيسية في خاتمة هذا الكتاب بشكل بارز لإستخدامها مقاييس لمعرفة الواقع . . . وليتمكن القارئ من التمعن في كل قاعدة منها ، ويعرضها بنفسه على وقائع التاريخ ليحكم على مدى الصحة والخطأ فيها . . . .

اننا بالطبع لن ندلل على صحة كل استنتاج باستخدام المنطق والتحليل أو بضرب الامثلة التاريخية ، فذلك قد فعلناه في ثنايا هذا الكتاب ، وللقارئ وحده ان يخضع هذه القواعد لمنطقه وتحليله واستعانته بالتاريخ كما يفهمه . . . ومتى كان الامر كذلك فإننا سنعرض القاعدة أو الاستنتاج بشكل مختصر يجعلها صالحة للاستخدام .

ولاتمام الفائدة فقد رأينا ان نسهم برؤيتنا الشخصية إلى المستقبل ، وهي وان كانت اجتهاد شخصي محض ، ومحاولة للاستطلاع في ضوء الضباب الكثيف ، لكنها ليست ثمرة تأمل ، بل هي اجتهاد في ضوء هذه

الاستنتاجات والقواعد ، فهي اشبه بعملية حسابية ، لادخل للعقل البشري في نتائجها الحتمية ، فيقتصر الدور على اجراء الحساب بطريقة صحيحة ، فإذا جاءت النتائج صحيحة ، فإن الامر يرجع إلى سلامة استخدام القواعد وليس إلى نباهة من قام بالحساب .

ومن البديهي ان نشير إلى ان العلم الانساني مهما دققت قواعده ، فإنه يظل علماً نسبياً ومرهوناً بتغير الظروف والمعطيات ، ولذلك فإن مايقدمه لايخرج عن دائرة الاحتمالات التي قد تقترب من الحقيقة لكنها لن تصلها ، فما يبدو لنا حقيقة في كثير من الاحيان ، هو ليس أكثر من احتمال رجحناه في ظرف من الظروف ووفق المعطيات الموجودة بين ايدينا ، فإذا تبدل الظرف أو برزت لنا معطيات جديدة فإن احتمالات أخرى ستفرض نفسها من جديد ونحن نحكم على المستقبل من واقع ظروفنا ووفق المعطيات التي بين ايدينَا أو تلك التي نتوقع انها ستحدث ، لكننا على وجه اليقين لايمكن ان نتوقع الا ما هو ممكن في حدود ادراكنا العقلي الراهن ، فقد يحدث ما هو ابعد من هذا الادراك أو حتى ما هو ابعد من الخيال .

فلو قال احدهم لاجدادنا منذ قرن اننا سنطير في الهواء وسنعبر البحار والمحيطات وسنتحادث عبر الاسلاك وسنقف على سطح القمر ، لو قال ذلك لأتهموه بالمروق والجنون وربما عالجوه بالشعوذة والكي . . . . لكن ما هو خيالي بالأمس قد أصبح حقيقة اليوم وماهو خيالي اليوم قد يصبح أمراً واقعاً في وقت قريب .

ومع كل ذلك فإن للحياة الانسانية ثوابتها وللتاريخ قوانينه ، وسنظل نظن بان توازن القوى وقواعده هي من ثوابت التاريخ وقوانينه ، التي ستتحكم في مجرى التاريخ في الماضي وفي المستقبل . . . . . فما هذه القواعد ؟

أولاً ـ إن توزان القوى ليس هدفاً في حد ذاته.....

١٦٥ – فتوازن القوى ليس من أهداف الدول ولاهو من سياستها ، فالدول تسعى إلى التفوق لا إلى التوازن ، لأن التفوق هو الذي يحقق أمانيها ومصالحها ، اما التوازن فإنه لايحقق لها سوى بعض هذه الأماني والمصالح ، ومن طبيعة الدولة ، كما من طبيعة الفرد ، السعي للتفوق وفرض الرأي والنفوذ ، ولاينشأ التوازن الا كثمرة للصراع سواء بين الافراد أم الجماعات أم الدول ، ولذلك فإن وصف التوازن بانه سياسة هو وصف في غير محله .

ومن غير المعقول ان يكون هدف الدولة هو الوصول إلى حالة التوازن مع دولة أخرى ، فإذا وصلت إلى هذه الحالة اوقفت جهودها بحجة ان التوازن يحقق لها الاستقرار ، فالدولة إذا وصلت إلى مرحلة التوازن بدأت في السعي إلى التفوق ، ولاتسعي للتوازن الا دولة ضعيفة خاضعة للهيمنة والطغيان .

ان التوازن يتحقق على أية حال كنتيجة حتمية لصراع الدول على القوة والسلطان ، لكن قلة قليلة من الدول تصل إلى مرحلة متفوقة فتصبح هي الأطراف الاساسية في العلاقات الدولية .

ثانياً ـ إن توازن القوى يتصف بالحركية والتبدل....

١٦٦ – وحركية توازن القوى ناجمة عن القاعدة السابقة ، فلكون توازن القوى ليس سياسة تسعى الدولة للحفاظ عليها فإن الدول المتوازنة نفسها تسعى إلى الاخلال بتوازن القوى لمصلحتها ، وذلك بزيادة رصيدها من القوة سواء بجهودها الفردية أم بالتحالف مع غيرها ، فالتوازن لايوقف الصراع بين الدول ولكنه يقنن هذا الصراع ويجعله صراعاً منظماً ضمن قواعد وقوانين تفرضها قوة الأطراف الأخرى .

لكن الصراع يأخذ اشكالاً مختلفة تدور بين التنافس السلمي والحرب ، ففي مرحلة التوازن فإن الشكل الغالب للصراع هو التنافس ، وإذا بدأ هذا التوازن في الاختلال فإن الصراع يأخذ الطابع الأكثر توتراً الذي قد يصل إلى مرحلة الحرب .

والواقع ان أطراف التوازن ينقسمون دائماً إلى فئتين ، واحدة راغبة في الحفاظ على الوضع الدولي وأخرى راغبة في تغييره ، والقاعدة ان الراغب في الحفاظ على الوضع ، هو أكثر المستفيدين منه لانه يحقق له مزايا نسبية لايستطيع الحصول عليها في ظل اي وضع آخر ، اما الطرف الراغب في تغييره فإنه يعاني من التوازن القائم وهو لايحقق له سوى القليل من المزايا ، التي لاتتناسب مع وضعه كما يراه ، وهكذا فإنه يعمل على تغييره بزيادة رصيده وبالتحالف مع الأطراف الأخرى ، مما يضفي على التوازن الحركية الدائمة ، وهو وان كان يقود إلى بعض الاستقرار ، فإن هذا الاستقرار ذو طابع مؤقت ، فالتصادم حتمي في نهاية المطاف .

ثالثاً ـ إن كل توازن هو مؤقت بطبيعته....

١٦٧ - وذلك ناجم أيضاً عن الخصائص السابقة (الصراع والحركية) فما من توازن امكنه ان يدوم إلى الابد ، واقصى مايمكن الوصول إليه هو استقرار التوازن لاطول فترة ممكنة ، والواقع ان التاريخ لم يقدم لنا أية امثلة لتوازن يزيد امده عن مئة عام ، فمن خلال الصراع والحركة يسقط كل توازن ليحل محله توازن آخر ، وبما ان النتيجة الحتمية هي الصدام ، فإن هذا الصدام يؤدي إلى سقوط قوى وصعود أخرى ، فتختفي امبراطوريات وتظهر غيرها ويرتسم توازن جديد وبأطراف جديدة .

(إن التاريخ هو تدمير متتابع للدول والحضارات) وبما ان كل توازن مؤقت فإن السياسة الحكيمة هي عدم السقوط النهائي اثناء الصراع وتنمية القدرة إلى اقصى مدى للحفاظ على وضع الدولة في التوازن الجديد . ويضع (مورتون كابلان) واحدة من اهم القواعد لتحقيق هذه السياسة (ان على كل طرف التصرف بطريقة تنمي قوته ، لكن عليه القيام بذلك بطريقة حذرة (سلبية) ولكن ليس باسلوب المعركة)[١٦٤]، والامثلة التاريخية عديدة على تلك الدول التي انتهجت الحذر وبقيت مشاركة في توازنات عديدة ، وتلك التي اتبعت اسلوب المعركة والتحدي السافر لقواعد التوازن ففقدت موقعها في التوازن القائم ولم تستطع العثور على دور في التوازن الجديد .

رابعاً ـ إن توازن القوى متغير الأشكال.....

١٦٨ - فتوازن القوى ليس من نمط واحد ولايؤدي إلى نتائج متشابهة الا إذا تشابهت اشكاله ، فالتوازن بحكم طبيعته الحركية يتبدل من نوع إلى نوع ويؤدي إلى النتائج المرتبطة بنوعه ، وذلك هو سبب الحيرة في فهم التوازن من حيث هو اداة للاستقرار أو هو مقدمة للحرب ، ففهم التوازن على انه ظاهرة من نوع واحد احدث الحيرة والارتباك ، فهناك بالفعل توازنات صنعت عقوداً من الاستقرار ، لكن غيرها ادى إلى نتائج معاكسة ، مما ادى ببعض الباحثين والكتاب إلى الاعتقاد في ان التوازن ليس قانوناً علمياً بحكم تناقض نتائجه من عصر إلى عصر . لكن تحليل كل نوع ودراسة تطوراته ونتائجه ومقارنته باشباهه في التاريخ ، يثبت ان الانواع المتشابهة قادت لنتائج متشابهة ، فهو نظرية علمية كغيره من النظريات .

---

١٦٤) دانيال كولار - العلاقات الدولية - سبقت الاشارة إليه ص ٧٥ .

خامساً - إن توازن القوى المركب أكثر ميلاً للاستقرار...

١٦٩ - فمن خلال كل مادرسناه من نماذج التوازن وما عرضناه من امثلة تاريخية نكتشف ان توازن القوى المركب يؤدي إلى الاستقرار والسلام ، فليس ثمة حرب واسعة نشأت في ظل توازن القوى المتعدد الأقطاب ، فهذا النوع من التوازن يجعل قواعد الشرعية اوضح ويعطي الفرص للعمل السياسي والدبلوماسي وتخف فيه العداءات ويكون أكثر حركية لما يجري بين اقطابه من تحالفات .

ان هذا لايعني ان التوازن المتعدد الأقطاب يمنع الحروب منعاً باتاً ، فقد تجري بين بعض أطرافه الصراعات والتوتر وقد يندفعان إلى الحرب نتيجة لتناقص مصالحهم أو لمحاولة احدهم الاخلال بالتوازن بشكل سافر ، غير ان الحروب الكبرى الواسعة التي تشمل جميع الأطراف هي امر تستبعده التجربة التاريخية ، فقد نشأ سلام المائة عام ١٩١٤ - ١٩١٥م في ظل توازن قوى الأقطاب المتعددة ، كما ان فترة السلام القصيرة بين الحربين العالميتين نشأت في ظل هذا النظام وكذلك فترة استقرار ما بعد الحرب العالمية الثانية .

أما الحروب المحدودة فإنها يمكن ان تتم في ظل اي توازن ، فقد جرت حرب عام ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا وتوازن القوى المركب مازال قائماً ، وغزت اليابان منشورياً في ظروف مشابهة واتسعت حركة الاستعمار والحروب الاقليمية بعد الحرب العالمية الاولى مع ان التوازن كان متعدداً .

ومع كل ذلك فإن هذا النوع من التوازن يصنع استقراراً نسبياً ويكون العمل السياسي فيه أكثر طغياناً وتخف التوترات بين اقطابه ، وإذا حدث التوتر بين طرفين فإن الأطراف الأخرى تسعى لنزع فتيل الحرب بقصد الحفاظ على الوضع القائم وخشية انهيار توازن القوى .

ولهذا السبب فإن عدداً من المفكرين يدعو إلى صنع هذا التوازن والعمل على ايجاده ان لم يحدث بصورة تلقائية ، وفي دراسته للقرن الدبلوماسي استنتج كيسنجر ان هذا التوازن يؤدي بالفعل إلى الاستقرار ، فأصبح يدعو في دراساته اللاحقة إلى الاهتمام بمسألة التوازن ، ففي مقالة نشرها بعد حرب الخليج الثانية تحت عنوان (جدول اعمال مابعد الحرب) نراه يدعو إلى الاعتماد على التوازن بالقول (والحق ان النظام العالمي الجديد سيشهد مراكز قوة عديدة ، سواء بين المناطق أو ضمنها . مراكز القوة تلك تعكس تواريخ وتصورات متباينة . وفي عالم كهذا ، لايمكن اقامة السلام إلاً بواحدة من طريقتين : بالاخضاع أو بالتوازن . والولايات المتحدة غير راغبة في الاخضاع ولاهي قادرة عليه الآن لابد لنا بالتالي من الاعتماد على التوازن)[١٦٥] .

وفي آخر اصداراته الكبرى (الدبلوماسية) يعود كيسنجر ويذكر بضرورة الاعتماد على التوازن طريق للاستقرار ، وذلك على الرغم من هيمنة بلاده المطلقة ، وظهور نغمة امريكية طاغية عند رجال السياسة والفكر والصحافة تطالب بتكريس الهيمنة وتعزيز دور أمريكيا القيادي ودون مشاركة أية قوة أخرى .

لكن كيسنجر وهو الأكثر فهماً لقوانيين التاريخ ، وعلى الرغم من إنتماءه الميكافيللي المشين ، فإنه يذهب مذهباً عكسياً ويدعو مجدداً إلى الاهتمام باعادة بناء التوازن على اسس تخدم المصالح الامريكية بصورة اكبر من تلك التي تتيحها الهيمنة المتعبة . ويحمل كيسنجر بصورة مباشرة على اولئك الذين يشمئزون من صعود قوى أخرى (أوربا واليابان والصين) والذين يعتبرون

---

١٦٥) منشور في صبحي حديدي – حرب العالمين الاولى – شركة الارض ودار قرطبة – قبرص – ط١ – ١٩٩١م – ص ١٨٠ .

هذا الصعود حظاً من قدر أمريكيا ، فصعود هذه الدول لايجب ان يدق ناقوس الخطر امام الامريكان(١٦٦) .

ويذهب كيسنجر إلى ان أمريكيا على الرغم من تفوقها الحاضر وصيرورتها قوة عظمى وحيدة *الا انها على الصعيد الواقعي ليست بحال يؤهلها لاملاء (جدول الاعمال الكوني) فالقوة العسكرية اقل فاعلية في عالم اليوم وهي لن تكون قادرة على قولبة العالم .*

ان النظرة الواقعية للعلاقات الدولية ، ومهما كانت قوة أمريكيا ، تحتم صياغة هذه العلاقات على أسس المشاركة ، فمصلحة أمريكيا هي ان تكون قوة ضمن القوى ، وامة لها نظراؤها ، فهي الأولى لكنها أمة كسائر الآخريات(١٦٧) . وهو انسجاماً مع فكرته التاريخية عن توازن القوى ، وتأثره بدرس القرن الدبلوماسي وتأكيده على ان أفضل نظام دولي هو الذي اعقب مؤتمر فينا عام ١٨١٥م فإنه من الحكمة (الاعتراف بوجوب استتباب التوازن . فمهما تعاظمت قوة أمريكيا ، ليس ثمة بلد قادر على فرض ارادته على سائر الشعوب) .

وليس كيسنجر وحده هو من يدعو إلى الاعتماد على التوازن ، فقد ذهب قبله ، العالم السياسي (مورتون كابلان) وبصورة أكثر وضوحاً إلى الدعوة للنظام المتعدد الأقطاب ، وكابلان هو أفضل من درس نظرية توازن القوى واعاد صياغتها ، ومن اجل الاستقرار فإنه يقترح وجود خمس قوى على الاقل في العالم ، لأن هذه هي الطريقة المثالية لجعل التوازن مرناً ، فوجود قوى اقل لن يتيح الفرص للتحالف الذي يصنع مرونة التوازن .

---

١٦٦) هنر كسينجر – الدبلوماسية – ج٢ – ص ٥٣٤ .

١٦٧) هنري كسينجر – المرجع السابق – ص ٥٣٣

بل ان كابلان يذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ يدعو ، عند وضعه لقواعد التوازن ، إلى الحفاظ على موقع للطرف المهزوم لضمان تعددية توازن القوى ، فأهم القواعد التي وضعها كابلان بالاضافة إلى قواعد آخرى ، هي :

١) من الأفضل ان تتوقف عن الحرب من ان تقضى على طرف اساسى .

٢) اسمح لأي ممثل اساسى منهزم ان يدخل كعضو جديد . أو ان يحل آخر محله برفع ممثل لم يكن اساسياً فيما سبق (اي قوة اصغر) . وعامل كل الممثلين الأساسيين كحلفاء اقوياء مقبولين[١٦٨] .

ان هذه النظرة لأهمية توازن القوى المتعدد الأقطاب في الحفاظ على السلام والإستقرار ، ربما لم تكن بعيدة عن ذهن اولئك الذين صاغوا ميثاق الأمم المتحدة ، حين جعلوا هرم السلطة (مجلس الأمن) بيد خمس قوى كبرى مشاركة على التساوي في تسيير دفة السياسة الدولية ، وهي قوى لم تكن في الحقيقة متوازنة في القوة ، فكأن الذين صاغوا الميثاق عملوا على صناعة توازن لم يجدوه بين ايديهم على امل ان يقود هذا التوازن الاصطناعي إلى الاستقرار والسلام .

إننا على أية حال نظن ان توازن القوى المتعدد هو الذي يقود إلى الاستقرار ولو بشكل نسبي وذلك ما تؤكده التجربة التاريخية وهو ما يدعمه أيضاً المنطق ، فكثرة التناقض بين الأقطاب هو أفضل بالتأكيد من تناقض بين قطبين يتربصان ببعضهما على الدوام ، فمن دون وجود قوى أخرى تعمل على التهدئة والانفراج سيقود التناقض إلى الصدام الحتمي ، وإذا اردنا ان نستشهد

---

١٦٨) يراجع -كارل دوتيش - تحليل العلاقات الدولية - مرجع سبقت الاشار إليه - ص ١٩٢ .

بآخر تجربة تاريخية ، وهي تجربة الحرب الباردة ، فإن صحة هذه النظرة ستتأكد بصورة واضحة ، فالصدام بين الشرق والغرب كان يمكن ان يقود لصدامات أكثر عنفاً ، لو لم يظهر الدور الاوربي ، كعنصر يمثل التعدد ويمارس التهدئة ويقود نحو الانفراج ، وذلك هو ما صنعه الجنرال ديغول .

سادساً ـ إن توازن القوى المتعدد يعقب الحروب

١٧٠ –ففي كل انواع التوازنات التي تابعناها بدءاً من عام ١٨١٥م وإلى اليوم فإن التوزازن المركب يعقب الحروب الكبرى مباشرة ، وهو يرمز إلى ظهور نظام دولي جديد ، وسواء برزت بعد الحرب قوى جديدة ، أم شاركت بعض القوى المهزومة في صنع التوازن الجديد ، فإن الحرب تنتج النظام المتعدد . .

ان هذا الاستنتاج مبني على الوقائع التاريخية اولاً ، وعلى التحليل المنطقي ثانياً .

فمن حيث الوقائع التاريخية فإن هزيمة نابليون قد اعقبها التوازن الأوربي ذو الأقطاب المتعددة ، وبعد الحرب العالمية الاولى برز مجدداً هذا النوع ، كما شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية نظام توازن القوى ذو الأقطاب المتعددة .

ومن الناحية التحليلية ، فإن الحروب الكبرى تنشب منطقياً بين طرفين يمثلان كتلتين متناقضتين ، إذ ليس من المنطق ان تتعدد الحرب بتعدد الدول ، ومهما كانت تناقضات ماقبل الحرب ، فإن هذه تقود الدول إلى التكتل في مواجهة بعضها ببعض للانصهار في كتلتين رئيسيتين ، لتغدو الحرب هي المصلحة المشتركة بين أطراف كل تكتل ، فقد تكتلت أوربا ضد نابليون ، بغض النظر عن التناقصات الاوربية ، وتجمع الحلفاء ضد المحور في الحرب العالمية الاولى ، وتحالف الغرب مع الاتحاد السوفيتي ضد النازية في الحرب

العالمية الثانية وذلك دون اعتبار للتناقص الأيديولوجي ، غير انه ما ان تضع الحرب اوزارها حتى يواصل كل طرف وطني سعيه من جديد لتحقيق اهدافه الخاصة وفق سياسة أكثر استقلالية ، فاختفاء القاسم المشترك يفضي ضرورة إلى الاستقلالية والتباعد ، فيظهر توازن القوى المتعدد ، كما ان هزيمة قطب ما واختفاءه من ساحة الصراع ، يساعد على بروز قوى جديدة لتصبح جزءاً من توازن القوى المتعدد .

سابعاً ـ إن توازن القوى الثنائي يؤدي إلى الحرب...

١٧١ - فالتوازن الثنائي هو علامة الحرب وهو الذي يسبقها ، فهو الصورة المعاكسة تماماً لتوازن القوى المتعدد ونتائجه ، فالتوازن البسيط ، بهذا المعنى هو جرثومة الحرب الحقيقية .

ان هذا الاستنتاج تؤكده السوابق التاريخية كما يدعمه التحليل المنطقي أيضاً .

فقد اندلعت الحروب تاريخياً عقب تشكل كل توازن ثنائي ، وإذا كان توازن القوى المتعدد يتيح الفرص للعمل السياسي ونسج التحالفات ، فإن ذلك ينعدم في ظل التوازن الثنائي ، فليس ثمة قوة أخرى يمكنها ممارسة التهدئة أو ان تصبح مطمحاً للقوى المتصادمة ، فعند ظهور هذا النوع من التوازن فإن التصادم يصير حتمياً والحرب وشيكة . ومهما كان شكل الأنظمة السياسية المشاركة في هذا التوازن فإنها متصادمة لامحالة ، اما إذا اضيف إلى هذاالنوع المزيد من التناقضات الايديولوجية أو الحضارية أو الثقافية فإن هذه العوامل ستعجل بالحرب وتجعلها أكثر عنفاً .

ان التوازن الثنائي الذي نشأ بعد الثورة الفرنسية ، بين فرنسا من جهة

وممالك أوربا من جهة أخرى ، هو الذي أدى إلى حروب نابليون وهزيمته ، اما التوازن الثنائي الذي نشأ في اوائل القرن العشرين فقاد إلى الحرب العالمية الاولى ، وعندما تشكل التوازن الثنائي في الثلاثينيات من القرن نفسه إندلعت الحرب العالمية الثانية ، اما الحرب الباردة فقد أشعلها التوازن الثنائي بين حلفي الناتو ووارسو ، وإذا قلبنا صفحات التاريخ البعيد ، فإننا سنحصل على امثلة مطابقة ، فحروب الحضارة اليونانية كانت ثمرة لتوازن (اثينا واسبرطه) والحروب الرومانية كانت نتائج لتوازن روما وقرطاجنة . فالقاعدة العامة اذن هي ان الحرب تندلع بسبب التوازن البسيط كما ان الاستقرار هو ثمرة للتوازن المتعدد .

ثامناً ـ صيرورة الحروب...

١٧٢ – أعتماداً على الاستنتاجات الثلاثة السابقة ، فإنه يمكن تخيل حركة التاريخ وفق منطق ثابت وصيرورة صادقة تمثلها المعادلة الآتية : –

توازن قوى مركب = مرحلة الاستقرار = توازن قوى بسيط = اضطراب = حرب = توازن قوى متعدد الأقطاب مرة أخرى .

فالواقع ان حركة التاريخ ثابتة وفق هذه الصيرورة ، ومن أية نقطة بدأت لأي حقبة تاريخية فإن السير وفق هذه المعادلة هو مسألة حتمية . فالتاريخ عبارة عن مراحل تتشكل من حلقات يسيطر عليها هذا المنطق المشار إليه .

فتوازن القوى المتعدد لايؤدي إلى الحرب مباشرة ، ولكنه يصنع حالة استقرار تتصف بالصراع والتنافس ويؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى اصطفاف الأقطاب في كتلتين رئيسيتن ليأخذ هذا التوازن شكله البسيط وتبدأ مرحلة الاضطراب والتوتر وهي مرحلة الاستعداد إلى الحرب والاعداد لها ، وتندلع

الحرب ضرورةً عندما يبلغ التحدي مداه وتتوفر الأسباب الظاهرية لاعلان الحرب ، وعند نهاية الحرب لابد من العودة إلى نقطة البداية ، وهي ظهور التوازن ذو الأقطاب المتعددة الذي قد تسبقه فترة من الهيمنة يقودها اكبر المنتصرين في الحرب .

وإذا اعدنا تقليب احداث القرنين الماضيين فإننا سنتلمس صدق هذه القاعدة ، فتمثل الفترة ما بين عامي ١٧٨٩ - ١٨١٥م مرحلة التوازن الثنائي والحرب ، وقد اعقبتها مرحلة التوازن المتعدد ١٨١٥ - ١٩٠٤م وهي فترة الاستقرار ، ثم ما بين عامي ١٩٠٤ - ١٩١٤ فترة التوازن الثنائي وهي مرحلة الاضطراب التي قادت إلى الحرب ، اما الفترة ما بين ١٩١٩ - ١٩٣٣ فهي مرحلة التوازن المتعدد والاستقرار لتعقبها الفترة المحصورة ما بين عام ١٩٣٣ - ١٩٣٩ وهي مرحلة الثنائية والاضطراب التي قادت إلى الحرب ، وتمثل المرحلة ما بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٥٥ مرحلة التوازن ذو الأقطاب المتعددة وهي مرحلة الاستقرار النسبي اما بعد هذا التاريخ فقد اندلعت الحرب الباردة بعد تشكل حلفي الناتو ووارسو .

١٧٣ - وتأسيساً على ذلك فان الاستنتاج الرئيسي من اجل السلام يكمن في العمل على اطالة أمد توازن القوى ذو الأقطاب المتعددة ، فإذا كنا لانستطيع تغيير منطق التاريخ وصيروته ، فإننا نستطيع التأثير في حجم مراحله ، وليس امام الباحثين عن السلام سوى البحث عن جرثومة الحرب ومحاولة تجميد نشاطها ، وبما ان توازن القوى المركب هو المعادل للاستقرار فإن على رجال الدولة محاولة الحفاظ عليه بالكف عن التحالفات الجامدة التي تقود نحو التكتل والاستقطاب ، وتلك هي السياسة التي اتبعها قادة أوربا بعد حروب نابليون ، فقد قادتهم الحكمة إلى الحفاظ على توازن القوى في شكله

المتعدد نحو قرن من الزمان ، فنعمت أوربا بسلام المائة عام ، لكن قانون التاريخ لابد ان يفعل فعله في نهاية المطاف ، فمع اختفاء رواد التوازن ومع ظهور جيل جديد لايعير إهتمامه للحتمية التاريخية فإن التاريخ يعود نحو مجراه الطبيعي .

تاسعاً ـ الهيمنة ظاهرة مؤقتة...

١٧٤ - تؤدي الحرب في الغالب إلى ظهور توازن قوى الأقطاب المتعددة مباشرة ، وهو التوازن الذي يتكون من الدول المنتصرة وقد تشارك فيه قوى جديدة بفعل تدمير طرف مهزوم ، لكن هذه الأطراف المكونة للتوازن قد لا تكون على الدرجة نفسها من القوة والتكافؤ ، فيظهر من بينها قطب مميز ومتفوق بصورة واضحة ، سيبدو هو الطرف المهيمن على العلاقات الدولية ، وذلك نتيجة لأوضاع عسكرية أو جغرافية أو اقتصادية .

إن فترة الهيمنة المطلقة ، عبارة عن مرحلة انتقال بين نمطين من التوازن ولابد أن تقود هي نفسها إلى التوازن ذو الأقطاب المتعددة .

وقد حدث مراراً في التاريخ ، فقد شهدت نهاية الحرب العالمية الاولى بروز الولايات المتحدة قوة اعظم ، لكنها بحكم انتصار نزعة العزلة ، لم تستطع ممارسة دور القوة المهيمنة وقد تكرر الأمر نفسه بعد الحرب العالمية الثانية ، فهي بحكم اوضاعها الجغرافية التي جنبتها الاضرار المباشرة وبحكم قوتها العسكرية واحتكارها للسلاح النووي أصبحت من جديد القوة المهيمنة ، غير ان هذا الوضع لم يستمر سوى وقت قصير ، إذ سرعان ما عملت القوى الأخرى ، على اعادة التوازن إلى وضعه الاصلي ، سواء بكسر الاحتكار النووي أم بإعادة التحالف فيما بينها لتشكل توازن قوى جديد يعارض وضع الهيمنة والتفوق .

ولا يشك علماء السياسة مطلقاً في الطبيعة المؤقتة لظاهرة الهيمنة ، بل ان بعضهم ينصرف إلى ان التوازن هو ثمرة لهذه الظاهرة ، فهو ينشأ للمحافظة على استقلال الدول في مواجهة الدول المهيمنة ، فالتوازن يترتب كما يقولون - عندما يمكن لدولة واحدة ان تحصل على تفوق ضخم وساحق في قواها ، ان هذا الوضع سيدفع بها إلى تهديد حرية الدول واستقلالها . وهذا التحدي هو الذي يدفع الدول المحدودة القوى إلى مواجهة القوة بالقوة من خلال تجمعها في ائتلاف قوى أو في محور قوى مضاد قادر على مجابهة التحدي الذي تواجهه الدول الداخلة فيه[١٦٩] .

إن تحالف القوى الأضعف لمواجهة القوة الطاغية مسألة حتمية ، بغض النظر عن نظمها السياسية أو توجهاتها الايديولوجية والفكرية أو مصالحها الظرفية ، فيظل القاسم المشترك بينها جميعاً هو حرمان الاقوى من تفوقه المطلق ، وتلك مسألة كما يقول تشرشل لاشأن لها بالحكام أو الامم : فتهتم الدول بمن كان الاقوى أو من يكون الطاغية المسيطر .

عاشراً - افتقار توازن القوى للعدالة ...

١٧٥ - ان نقطة الضعف الاساسية في نظام توازن القوى هي افتقاره للعدالة ، فتوازن القوى كما يقول (مورجنتاو) يعيبه دائماً اللاواقع وعدم الكفاية واليقين .

وتنشأ حالة عدم عدالة التوازن من اسباب عديدة اهمها ، انه ينبثق من الحروب التي تؤدي في الغالب إلى اوضاع ظالمة وتكرس هذه الاوضاع عن طريق التوزيع الجديد للقوة المتناسب مع هذه الاوضاع هذا اولاً .

اما ثانياً فإنه ينبثق من الخوف الدائم من خطأ الحساب ، يقول مورجنتاو ،

١٦٩) د . اسماعيل صبري مقلد - الاستراتيجية والسياسة الدولية - ١٢٦ .

فـإذا كـانت العـلاقـات الدوليـة هي صـراع على السلطان والقـوة ، فـإن الدول المشتركة في الصراع لاتتطلع إلى مجرد التوازن أو التكافؤ في القوى ، بل وإلى التـفـوق أيضـاً من جانبـهـا . ولما كـانت أية دولة لاتستطيع التكهن بضخامة اخطائها الحسابية ، فإن عليها جميعاً ان تنشد الحصول على الحد الاقصى من السلطان والقوة ، الذي يمكنها ان تحصل عليه في ظل الاوضاع التي تحيط بها . ولعل هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكنها من الحصول على الحد الأقصى من الطمأنينة والسلامة ، بحيث يتفق مع الحد الاقصى من الاخطاء التي قد تقع فيها)[١٧٠] .

ان توازن القوى كـان يمكن ان يقود للاسـتـقرار والسـلام لو اتصف بالعدالة والواقعية ، فهو نظام يضمن لأطرافه الطمأنينة والسلامة ، لكن عدم عدالته تقود إلى محاولة تغييره ليصبح عادلاً ، لكن محاولة التغيير تجعله غير عادل من وجـهـة نظر الطرف الآخر المستـفـيد من الوضع الراهن ، وهكذا فـإن توازن القوى بقدر ماحقق من الاستقرار والسلام فإنه انتج الكثير من الحروب .

١٧٦ - إن الحروب كما يقول (مورجنتاو) لاتخرج عن ثلاثة أنواع ، هي الحروب الوقائية ، والحروب الامبريالية ، والحروب المناهضة للامبريالية ، وهي حروب تهدف في مجملها إلى الحفاظ على توازن القوى أو تعديله ، وهي لاتقع الا بسبب عدم واقعية توازن القوى وعدم عدالته .

حادي عشر ـ حافظ الميزان هو لاعب اساس...

١٧٧ - لاشك ان (حافظ الميزان) هو اللاعب الأساسي الذي يستطيع ان يتحكم في معظم خيوط توازن القوى ، فهو بحكم (عزلته الرائعة والمختاره)

---

١٧٠) هانز - جي - مورجنتاو - السياسة بين الأمم - ص ٢٨٦ .

يحصل على اغلى الأثمان عند كل ثقل يرميه في هذه الكفة أو تلك ، وهو في زمن الاستقرار والسلم يجعل من نفسه محور الغزل في اللعبة الدولية فتخطب وده جميع الأطراف وتعمل على إرضاءه مما يجعله يحقق النمو والازدهار ويتحكم بمهارته في اختيار الاتجاه الذي تسير إليه علاقات الدول ، وإذا اندلعت الحرب فإنه يلقي بثقله في الكفة المناسبة فيتحول إلى بطل الحرب لانه هو من يمتلك ادوات الحسم ، وإذا وضعت الحرب اوزارها تحول إلى بطل السلم وأصبح اساسياً في التوازن المقبل .

على ان دور حافظ الميزان ليس سهلاً ، لانه يتطلب المهارة والحذر والقدرة على استشراف المستقبل ، وذلك دور لم تمارسه سوى دول قليلة ، قادتها عبقريات نادرة الشيوع .

ثاني عشر - ان التوازنات الاقليمية هي عنصر حاسم في الحفاظ على توازن القوى...

١٧٨ - إن السياسة الدولية ليست حكراً بشكل دائم على أطراف توازن القوى الرئيسية فعلى الرغم من أن هذه الأطراف تبدو في الظاهر هي المتحكم الرئيسي في لعبة السياسة والعلاقات الدولية ، الا ان الواقع والتاريخ يكشفان ، ان القوى الاصغر تستطيع ان تلعب اخطر الادوار إذا اتصفت بالحكمة والمهارة من خلال الأوضاع الاقليمية والتوازنات الفرعية ، فميزان القوى الرئيسي يتأثر دون شك بالأثقال الفرعية ، فهذه مهما خف وزنها فإنها قادرة على التأثير في كفتي الميزان وترجيح احداها على الأخرى ، فالتوازنات الإقليمية تلعب دوراً مشابهاً لما يقوم به حافظ الميزان ، لأنها تستطيع ترجيح كفة الميزان لصالح هذا الطرف أو ذاك من الأطراف الرئيسية المتصارعة .

وعلى الدول التي لاتمكنها قدراتها واقدارها من التأثير المباشر في ميزان

القوى الرئيسي ان تسعى للتأثير بصورة ليست مباشرة من خلال قدرتها الاقليمية ، فهي تستطيع ان تمسك بالميزان إذا لم تستطيع ان تكون احدى كفتيه ، لكن هذه أيضاً لعبة خطرة تتطلب المهارة والحكمة وبعد النظر .

١٧٩ - تلك هي على الاجمال الاستنتاجات الرئيسية والقواعد الثابتة في نظرية توازن القوي ، وهي استنتاجات وقواعد يمكن تجزأتها وتفريعها إلى عدد من الاستنتاجات والقواعد الأخرى ، لكنها استنتاجات كافية لتفسير الكثير من احداث التاريخ في الماضي ، كما أنها تصلح للاستخدام لمحاولة قراءة المستقبل والقاء الضوء عليه .

وهي على أية حال ليست استنتاجات ناجمة عن الاجتهاد والتأمل ، ولكنها منبثقة من التاريخ نفسه ، الذي لم نفلح في قراءته دائماً على وجهه الصحيح ، ولو قرأنا التاريخ بامعان لامكننا تفادى الكثير من احزانه .

يقول ميكافيللي (إذا كان من المقرر ان نقارن بين الحاضر والماضي البعيد ، فإن بوسعنا ان نرى بسهولة ، ان ثمة رغبات متشابهة ، وعواطف واحدة ، تكون موجودة دائماً وفي جميع الاوقات ، في كافة المدن وعند مختلف الشعوب . وعلى هذا إذا درس المرء بشيء من المثابرة شؤون الماضي ، كان من السهل عليه ان يتكهن بمستقبل أية دولة من الدول ، وان يطبق العلاجات نفسها ، التي استخدمت في الماضي ، فإذا لم يجد ثمة علاجات قد استعملت أمكنه ان يبتكر علاجات جديدة ، وذلك بفضل ما للاحداث من تشابه ومماثلة . ولكن لما كانت هذه الدراسات تهمل ، وكان من يقرأ تاريخ الماضي لايفهم ، وحتى لو فهم لم يطبق عملياً على ايدي اولئك الذين يحكمون ، فإن النتجية ، وقوع فضائح مماثلة في جميع الاحايين)[١٧١] .

١٧١) نيقولا ميكا فيللي - مطارحات ميكافيللي - ترجمة خيري حماد - منشورات دار الافاق الجديدة - بيروت - ط٣ - ١٩٨٢م - ص٣٥٠ .

ومتى كان الامر كذلك ، وبما ان احداث التاريخ متشابهة ، فما هو صورة المستقبل في ضوء هذه الاستنتاجات والقواعد ؟

رؤيــة مستقبلية

١٨٠ - لقد انتهت الحرب الباردة في العقد الأخير من القرن العشرين ، بعد صراع مرير استغرق نصف القرن كله ، ومهما كانت الحرب الباردة ، فهي في اعتقادنا كغيرها من الحروب الكبيرة ، ادت إلى انهيار امبراطورية عظمى هي الاتحاد السوفيتي ، وانهت بذلك توازن القوى الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية .

ان نهاية هذه الحرب ختمت مرحلة من التاريخ ، مرحلة اتسمت كغيرها من المراحل بالتقلبات المعهودة لتوازن القوى ، لتفتح الباب امام مرحلة جديدة من المراحل التاريخية التي ستتسم بمثل هذه التقلبات ، فالمرحلة الجديدة وفق الاستنتاجات والقواعد التي وضعناها ستأخذ نفس الصيرورة التاريخية ، فقد انهار توازن القوى القديم ، وسيحل محله توازن قوى جديد سيمر بالاطوار نفسها ، اي انه سيكون متعدداً في بدايته وسينقلب بعد وقت إلى توازن ثنائي وسيؤدي إلى الصراع والحرب . فتلك هي دورة التاريخ فنحن ، إذن في بداية مرحلة جديدة لن تختلف في ملامحها الاساسية عن غيرها مما درسناه من مراحل .

١٨١ - ان ما قد يبدو شاذاً ، هو ان الحرب الباردة لم تؤد مباشرة إلى ظهور توازن قوى الأقطاب المتعددة ، بل ادت إلى هيمنة قطب دولي واحد ، لكن ذلك في اعتقادنا حالة طبيعية لاتتعارض مع نظرية توازن القوى ، فإنهيار توازن وظهور آخر كثير ما يصاحبه وجود مرحلة انتقالية عابرة تتصف بهيمنة قطب دولي واحد ، وقد حدث ذلك نسبياً عقب الحرب العالمية الثانية ، فمع

ان هذه الحرب افضت إلى وجود قوى عظمى متعددة الا ان الولايات المتحدة برزت كقوة متميزة ومهيمنة نسبياً على العلاقات الدولية ، وذلك راجع إلى سببين اثنين هما الاقتدار وسلامة الاقتصاد الاميركي ، فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب قوة منتصرة مع شركائها لكنها تميزت عنهم بتفوقها العسكري الساحق في المجال النووي ، كما انها ظلت مزدهرة اقتصادياً بحكم انها لم تصب باضرار مدنية مباشرة ، فقد الحقت الحرب اضراراً بليغة بالمنتصرين والمهزومين جميعاً ، ولم تسلم من هذه الاضرار سوى الولايات المتحدة .

ان هذا الوضع قد جعلها متميزة نسبياً ومهيمنة على العلاقات الدولية ، لكن هذا الوضع لم يستغرق سوى سنوات قليلة ، إذ سرعان ما اخذت القوى الأخرى في التوازن معها ليتشكل توازن القوى في شكله الطبيعي .

ان الهيمنة على أية حال ليست ظاهرة شاذة ، فهي تقع ضمن السياق الطبيعي لتطورات توازن القوى ، لكنها ظاهرة عابرة ولا تمثل سوى مرحلة انتقالية بين توازنين .

وفي ضوء ذلك فإننا نستطيع ان نقول باطمئنان ان تاريخنا الحاضر ومستقبلنا القريب سيتشكل من مراحل اربع ، هي مرحلة العالم الاحادي القطب ، وستتبعها مرحلة توازن القوى المتعدد التي ستنتج مرحلة توازن القوى الثنائي ، وهذه الاخيرة ستقود نحو الصدام الذي قد يصل إلى حد الحرب .

وعلى الأرجح فإن هذه المرحلة التاريخية بمنعطفاتها المختلفة ستستغرق نحو نصف قرن من الزمان ، غير ان ذلك ليس مؤكداً ، إذ انها ستعتمد على نوعية القادة الذين سيقودون توجيه دفة الامور ومقدار ما يتحلون به من حكمة

وتبصر وعقلانية ، فهم سيستطيعون اطالة امد هذه المرحلة التي ستشهد بعض الاستقرار والسلام ولكنهم قد ينزلقون نحو الصراع والتحالف والتكتل ويعجلون بالحرب . . . .

وبما ان كل مرحلة من هذه المراحل ستتسم بسمات خاصة ، فإننا نقدم رؤيتنا الخاصة لها بصورة مختصرة تحاول الاجتهاد في تحديد ملامحها الاساسية .

أولاً .. مرحلة الهيمنة .. (مرحلة التفاعل والاضطراب)...

١٨٢ - وقد بدأت هذه المرحلة فور انهيار توازن قوى الحرب الباردة ، في العقد الأخير من القرن العشرين ، وهي مرحلة كان يمكن الا تحدث لولا الانهيار الفجائي للاتحاد السوفيتي ، ففي معظم الحروب الماضية اعقب توازن القوى المتعدد الحروب بشكل مباشر وذلك بسبب ظهور مؤشرات الإنهيار قبل حدوثه بوقت كاف ، بما يجعل القوى العظمى - تتحسب له وتعمل على استيعابه بجملة من الترتيبات لملء الفراغ الناجم عنه ، وقد حدث ذلك على سبيل المثال بعد حروب نابليون وعقب الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ففور ظهور مؤشرات النصر ، فإن القوى العظمى تبادر إلى وضع جملة من الترتيبات التي توزع الغنائم وتحدد مناطق النفوذ وتملأ الفراغ الناجم عن انهيار احدى قوى التوازن . فتجعل الانهيار منظماً ضمن اطار ونظام دولي معروف .

لكن انهيار الاتحاد السوفيتي بصورة مفاجئة لم يتم التحسب له ولم يوضع له مقدماً الاطار الملائم لتنظيمه .

ومهما كانت الجهود فإن انهيار الامبراطوريات يقود دائماً إلى فترة من التفاعلات الشديدة والاضطراب ، اما الانهيار الفجائي فإنه يقود إلى اشد

انواع الاضطرابات وذلك بحكم الصراع الذي يحل محل الترتيب الجماعي القائم على الرضا والقبول ، ولذلك فإن مرحلة الهيمنة في اعتقادا ستتسم بجملة من الملامح نلخصها فيما يأتي : -

أ - إن مرحلة الهيمنة ستكون مؤقتة...

١٨٣ - فاحد الاسئلة المطروحة ، يتعلق بالمدى الزمني الذي ستستغرقه فترة الهيمنة الاحادية ، وما زال الجدل السياسي قائما حول ذلك ، سواء في الولايات المتحدة الامريكية أو خارجها ، وقد ظهرت سلسلة من الكتابات الإمريكية الداعية إلى تكريس الوضع الراهن ، ومنع ظهور أية قوة جديدة تستطيع ان تنافس الدور الامريكي وتفرض نفسها شريكاً في توازن القوى القادم ، ففي نظر هؤلاء فإن التاريخ صنع لهذه البلاد فرصة يجب عدم التفريط فيها ، بل ان على الولايات المتحدة وقادتها فرض النظام العالمي الجديد القائم على الاحادية وفرض الإلتزام به بالقوة ودون خجل ، فالاحادية هي بديل الفوضى العالمية ، وهذه المهمة تدعو للفخار في نظر هؤلاء الكتاب(١٧٢) .

لكن الكتاب الأكثر واقعية يذهبون إلى ان الأحادية ظاهرة عابرة ولن تكون قادرة على الاستمرار ، فلم توجد قط قوة استطاعت السيطرة إلى أمد طويل على مقادير العالم .

ومع الاتفاق على ضرورة انحسار الهيمنة ، الا ان الخلافات ما زالت مشتعلة حول الفترة الزمنية التي ستستغرقها ، فهناك من ذهب إلى انها لن تستمر غير سنوات قليلة وهناك من ذهب إلى انها ستستغرق عدة عقود .

---

١٧٢) انظر على سبيل المثال - تشارلز كراوتهامر (برهة احادية القطب) مقال نشر في مجلة (السياسة الخارجية) عام ١٩٩١م - منشور في صبحي حديدي - حرب العالمين الاولى - مرجع سبقت الاشارة إليه - ص ٥٣ وما بعدها .

اننا نذهب إلى ان مرحلة الهيمنة هي في انحسار تدريجي ، لكنه محسوس ، وإذا كان من الصعب التنبؤ بتاريخ انحسارها النهائي ، الا ان ذلك في اعتقادنا لن يتجاوز العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، فمن الواضح ان قوى عديدة قد بدأت في الصعود ، كما ان الطرف المهيمن قد بدأ في التراجع .

ب ـ إن مرحلة الهيمنة ستتصف بالاضطراب ...

١٨٤ - وتلك في اعتقادنا نتيجة طبيعية للانهيار الفجائي لتوازن القوى ، فبما ان الانهيار لم يقابل بترتيبات جماعية ، فمن الطبيعي ان يندلع الصراع بين الأطراف الطامحة للمشاركة العالمية والقوة المهيمنة التي ستحاول ملء الفراغ لوحدها وكسب مناطق النفوذ الجديد .

والواقع فإن الصراع بين القوى البازغة والطرف المهيمن سيدور في ميدانين ، الميدان الأول هوبقايا الامبراطورية المنهارة ، اما الميدان الثاني فهو مناطق النفوذ التقليدية للقوى البازغة .

أما على صعيد الامبراطورية المنهارة ، فمن المعروف ان انهيار قوة ما يؤدي كما يقول هنري كيسنجر إلى توترين ، هما : محاولات الجيران استغلال ضعف المركز الامبراطوري ، وبذل الامبراطورية المنهارة جهوداً لاستعادة سلطتها على اطرافها ، وقد حصلت العمليتان في وقت واحد[١٧٣] .

فبعد وقت قصير من انهيار الاتحاد السوفيتي اندلع الصراع في جمهورياته السابقة ، وعلى الرغم من ان الصراع يبدو في ظاهره صراعاً داخلياً ينبعث عن عوامل تاريخية تتعلق بالحدود والقوميات ، الا انه في الواقع ذو بعد دولي ، بين

١٧٣) هنري كيسنجر - الدبلوماسية - ص ٥٤١ .

روسيا كمركز للامبراطورية المنهارة وغيرها من القوى الكبرى والمتوسطة ، وهو أيضاً صراع بين هذه القوى فيما بينها لمحاولة ملء الفراغ السوفيتي .

وهكذا فقد رأينا روسيا ، وهي الوريث الطبيعي للاتحاد السوفيتي تحاول استعادة سلطانها عن طريق تشكيل ما اطلق عليه (كومنولث الدول المستقلة) كصيغة جديدة لترتيب العلاقة بين اجزاء الامبراطورية المنهارة ، كما حاولت جاهدة الابقاء على بعض نفوذها في الدول المتشظية من دول المعسكر الشيوعي السابق .

لكن منطق التاريخ لايقبل السير بطريقة عكسية ، فاليقظة الروسية جاءت متأخرة ، كما ان الانقاض المتداعية بغير انتظام ، يستحيل اعادة استخدامها في اعادة البناء ، وتلك تجربة مرت بكل انهيار امبراطوري ، فلم تستطع امبراطورية النمسا والمجر لم شتاتها مجددا ، واكتفت النمسا ، وهي صانعة الامبراطورية ، بان تعود إلى وضعها الطبيعي ، دولة صغيرة من دول وسط أوربا كما ان انهيار الامبراطورية العثمانية لم يبق لتركيا سوى نفسها ، دولة من طراز عادي ليست واثقة حتى من هويتها .

إننا لن نتوقف عند ما آل إليه المصير السوفيتي فذلك حدث ماثل ومعروف ، غير أن ما يعنينا هو ابراز درس التاريخ وهو درس يدعو للاستنتاج بان مصير روسيا لن يكون بأفضل من مصير النمسا أو تركيا ، ومهما كانت المعطيات والموارد فإن اقصى ما تستطيع تحقيقه هو الحفاظ على استقلالهاوهويتها ، وتلك مسألة مازالت محل شك ، فالقوة العظمى التي أصبحت تعيش على المعونات ومخططات البنك الدولي من العسير عليها أن تستعيد عافيتها في المنظور القريب ، فإذا أضيف إلى ذلك ضعف القيادة وضراوة الصراع الدولي ، فإن هذه الأمة الكبيرة قد انطوت حقبتها

الامبراطورية ، وهي بالكاد ، وبشرط عثورها ، في الوقت الملائم على القيادة التاريخية ، تستطيع ان تقف في الصف ، دولة بين الدول .

اننا لانقول بذلك ، للمشاركة في مرارة التاريخ ، بل ننطلق من دروس الماضي ، والواقع الراهن ، فدرس الماضى يقول ، بان ما تفسخ لايعود ، اما الواقع فبين أيدينا الحوادث الجارية ، ومخططات الذين يرسمون قدر روسيا من الخارج ويعهدون إليها بتنفيذه ، وقد نشرت آلاف الكتابات في الغرب حول شروط اعادة ادماج روسيا ، غير ان اهمها قيمة في اعتقادنا وأكثرها تماساً بسياسة الغرب هي ما كتبه كيسنجر ، الذي ما زال أحد صناع السياسة الإمريكية مهما كان بعيداً عن مؤسساتها

١٨٥ - ان روسيا - في نظر كيسنجر وساسة الغرب- هي بلد طويل الباع في التوسع الاقليمي[١٧٤] ، وتنطوي على عدوان فطري تثبته مسيرة القرون الثلاثة الماضية ، ولايمكن الاعتماد على التطور الديموقراطي في روسيا أو استدعاء تجربة أوربا أو المانيا أو اليابان كدليل على امكانية إستيعاب روسيا في منظومة العالم الغربي .

فروسيا دولة قليلة التطور في مضمار الديموقراطية ، ولايحتوي تاريخها التراكم المطلوب لإحداث هذا التحول ، وفي الانتخابات الاخيرة سيطر أكثر من ٥٠٪ من الشيوعيين والقوميين على السلطة التشريعية ، وتلك مؤشرات تدعو للحذر ، وسياسة أمريكيا يجب الا تقوم على مجرد وجود كفيل شخصى مثل (بوريس يلتسين) لاحداث التطور الديموقراطي .

وإذا كان هناك من يجادل - في إمكانية وضع وصفة مشابهة لمشروع

١٧٤) هنري كيسنجر - الدبلوماسية - ص٥٤١ .

مارشال للنهوض بروسيا مثلما نهضت أوربا عقب الحرب العالمية الثانية ، واستيعابها على غرار أوربا ، فإن كيسنجر يدحض ذلك ، لأن البنية الفكرية والحضارية مختلفة ، فأمم أوربا عريقة في التراث الديموقراطي وذات بنية تحتية ادارية وفكرية ملائمة لإنجاح مشروع مارشال ، فلديها القدر اللازم من البيروقراطية الادارية ولها التراكم الهائل من افكار اقتصاد السوق والأطر القادرة على ادارته وفق قواعد المنافسة ، وليست المانيا أو اليابان بمختلفة عن ذلك ، فقد امكن استيعاب الدولتين بشكل سريع بعد الحرب العالمية الثانية ، اما روسيا فهي مختلفة ، إذ غردت طوال تاريخها خارج سرب العالم الغربي ، فهي ذات كنيسة مستقلة ، ولم تدرك بعد عصر المكتشفات وكذلك اقتصاديات السوق الحديثة ، اما الزعماء اصحاب التجارب الديموقراطية فهم عملة نادرة[١٧٥] .

وهكذا فإن كيسنجر يذهب إلى ضرورة احتضان روسيا ضمن النظام الدولي ، بشرط ان تفهم روسيا عملية مشاركتها المتعبة وعليها ان تعي انها ليست مخولة بان يتم تسليمها مناطق النفوذ التي طمع بها القياصرة ومسؤولي الحزب الشيوعي على طول حدود روسيا الشاسعة لمدة ٣٠٠ عام . فإن ازمعت روسيا ان تغدو شريكاً جاداً في تشييد نظام عالمي جديد ، فعليها ان تستعد للامتثال لضوابط الاستقرار [١٧٦] .

إن كيسنجر واضح تماماً ، فيما يجب ان يكون عليه دور روسيا وضرورة امتثالها للضوابط الجديدة بقمع نزعتها الامبراطوية ، ولاشك أن ما يجري الآن هو مؤشر على هذا الإمتثال ، إذ ان روسيا الآن تخضع للتوجيه الخارجي

---

١٧٥) هنري كيسنجر - الدبلوماسية - ص ٥٤٤ .

١٧٦) المرجع السابق ص٥٤٨ .

ويتقبل ساستها الشروط الجديدة ، ولايقاوم ذلك سوى حفنة من الساسة المعارضين بدافع من الكبرياء القومي .

ومع ان الامتثال لضوابط الاستقرار ينطوي على اغراءات شتى ، الا اننا نظن ان ذلك لن يساعد على تأهيل روسيا لدور جديد ، ولن تمر بضع سنوات أخرى الا وستكون غارقة في هموم يصعب الخروج منها ، وفي مقدمة ذلك تحول هذه البلاد إلى حلقة من حلقات الاقتصاد الغربي ، وهي حلقة هشة سيسهل عطبها في اي لحظة تحاول فيها السير وفق سياسة مستقلة .

على ان اخطر ما سيواجه روسيا هو شيئان ، تآكل قوتها العسكرية ، وسيطرة الصهيونية العالمية على مؤسساتها ، فالقوة العسكرية ، وهي آخر ما تبقى من الرموز الامبراطورية تسير نحو التآكل(١٧٧) . بفعل التخلف التكنولوجي الذي سيفرض نفسه على الاقتصاد الخاص والتابع في وقت واحد ، في الوقت الذي سيتراجع فيه تمويل الدولة لهذا القطاع وسد منافذه الخارجية ، بقفل اسواق السلاح في وجه روسيا ، فمن الواضح اذن ان التفوق العسكري سوف يتراجع ، وعند حدوث ذلك فإن آخر مظاهر القوة العظمى سيتلاشى .

ان خطر السيطرة الصهيونية هو خطر آخر يتهدد روسيا ، وقد أصبح بادياً للعيان ، يكشفه التغلغل الاقتصادي والسياسي للنخب الصهيونية ، التي استفادت بكل تاكيد من درس السيطرة على الولايات المتحدة ، وأصبحت

---

١٧٧) هناك من الكتاب الغربيين من يذهب إلى ان روسيا قد انتهت كقوة عسكرية وأصبح التفوق العسكري ذكرى من ذكريات التاريخ - انظر لستر ثرو - المتناطحون - ترجمة د . محمد فريد - مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ط١ - ١٩٩٥م - ص ١٤ .

أكثر خبرة في السيطرة على القوى العظمي ، ولن يمر وقت طويل لنرى هذه الأقلية الصهيونية قد تشكلت في اشكال اللوبي المعروفة لإحكام قبضتها على المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاعلامية .

بل ان ملامح هذه السيطرة ظاهرة الآن ، فقد احاط الرئيس الروسي الحالي (بوريس يلتسن) نفسه بعدد كبير من المستشارين إليهود وعهد إليهم بتنفيذ سياساته الاصلاحية ، وربما كان وجود هؤلاء المستشارين جزء من الشروط الغربية للمساعدة على النهوض ، وليس هناك حاجة إلى اثبات الصلة بين الصهيونية والدوائر الغربية المتكفلة بمساعدة روسيا ، ويالها من مفارقة في أن يتولى رئاسة وزراء روسيا ، وهي في ذروة محنتها ، شاب يهودي لاتزيد خبرته السياسية في العمل العام عن سنوات قليلة قضاها في الصفوف الخلفية ، وذلك سيسهل توجيهه وتطويعه بما يخدم المخطط الصهيوني العالمي .

والخلاصة هي ان سقوط الاتحاد السوفيتي قد خلق فراغاً هائلاً ، اندفعت القوى الدولية الكبرى والمتوسطة تجاهه ، وقد تحولت جمهورياته السابقة إلى ساحة للصراع الدولي ، وهي ساحة ستشهد الكثير من الاضطراب .

سياسة مفاتيح التدخل ... عنصر الإضطراب الجديد ...

١٨٦ - إن الميدان الثاني للصراع ، هو مناطق النفوذ التقليدية للقوى البازغة ، خصوصاً مناطق النفوذ الأوربي وبصورة أخص مناطق النفوذ الفرنسية .

ومفاتيح التدخل هي سياسة امريكية تستهدف زيادة الرصيد الامريكي من مناطق النفوذ ودحر القوى الأخرى أو أضعاف سيطرتها ، وذلك بهدف دخول توازن القوى القادم وهي أكثر قوة من منافسيها ، وتقوم سياسة مفاتيح التدخل على اشعال الصراعات الاقليمية في مناطق نفوذ القوى الأخرى

والتحكم في هذه الصراعات بإنهاك جماعي للقوى الإقليمية المتصارعة ثم اللجوء إلى الولايات المتحدة لحل هذه النزاعات بعد ان تضمن وضع قدمها في منطقة النزاع وتضمن سيطرتها عليها .

إن المتابع للصراعات الإقليمية التي اندلعت فور انهيار الإتحاد السوفيتي من السهل عليه ان يدرك دور الولايات المتحدة في اشعالها وغاية ذلك ، وإذا كنا لانريد متابعة كل هذه الصراعات ونتائجها فإن عرض نماذج منها سيكون مفيداً لتطبيقه على الصراعات الأخرى ونكتفي بتحليل موجز لصراع البلقان وازمات المغرب العربي ومنازعات القرن الإفريقي ، فهي تشكل النماذج الواضحة لنظرية مفاتيح التدخل التي تنتهجها الولايات المتحدة .

صراع البلقان ...

١٨٧ - فقد إندلع النزاع في البلقان بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي ، والسبب الظاهري لذلك هو البنية القومية المعقدة لأمم تبحث عن الإستقلال ، وهو سبب كان من المحتم ان يدفع إلى الصراع ، فالتعددية القومية في دولة واحدة ستدفع القوميات حتماً نحو الإستقلال ، غير ان توقيت الصراع وأساليبه تشير إلى الدور الامريكي في تفجير هذا الصراع للإستفادة منه في دعم مركزها الدولي .

فمن المعروف ان جمهورية يوغسلافيا السابقة - مركز الصراع - هي منطقة نفوذ مشترك للأمم الاوربية (المانيا ، فرنسا ، إيطاليا) من جهة وروسيا من جهة أخرى ، وعلى مدى التاريخ فإن أمم يوغسلافيا السابقة قد إرتبطت بعلاقات تاريخية مع احدى هذه الدول ، فعلاقة روسيا بصربيا معروفة كما ان كرواتيا ذات إرتباط تاريخي بأمم غرب أوربا ، وترتبط فرنسا بعلاقات تاريخية مع البوسنة والهرسك ، وقد كان من الممكن في الظروف الطبيعية لهذه الأمم ان

تقرر مصيرها بالإنفصال وتكوين دولها المتطابقة مع كيانها القومي ، غير ان هذا التطور الطبيعي لن يخدم المصالح الامريكية ولن يوفر لها فرصة الوجود في المنطقة ، وهكذا دأبت على إشعال الصراع القومي والديني وإتخذت من جمهورية البوسنة والهرسك مفتاح للتدخل متذرعة بالأسباب الإنسانية ، فإستطاعت من خلال جهد دبلوماسي وإعلامي كثيف من إبراز البعد الإنساني في هذه المأساة مستغلة الإنحسار الأوربي والروسي ، وقد إستطاعت ان تحسم الصراع من خلال اتفاقية (دايتون) للسلام التي أتاحت لها وجوداً عسكرياً وإقتصادياً في المنطقة ، فهي ستذهب بعد فرض وجودها العسكري إلى السيطرة الإقتصادية والثقافية على المنطقة ولتصبح ضمن دوائر نفوذها ، ومثلما فعلت مع جمهورية البوسنة والهرسك فإنها تقود الآن التدخل في أقليم (كوسوفو) الالباني والذي سينتهي بحل مشابه لما جرى في البوسنة .

إن الحل الذي فرض في البوسنة والهرسك قد حقق ميزتين عظيمتين للولايات المتحدة ، فقد أفضى النزاع والحل إلى كسب منطقة نفوذ جديدة للولايات المتحدة ما كانت قادرة على كسبها في ظروف الصراع السلمي ، أما الأهم فهو حلولها محل فرنسا بالذات في منطقة نفوذها التقليدية ، وفرنسا هي الخصم الرئيسي الذي يقود التنافس الأوربي مع الولايات المتحدة .

مفاتيح التدخل في المغرب العربي ...

١٨٨ - إن منطقة المغرب العربي هي نموذج آخر (لمفتاح التدخل) فمن المعروف أن هذه المنطقة تقع ضمن دائرة إهتمام ومصالح أوربا ، فهي سوقها الطبيعي ومصدر المواد الخام والأيدي العاملة وترتبط معها بعلاقات تجارية واسعة فضلاً عن العلاقات الثقافية والامنية الناجمة عن الموقع الجغرافي .

فمنطقة المغرب العربي هي منطقة حيوية للغاية لمصالح أوربا وامنها ، وإذا

اضـيـفـت هذه المنطقـة للثـقل الأوربي فـإن ذلك سـيـؤدي إلى أضـعـاف الدور الامريكي الذي تعزز في المنطقة بالسيطرة على منطقة الخليج والمشرق العربي .

ومنذ بداية التسعينيات بدأ الحوار الجدي بين الأمم الأوربية وأقطار المغرب العربي بصيغته المعروفة ٥+٥ في محاولة لترتيب العلاقة بين الطرفين على أسس جديدة تقوم على الاحترام والتعاون المتبادل .

ولأن ذلك يصب في مصلحة أوربا كطرف مرشح للصراع فـقد عـملت الولايات المتحـدة على إفسـاد هذا المناخ وتعطيل التـعـاون العـربي الأوربي ، ووجدت ضالتها في افتعال مشكلتين هما النزاع الجزائري الداخلي وإفتعال قضية لوكربي ضد ليبيـا ، كمفاتيح للتدخل في المنطقة ، ففي الجزائر دأبت الولايات المتحدة على دعم الاتجهات الإسلامية المتطرفة ومساعدتها على زعزعة الإستقرار في الجزائر ، مستغلة عواطف هذه الاتجاهات المتطرفة ضد فرنسـا وثقافتها[١٧٨] .

ويذهب التحليل الامريكي إلى ان أي تغـيير في الجزائر سيصب في مصلحتها لأنه على وجه التأكيد سيكون مضاداً لمصالح فرنسا وأوربا ولذلك فـقـد عـملت الولايات المتحـدة على تأجيج الصـراع الداخلي في الجـزائر وأحتضنت المعارضين للثقافة الفرانكوفونية . وذلك سيؤدي حتماً إلى أضعاف الروابط بين البلدين كما إن إشعال الصراع سيقود نحو عدم الإستقرار العام في منطقة المغرب العربي .

ومن جـهـة أخرى فإن الولايات المتحدة تحاول إستـغـلال النزاع المغـربي

١٧٨) إننا لانريد الإفاضة في تحليل المشكلة الجزائرية وأبعادها الإقليمية والدولية ، فقد فعلنا ذلك في كتابنا ، (الديموقراطية الغربية والعالم الثالث) منشورات مكتبة دار العلوم - بغداد - ١٩٩٧م ص ١٤٤ ومابعدها .

الجزائري حول إقليم الصحراء لزيادة زعزعة الإستقرار في المغرب العربي ، وليس من المصادفات إختيار (جيمس بيكر) كوسيط دولي لحل هذا النزاع على الأسس الامريكية طبعاً .

إن احد اغراض تفجير (قضية لوكربي) ضد ليبيا يتوخى الغايات نفسها فالجماهيرية التي هي المقاوم الرئيسي للسياسات الامريكية في المنطقة يتوجب تعطيل دورها المغاربي والعربي ومحاولة أضعاف صلاتها الإقتصادية والتجارية مع أوربا ، وهي دولة ذات إقتصاد مزدهر يمكن ان يسهم في رخاء الإقتصاد الأوربي .

وخلاصة الامر فإن زعزعة إستقرار المغرب العربي هو هدف للسياسة الامريكية لأنه يضعف إمكانيات الصراع الأوربي ضدها في المستقبل .

ومن الغريب حقاً أن الدول الأوربية لم تدرك هذه الأبعاد بصورة واضحة فأسهمت في إنجاح السياسة الامريكية الموجهة ضدها ، فقد إنحازت فرنسا إلى الولايات المتحدة في نزاعها مع ليبيا وخصوصاً في عهد الرئيس الفرنسي السابق (فرانسوا ميتيران) الذي أظهر جهلاً إستراتيجياً عاماً في التعامل مع الصراع الأوربي الامريكي ، وهو جهل يصعب تفسيره ، إلاّ إذا كان الرئيس الراحل وقع تحت ضغوط إمريكية هائلة ، قد ترجع إلى عوامل شخصية متعلقة بسيرته الذاتية خلال تاريخه السياسى الطويل .

القرن الإفريقي ...

١٨٩ – إن منطقة القرن الافريقي هي نموذج آخر لإتباع سياسة (مفاتيح التدخل) فمن المعروف أن المنطقة تقع ضمن دائرة النفوذ الأوربي ، وترتبط فرنسا وايطاليا بروابط تاريخية مع دول المنطقة ، وقد عملت الولايات المتحدة على زعزعة استقرارها وإشعال الصراعات فيها بهدف الحلول محل فرنسا ، وقد

بدأ الفتيل في الصومال بالحرب الأهلية ودخلته الولايات المتحدة عن طريق (عملية إعادة الأمل) ، غير ان المقاومة الصومالية العنيدة هزمت سياستها ، فإختارت التراجع ، إستعداداً للإنقضاض على المنطقة في فرصة أخرى . وقد وجدت ضالتها ، هذه المرة ، عن طريق دولة أرتيريا ، إذا قامت بتحريضها على محاربة جميع جيرانها (اليمن ، السودان ، جيبوتي وأثيوبيا) وإذا كانت ارتيريا لم تحقق لها اهدافها حتى الآن ، فإنها ستستأنف هذه الجهود وسيرتبط مصير المنطقة بمقدار الوعي الفرنسي باللعبة الإمريكية ومدى مقاومتها لهذه اللعبة .

إن نظرية مفاتيح التدخل صالحة لتفسير معظم الصراعات الاقليمية الجارية الآن ، فالنزاع في منطقة البحيرات الإفريقية هو نموذج آخر ، وإفتعال المشاكل ضد كوريا الشمالية يستهدف الدور الصيني كما كانت حرب الخليج هي مفتاح التدخل في منطقة المشرق العربي .

ج ـ الفوضى الاقتصادية ...

١٩٠ – أن أحد مظاهر مرحلة الهيمنة ستكون الفوضى الاقتصادية ، ومن المرجح ان تشهد هذه المرحلة الكثير من الاضطرابات ، وهي اضطرابات ستنجم عن محاولات الهيمنة الإمريكية وتوجيه الإقتصاديات العالمية في الإتجاه الذي يخدم المصالح الإمريكية ، فالولايات المتحدة تعلم تماماً أن القوة في المستقبل سترتبط في نهاية المطاف بقوة الإقتصاد أما المعركة الرئيسية فستكون ذات طابع إقتصادي في المرحلة الأولى على الأقل .

وعلى الرغم من أن اقتصادها مازال قوياً ويبدو قادراً على المنافسة بما يحفظ مكانتها في توازن القوى القادم ، إلاّ أن هناك مؤشرات قوية على ان هذا الإقتصاد قد وصل إلى حده الأعلى ، في الوقت نفسه الذي بدأت فيه القوى الأخرى في الصعود ، فقد أصبح الاقتصاد الياباني متفوقاً ويحقق فائضاً هائلاً

في مواجهة الولايات المتحدة ، وقد حققت الصين أعلى معدلات النمو العالمية ، وأصبح الاقتصاد الألماني بديلاً نموذجياً للرأسمالية الإمريكية .

ولأن الولايات المتحدة أدركت خطورة موقفها الإقتصادي ، فالتنافس أصبح في غير صالحها ، فقد دأبت على استغلال مرحلة الهيمنة لضرب اقتصاديات القوى الأخرى ، وقد بدأت ذلك بفرض إتفاقية الجات ، وهي اتفاقية لم تعارضها دول العالم الثالث فقط ، بل أنها حظيت بمعارضة واسعة في أوربا نفسها ، ومع ان الاتفاقية حظيت بمصادقة الكثير من الدول ضمن مناخ الاكراه إلاّ أنها ستعاني كثيراً عند التطبيق ، وقد اردفت الولايات المتحدة ذلك بسياسات خارجية تستهدف توسيع مناطق نفوذها الاقتصادي وفتح الأسواق بصورة شبه جبرية أمام منتجاتها ، كطرح مسألة الشرق أوسطية وتوقيع اتفاقية (نافتا) مع المكسيك وكندا ، بل أنها حاولت توسيع هيمنتها من خلال خلق إتحاد امريكي يمتد نطاقه إلى قارتي أمريكيا الشمالية والجنوبية ، وتلك محاولات تستهدف مواجهة العملاق الأوربي الإقتصادي الناهض .

غير ان معظم هذه السياسات فشلت نتيجة للطابع الإكراهي للسياسة الامريكية وأنانيتها المفرطة وإزدواجية مواقفها السياسية .

إن هذا الفشل قاد الولايات المتحدة إلى محاولة الهجوم المباشر على اقتصاديات المنافسين ، وقد بدأت بالهجوم على الاقتصاديات الآسيوية نظراً للقلق الذي أصبحت تسببه لها النمور الآسيوية وقد تهاوت بالفعل الحلقات الضعيفة كاندونيسيا التي استطاعت تكبيلها بقروض واجراءات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ، واصيبت بنى واقتصاديات آسيوية أخرى باضرار بالغة كما هو الحال في ماليزيا وكوريا الجنوبية ، بل ان الاقتصاد الياباني وهو المنافس الرئيسي لم يسلم من الضربات .

لكن الولايات المتحدة وهي تكيل هذه الضربات لم تلتفت إلى نقاط ضعفها ، فالترابط الاقتصادي الذي خلقته في السابق مع النمور الآسيوية ستنعكس تأثيراته على اوضاعها الاقتصادية ، فلا يمكن تصور انهيار اليابان دون تصدع أمريكيا ، فاليابان التي توظف الان ما يقرب من ستمائة مليار دولار في السوق الاميريكية ، لن تتورع عن رد الضربات عن طريق تحريك إستثماراتها ، واذ حدث ذلك فإن توابع الزلزال ستسقط الكثير من دعائم الإقتصاد الإمريكي الذي سيجد نفسه أمام معضلات حقيقية ستنجم عن الافلاس والبطالة والانكماش الاقتصادي .

وفي الوقت الذي تعاني فيه الولايات المتحدة هذه المعضلات فإن تطورات مهمة تجري على المستوى الأوربي ، فالاقتصاد الأوربي يندمج تدريجياً بصورة اكبر وامامه اسواق اوسع سواء على مستوى أوربا أم العالم الخارجي ، فهو سوق يفوق السوق الامريكي بمائة مليون مستهلك وتمتد أطرافه في بلدان أوربا الشرقية وآسيا وافريقيا .

ان الاقتصاد الأوربي لايتوقف تحديه عند المستوى المادي ، بل انه ينطوي على تحدي حضاري واجتماعي ، فقد انتجت أوربا نموذجاً جديداً للنمو الرأسمالي ، فكما يذهب (ميشال البير) في كتابه (تناطح الرأسماليات) فقد أصبحت الرأسمالية تقوم على نموذجين ، النموذج الامريكي القائم على النجاح الفردي والربح السريع ، والنموذج الالماني (الريناني) القائم على النجاح الجماعي والرؤية الطويلة الأمد ، وبينما أصبح الأول يتفسخ وينحل فإن الثاني يحقق نجاحاً ملحوظاً ، فهو على الرغم من نقائصه أيضاً ، لكنه البديل المؤكد للنموذج الرأسمالي البائد[١٧٩] .

١٧٩) يراجع - ميشال البير (تناطح الرأسماليات) دار الحمراء - بيروت ط١ - ١٩٩٦م خصوصاً الفصل الثالث والسادس والسابع .

وخلاصة الأمر فإن فترة الهيمنة ستتسم بالفوضى والاضطرابات الاقتصادية وهي فوضى لن تتوقف الا بتبلور توازن قوى بمفهومه الشامل ، فهو البديل الحقيقي للهيمنة التي لاتمثل القاعدة في التاريخ بل هي استثناء ، اما القاعدة فهي الصراع بين منافسين يحول دون تحقيق الهيمنة(١٨٠) ويحفظ الاستقرار والسلام .

د ـ الفوضى العسكرية...

١٩١ - ان المتبقى المؤكد من التفوق الامريكي هو القوة العسكرية ، فعالم اليوم إذا حللناه على وجه الدقة هو عالم متعدد الأقطاب اقتصادياً ، لكنه احادي القطب من الناحية العسكرية .

وتظن الولايات المتحدة ان ضمانتها الرئيسية تكمن في تفردها بالقوة العسكرية فبواسطتها تستطيع ان تفرض سياساتها بالردع أو استخدام القوة ، ولذلك فإنها تتبنى اليوم سياسة تضمن لها استمرار هذا التفوق العسكري ، فلا بأس ان يكون لالمانيا واليابان وريد اقتصادي ، ولكن لايجب ان تكون لها عضلة عسكرية تحمى هذا النمو والتفوق ، وفور انهيار الاتحاد السوفيتي دأبت أمريكيا على اتباع سياسة نزع السلاح والحد من انتشاره فدعا كتابها إلى جعل هذه السياسة واحدة من أهم أولوياتها(١٨١) .

وهي سياسة لاتستهدف بلدان العالم الثالث وحسب بل انها موجهة ضد القوى الكبرى أيضاً ، وللولايات المتحدة برنامج ما استهدف السيطرة على الامكانيات النووية لجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وحصر هذه

---

١٨٠) د . سمير امين - في مواجهة ازمة عصرنا - سينا للنشر - القاهرة والانتشار العربي - بيروت - ط١ - ١٩٩٧م - ص ١٦ .

١٨١) هنري كيسنجر مثلاً في مقاله جدول اعمال ما بعد الحرب - سبق الاشارة إليه .

الامكانيات بيد روسيا وحدها ، وهي امكانيات سيسهل فيما بعد السيطرة عليها ، كما عارضت الولايات المتحدة ، سياسة فرنسا النووية وهي دولة حليفة في الوقت الراهن ، لكن الولايات المتحدة تعلم ان ما من وضع قابل للديمومة ، فحليف الأمس هو مشروع منافس في المدى المنظور ، وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة تقود في الوقت الراهن سياسة صارمة لضبط التسلح ، الا ان هذه السياسة مشكوك في نجاحها ، لأنها لا تقوم على اسس مخلصة تهدف إلى تعزيز السلام العالمي ، بل انها سياسة انانية تهدف إلى ضمان التفوق والسيطرة .

ومن المرجح ان ينفلت سباق التسلح من جديد في مرحلة الهيمنة ، وقد بدأ ذلك بالفعل ، ولاتعد التفجيرات النووية لكل من الهند وباكستان سوى نموذج لذلك ، وإذا كانت الولايات المتحدة قد حققت بعض صور النجاح في بداية التسعينات ، فإن الفشل أصبح يخيم على هذه السياسات بفعل انكشاف الاغراض الامريكية والسياسات المزدوجة التي تتبعها ، ففي بداية التسعينيات حدث قدر من الانضباط من قبل الدول المصدرة للتكنولوجيا العسكرية ، غير ان الموقف تبدل كلياً بعد ذلك ، وعلى سبيل المثال فإن الصين لم تتورع في التعاون مع كل من الباكستان وايران كرد على السياسات الامريكية المتغاضية عن المشروع الهندي خدمة لمصالحها ، كما ان روسيا اعلنت عصيانها للأوامر الامريكية بعدم التعاون مع الهند في مجال المفاعلات النووية .

ان المتوقع خلال السنوات القادمة هو مزيد من الفوضى العسكرية وسباق التسلح وذلك بسبب انتقائية سياسة الولايات المتحدة واحتكارها لأهم ميادين التجارة ، وليس من المستبعد ان تندفع الدول الأخرى في سباق تجاري محموم

لبيع الأسلحة أو مكوناتها انطلاقاً من مصالح اقتصادية بحتة ان لم يكن انطلاقاً من اعتبارات توازن القوى نفسها ، اما مسألة الضبط والمراقبة فهي مسألة وهمية إذا ما اختارت الدول سياساتها بصورة مستقلة .

وخلاصة الأمر فإن عصر الهيمنة سيتسم بكثير من الفوضى والاضطراب في كافة المجالات وهو عصر من التفاعلات سيقود حتماً إلى مرحلة أخرى هي مرحلة توازن القوى المتعدد الأقطاب .

ثانياً ... مرحلة توازن القوى المتعدد الأقطاب ... (مرحلة الإستقرار)

١٩٢ - وتلك مرحلة سندخلها بعد سنوات قليلة من بداية القرن القادم ، وليس امامنا سوى عقد من الزمان أو نحو ذلك لولوج مرحلة توازن القوى المتعدد الأقطاب والوصول إلى شكل من اشكال النظام الدولي الجديد .

وبحسب المعطيات الموجودة فإن قوى عديدة تستعد لبلوغ هذه المرحلة ، ويجمع معظم الكتاب على ان القوى المرشحة لتشكيل هذا التوازن هي الولايات المتحدة وأوربا والصين واليابان وروسيا ، لكن هذه الأقطاب ستكون متفاوتة القوة ، وربما تكون لدينا ثلاثة قوى تتمتع بالشروط الكاملة للمشاركة في توازن قوى القرن المقبل ، هي الولايات المتحدة وأوربا والصين ، ونعني بالشروط الكاملة سلامة القاعدة الاقتصادية والعسكرية ، فهذه البلدان الثلاث تتمتع ببنية اقتصادية متطورة وقوة عسكرية جبارة ، وإذا كانت الولايات المتحدة هي الأوفر حظاً حتى الان ، فإن هذا الوضع يسير نحو التبدل سواء على المستوى الاقتصادي أم العسكري .

وتمتلك اليابان القاعدة الاقتصادية الأوفر حظاً لقيادة القرن الواحد والعشرين ، فبعد تحليل دقيق يجريه (لسترثرو) في كتابه (المتناطحون) يذهب

إلى ان توازن القوى في القرن الحادي والعشرين سيتشكل من ثلاث قوى هي (اليابان وأوربا والولايات المتحدة) ويذهب إلى ان القيادة ستؤول لليابان بحكم تميز مركزها الاقتصادي ، كما ان أوربا ستتقدم على الولايات المتحدة ، لأن النموذج الأوربي يتسم بخصائص رأسمالية أكثر سلامة من الاقتصاد الامريكي[١٨٢] ، وفي وقت مبكر انتابت الحيرة (جاك آتالي) مستشار الرئيس الفرنسي السابق (فرانسوا متيران) لكنه يرجح ان القرن القادم سيكون قرن الجنس الاصفر[١٨٣] .

ان روسيا ستكون جزءاً من توازن القوى القادم ،لكنها ستكون في آخر الصف ، فاوضاعها الاقتصادية تسير نحو الانحدار ، ويتطلب الأمر منها إنتظار جيل كامل على الاقل من اجل اصلاح عطبها ، هذا إذا امتلكت الارادة السياسية والخطة العلمية للاصلاح ، اما بنيتها العسكرية فإنها سوف تنحدر أو تتجمد ،لكن مع كل ذلك فإنه سيكون لروسيا شأنها ، ان لم يكن بقوتها فسيكون ذلك بحكم موقعها كساحة للصراع .

ان توقعنا يذهب إلى ان اليابان ستشارك في توازن القوى ،لكنها لن تستطيع الحصول على موقع سيادي في هذا التوازن ، فمع انها ستكون قطب اقتصادي الا ان القوة العسكرية هي احدى المقومات الضرورية للمواقع المتقدمة ، وما لم تحصل تغيرات جوهرية في سياسة اليابان تدفعها للانطلاق

---

١٨٢) يراجع الكتاب القيم – لستر ثرو – المتناطحون – ترجمة د . محمد فريد – مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية – ط١ ١٩٩٥م – خاصة الفصل الثامن ص ٢٢٩ وما بعدها .

١٨٣) –جاك آتالي – ملامح المستقبل – ترجمة أحمد عبد الكريم – دار طلاس – دمشق ط١ – ١٩٩١م .

نحو البناء العسكري ، وهناك مؤشرات على ذلك ، فإنها ستظل اقل فاعلية في السياسة الدولية .

اما ما يعوز الصين فهو نظرتها السياسية للعالم ، فهي نظرة تقوم على الحذر من الانغماس في المشكلات العالمية ، فهي أكثر اهتماماً بمحيطها الجغرافي ومراقبة التوازن الاقليمي فيه ، اما ما وراء ذلك فإنها قليلة الاهتمام ويغلب على سياستها التردد والإندفاع نحو الصراع الدولي .

١٩٣ - ان طرفي التوازن الأكثر فاعلية هما أوربا والولايات المتحدة ، ومن المرجح ان يتصاعد دور أوربا في السنوات القليلة القادمة لتتوازن بشكل تام مع الولايات المتحدة ، بل ان أوربا ستتفوق على الولايات المتحدة في الميدان الاقتصادي ، فالوضع الاستراتيجي كما يقول (ثرو) يميل إلى صالح الاوربين ، وهم الاوفر حظاً في ان يسبغ عليهم شرف الريادة في القرن الحادي والعشرين[١٨٤].

ان كافة المعطيات ترجح كفة أوربا ، ففضلاً عن الواقع الموضوعي ، فإن أوربا تمتلك الارادة السياسية ووضوح الرؤية ، فهي عازمة ، فيما يبدو ، على تحدي القطبية الأحادية ولعل أفضل من عبر عن ذلك هو الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) ففي كتابه (فرنسا جديدة فرنسا للجميع) ، وهو في الواقع بيانه الانتخابي لمعركة الرئاسة ، يدعو أوربا وفرنسا إلى لعب دورها العالمي ويحمل على هشاشة أوربا تجاه النفوذ الامريكي الذي يترك آثاره على ثقافة أوربا وامها إلى درجة تدفع للتساؤل حول بقائها . وهو يحث الأوربيين على اعادة تجميع قواهم لتوحيد اوراقهم الرابحة ، ويذهب شيراك إلى ان محور هذه العملية

---

١٨٤) لستر ثرو - المتناطحون - ص ٢٤٠ .

التاريخية هو التفاهم بين الفرنسيين والالمان لتأسيس شيء متين[185] .

واذا كان شيراك لم يعلن الصدام المبكر مع الامريكيين ، الذين يعترف بجمائلهم ، الا ان عرفإن الجميل لايعني الاستسلام ، وإذا كان انه ليس من شأن أوربا ان تقف في وجه أمريكيا كما يقول ، فإن على أوربا ان تسجل وجوداً اقوى باستمرار[186] .

ويدعو شيراك بشكل واضح إلى ضرورة ايجاد صياغة جديدة للحلف الاطلسي تقوم على ايجاد قطب اوربي للدفاع[187] .

اننا ودون استعراض مجمل ما كتب شيراك ، نقول انه يكشف عن ارادة سياسية واضحة لتحدي القطبية الأحادية والعمل على التوازن مع الولايات المتحدة وعدم الاكتفاء بدور الدولة المتوسطة .

فإذا رضيت فرنسا بوضع (قوة متوسطة) فإن مستقبلها سيكون محدوداً ، وستسخر ما تبقى لها من نفوذ لتصبح بلداً تابعاً مرتهناً للازدهار العالمي في عملها ، وللمقررات الخارجية بالنسبة إلى امنها[188] .

إن ما كتبه شيراك ليس مجرد بيان انتخابي ، فقد عمده فيما بعد بالاجراءات العملية ، فقد واصل فور توليه منصبه الرئاسي سلسلة من التجارب النووية لاستكمال قوة فرنسا الدفاعية ، كما اختط سياسة خارجية تحاول اثبات وجودها في وجه السياسة الامريكية وتقاوم محاولات التغلغل في

١٨٥) جاك شيراك – فرنسا جديدة فرنسا للجميع – ترجمة انطوان الهاشم واحمد عويدات – منشورات عويدات – بيروت ط١ – ١٩٩٦ ص ٦٢ .

١٨٦) المرجع نفسه ص ٦٥ .

١٨٧) المرجع نفسه ص ٦٤ .

١٨٨) المرجع نفسه ص ٦٩ .

مناطق نفوذها ، كما عزز الاتحاد الأوربي وواصل التعاون مع المانيا لمقاومة الهيمنة الانجلوسكسونية .

وحسب اعتقادنا فإن فرص النجاح امام فرنسا وافرة ، فهي ثاني بلد زراعي بعد الولايات المتحدة ، وهي قوة ثقافية لها شأنها وتمتلك الكبرياء القومي كعنصر ضروري للصراع العالمي . واظن ان شيراك الذي يعلن انه على خطى الجنرال ديغول يستطيع مواصلة دور زعيمه ، ولم يكن ديجول رجل ادارة يعالج مشاكل الحياة بقدر ما فهم ان مهمته هي قيادة فرنسا ، (هذا المسدس الجميل) بتعبيره إلى تبوأ القيادة العالمية .

ان هذا الكبرياء لايعوز أوربا ، كما ان الشعور بالهشاشة يجرح مشاعرها ، وإذا كان ساستها لايعبرون عن ذلك بوضوح شيراك ، فذلك مرجعه عوامل ظرفية سرعان ما تزول .

١٩٤ - وتدرك الولايات المتحدة خطورة التوحيد الاوربي ، وهي على الأرجح تأمل في عرقلته أو اختراقه عن طريق السياسة الذليلة لبريطانيا التي تقوم على الإعتقاد بأن دورها العالمي مرهون بالدور الامريكي ، لكن هذا الاختراق ، على الأرجح ، فات اوانه ، فقد انطلق القطار الأوربي صوب محطات قادمة ، وسيكون على بريطانيا ، اما الركوب في آخر العربات أو الانتظار الطويل .

مرحلة الاستقرار....

١٩٥ - ان توازن القوى المتعدد الأقطاب ، هو المرحلة القادمة لا محالة ، وليس مهماً تحديد عناصر قيادته بدقة ، غير ان القوى الخمس ستظل جزءاً منه . وستلحق بها قوى أخرى متوسطة القدرة ، ستكون قادرة على التأثير فيه

باشكال ودرجات متفاوتة ، فعالم اليوم يعج بمثل هذه القوى التي بلغت درجات لابأس بها من النمو الاقتصادي والتقدم العلمي ، فهذا العالم سيكون شبيهاً بوصف (لي كوان) رئيس وزراء سنغافورة السابق ، كما يروى عنه الرئيس الامريكي الراحل (ريتشارد نيكسون) ، فهو اشبه بغابة ، فهناك الاشجار والمتسلقات وبينهما الشجيرات ، فاما الاشجار العملاقة فهي القوى الكبرى ، وأما الشجيرات فإنها تدخر في جذورها ما قد يجعل منها اشجار عملاقة ، بيد ان غالبية ما بقى منها هو متسلقات تصارع فقرها للمصادر وفقرها للقيادات(١٨٩) .

ان مرحلة التوازن المتعدد ستتسم بالاستقرار والسلام ، فهي على الأرجح لن تشهد سوى توترات محدودة نابعة من الصراعات الاقليمية التي يستحيل توقفها ، لكنها عبارة عن امراض لن تؤثر في الوضع العالمي العام ، وسيبلغ التوازن في هذه المرحلة ذروة الحركة والفاعلية بما سيشهده من تحالفات بين اقطابه ومع غيرهم من الدول الأخرى ، وهي تحالفات ستتبدل وفق تأرجح التوازن ، وسيغلب عليها الصراع والتنافس السلمي مع بعض التشنجات التي يمكن ضبطها .

١٩٦ – وستشهد مرحلة التوازن المتعدد ، ظهور النظام الدولي في صيغته الجديدة ، اي النظام المكتمل الملامح بمؤسساته وقواعده التي تقبل بها القوى الرئيسية ، وهو في الغالب سيكون مفتقراً إلى العدالة والكفأية ، مثله مثل اي توازن قوى في التاريخ لمذلك فإن محاولات تعديله والمحافظة عليه ستكون محور الصراع بين أطرافه .

---

١٨٩) ريتشارد نيكسون – ما وراء السلام – ترجمة مالك عباس – الاهلية للنشر والتوزيع – ط١ ١٩٩٥ ص ٣٧ .

وليس من الممكن تحديد المدى الزمني الذي سيستغرقه توازن القوى المتعدد وظاهرة الاستقرار المترتبة عليه فهو قد يطول ليصنع قرناً دبلوماسياً آخر مثلما حدث عقب مؤتمر فينا ، وقد يقصر ، ولايستمر غير عقود قليلة مثلما حدث بعد توازنات الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ومن المؤكد ان مداه الزمني سيرتبط بعنصرين اساسيين هما ، مدى الكفاية والعدالة فيه ، ونوعيه القادة الذين سيتولون امره .

فإذا اقيم هذا التوازن على اسس عادلة من توزيع القوة بين أطرافه ، وتحلي ساسة الغد بالحكمة والتبصر فإن ابنائنا واحفادنا سينعمون بالعيش فيه ، اما إذا ذهبت هذه الشروط ادراج الرياح فإنهم سيكونون وقوداً لحروبه ونيرانه .

ثالثاً ... مرحلة توازن القوى الثنائي ... (مرحلة الحرب)

١٩٧ - وتلك هي المرحلة الأخيرة التي ستشكل هذه الحقبة من التاريخ ، حيث سيبلغ التوازن المتعدد شيخوخته ، فمهما كانت عدالة التوازن أو حكمة الساسة فإن منطق التاريخ يقود للاستنتاج بحتمية تبدل توازن القوى إلى هذا الشكل النهائي ، فمن الضروري أن تقود حركة التحالفات نحو خلق كتلتين متصارعتين حيث سيكون التوازن اقل عدالة ويبدأ في الميل نحو كفة من الكفتين .

ومع ان هذا التوازن قد يلد في ظروف تتسم بالمرونة المنبعثة من التماثل الفكري والحضاري ، الا ان هذه المرونة لن تكون كافية لوقف عجلة التاريخ ، وهناك من المشكلات اليوم ما يكفي لصنع التوترات وتصاعد الصراع ، بل ان هذه المشكلات ، وأكثرها ذات طابع اقتصادي ، ستتفاقم بصورة اكبر ، وسينبعث معظمها من تقدم العلم والتقنية ، ومن طبيعة هذه المشكلات

الاقتصادية سيستمد الصراع طبيعته ، لكنه سيتصاعد فيما بعد نحو ميادين أخرى ، وإذا ظهر هذا الشكل من التوازن ، فمن المؤسف أنه سيكون جرثومة الحرب التي ندعو الله ان تكون بعيدة .

١٩٨ - تلك هي حتمية التاريخ ودورته ، فتوازن القوى هو أحد المحركات الرئيسية لدورة التاريخ ، فهو الذي يصنع الحروب بقدر ما يصنع حقب الإستقرار والسلام ، وهو لايحرك التاريخ بصورة عشوائية في خطوط غير منتظمة ، لكنه يفعل فعله ضمن سياق منظم ، فتشير كل مرحلة منه لقدوم الأخرى ، ولن ينال من ذلك متغيرات الحياة سواء تعلقت بالمادة أم الأفكار .

فلا التقدم العلمي ولاظهور بعض الافكار الإصلاحية ، يستطيعان وقف فعالية ثوابت التاريخ .

إن ما نعيشه إذن هو دورة من دورات التاريخ ، في حقبة مميزة بذاتها ، لكنها تتشابه ، من حيث الجوهر مع غيرها من الدورات التاريخية بما تحفل به من أشكال مختلفة للتوازن ، وأشكال منبثقة عنها من الصراع ، وهي أشكال ستؤول في نهاية الدورة إلى الحرب والصدام .

وإننا سنجد من يجادل ويشكك في هذه الحتمية وفي القاعدة العلمية لنظرية توازن القوى .

فمنذ نهاية الحرب الباردة ظهرت الشكوك في الأفكار التقليدية التي قامت عليها العلاقات الدولية خلال القرون الماضية ، وقد توجهت هذه الشكوك نحو مسألة توازن القوى بصورة خاصةفظهر شعار (توازن المصالح) كبديل مطروح للحلول محل توازن القوى .

وذلك تأسيساً على أن البشرية قد وصلت إلى أعلى مراحل النضج بما

يمكنها من النظر العقلاني للمشاكل الدولية الناجمة عن تناقص المصالح ، والإعتراف بهذا التناقص الذي يجب أن يحل على أساس الإعتراف بتوازن هذه المصالح وتشييد آليات دولية قادرة على الفصل بين هذه التناقضات ، أي بخلق نظام دولي يمنح الجميع حصصاً متوازنة .

إن مثل هذه الدعوى والإستنتاجات هي أما ساذجة أو خبيثة وهي في الحالتين لاتقوم على أي أساس علمي .

ومنطلق السذاجة أو الخبث ، هو أن هذه النظرة تجرد الدول من طبيعتها ، وتلغى دون مسوغ ، أساس العلاقات الدولية . . .

إننا نعيد التأكيد على طبيعة الدولة ، كمؤسسة تقوم على الصراع ضد الدول الأخرى ، فهذه هي طبيعتها منذ الأزل وإلى الأبد ، كما نعيد التأكيد على مسألة القوة كسمة أساسية للعلاقات الدولية ، فأمام البشرية أشواط بعيدة جداً عليها أن تقطعها قبل تحقيق إنجاز يذكر للحد من مسألة القوة في العلاقات الدولية ، بل إننا نذهب إلى إستحالة الوصول إلى تلك المرحلة وذلك مهما كانت الإنجازات الفكرية والحضارية ، فخلق دولة غير متصارعة بالقوة لن يكون ممكناً سوى في دولة الملائكة ، ومثل هذه الدول لن تقوم في الأرض أبدا .

١٩٩ - إننا قد نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بالقول أن الصراع سيتصاعد ويتأجج ، وأن تمجيد القوة في العلاقات الدولية يكاد أن يتحول إلى مايشبه المذهب الديني . . .

ولدينا من الأسباب الفكرية والعملية ما يكفي لتعزيز هذه القناعة التي يمكن وصفها بأنها تشاؤمية .

فعلى الصعيد الفكري فإن الصراع يتأجج أو يخبو وفق طبيعة القيم المهيمنة على حضارة ما ، فمتى تجذرت الحضارة سادت القيم الإنسانية الرفيعة وسيطر على السياسة سلامة الهدف ووضوح الرؤى وأنتجت النظم القادة والعظماء ، أما متى إضمحلت الحضارة فلابد وأن تسيطر القيم الخاوية وأن تفقد الأهداف جلالها وتنتج النظم أسوأ الساسة وأحط الرؤساء .

وفي كلا الحالتين لابد من الصراع ، غير أنه في الحالة الأولى يأخذ الصراع شكلاً نبيلاً ، أما في الحالة الثانية فإنه ينحط ويتأجج لأتفه الأسباب .

وحضارة عصرنا ، وهي إمريكية السيطرة ، سطحية الجذور تقودها أمة قريبة النشوء .

وهي لهذا السبب تفتقر لتجربة التاريخ ، إنها حضارة مصابة بالخَواء الروحي .

ولذلك فإنه من الطبيعي أن يتأجج الصراع في ظل هذه الحضارة المزعومة .

والواقع أنه لاتعوزنا الدلائل على تأجيج الصراعات ، فما أن إنعقد اللواء للولايات المتحدة وخلت لها الساحة الدولية إلاّ وتفاقمت هذه الصراعات ، فمنذ سقوط الإتحاد السوفيتي وإلى اليوم ، إندلعت مئات الصراعات وسقط ضحاياها بمئات الألوف ، إن لم يكن بالملايين ، وذلك قبل أن يكتمل للسيطرة الامريكية عقد واحد من الزمان .

أما نوعية الساسة والزعماء ، فقد بانت بواكيره بإنتخاب (بل كلنتون) ، وهو رئيس لم يجد رسالته في قيادة العالم نحو نظام عالمي جديد ، يقوم على تعزيز الديموقراطية وحقوق الإنسان ونصرة الشعوب المضطهدة ، بل وجدها أكثر

في المغامرات الطائشة بين أحضان الغواني تحت قباب البيت الأبيض وفي حرمة المكتب البيضاوي .

فالرجل الذي حول مكتب الرئاسة إلى مخدع للسلوى ، هو بحق إنعكاس أمين لقيم بلاده ومقدار رفعة حضارتها . . .

إننا بالقطع لن نستطيع العثور في كل صفحات التاريخ على حضارة ذات شأن قادها رجل لعوب ، من السهل عليه إصدار أوامر القصف بالصواريخ لمجرد لفت الأنظار عن فضيحة جنس .

فها هو (بل كلنتون) أمبراطور روما المعاصر ، يأمر بقصف السودان وافغانستان لسبب تافه ، لمعالجة فضيحته مع واحدة من عشيقاته ، ومن المحتمل أنه في الوقت الذي يدفن فيه ضحاياه إندس هو في مخدع جديد . . . فتلك هي هموم رجل الدولة في أواخر القرن العشرين .

فهل بعد ذلك يمكن الحديث عن عالم قليل الصراع ويتورع الساسة فيه عن استخدام القوة ؟ تلك هي بعض الأسباب الفكرية ، وليس كلها ، التي لاتدفع نحو الأمل في عالم جديد خال من الفوضى والإضطراب . . .

٢٠٠ - أما من الناحية العملية ، فإن الصراع ، هو نتاج طبيعي للمشكلات القائمة بين الدول وحجم هذه المشكلات القائمة ، فقوة الصراع تنبعث من المشاكل الناجمة في عصر ما . . .

وعلى الرغم من بعض الإعتقاد السائد ، بأن عجلة العلم تواصل زحفها لخلق عالم من الرفاهية والإزدهار ، قليل المنازعات والتوتر ، فقد بلغ العلم والمعرفة ذرى رفيعة ، وهو على وشك أن يسخر ، لمصلحة الإنسان ، خيرات الكون كلها لكن ، على الرغم من كل ذلك ، فمن المرجح أن المشكلات

الإنسانية ستزيد تفاقماً ، وستطرح الحضارة المعاصرة مشكلات مستجدة وذات طبيعة خاصة ، فمنجزات العلم والتقنية ستفرخ مئات المشاكل غير المسبوفة ، وسيكون العلم قاصراً في حلها ، وهي مشاكل ستدفع نحو أبشع الصراعات . . .

وفي مقدمة المشاكل النمو الديموغرافي الهائل ، ففي ربع القرن القادم قد يصل عدد سكان كوكبنا إلى عشرة مليارات وستكون أفواه معظمهم جائعة ، فمن المقدر أن يعيش سبع أعشارهم في البلدان الفقيرة ، فالإزدهار العلمي سيكون أحادي الإنعكاس ، فهو لن يحل سوى معضلات العالم الصناعي ، أما الأغلبية الساحقة من سكان الأرض فإنها ستقع فريسة لهذا النمو ، وإن ما سيضاعف المشكلة الديموغرافية ، هي أن سكان العالم الفقير سيعيشون توترات داخلية حادة ، ستقود حتماً نحو العنف الدموي ، فأغلب هؤلاء السكان سيعيشون في الأرياف وعلى أطراف المدن الفقيرة ، وستطرح هذه المشكلة بدورها مشكلة الهجرة والزحف نحو حواضر الرفاهية ، وهي هجرة ستقابل بالمقاومة والعنف ، وسيكون الإرهاب المضاد هو المقدمة للنزاعات والحروب . . .

إنه من الممكن غض الطرف عن مئات المشاكل التي ستدفع للصراع الدولي ، كمشاكل البيئة والتسلح والصراعات حول غزو الفضاء ومشاكل الغذاء والمياه والحدود والإضطهادت القومية والأثنية والدينية ، والصراع الاقتصادي حول الموارد والأسواق . . . لكن لايمكن التغاضى طرفة عين عن السبب الرئيسى للصراع وهو ما يسميه الغرب (الصدام الحضاري) .

فالصدام الحضاري بين الغرب والآخرين محتوم ، وهو الصدام الذي سيخيم على القرن الواحد والعشرين .

ومبعث هذا الصراع هو الشعور بالتفوق الساحق من قبل الغرب وعدم

إستسلام الآخرين لما يعتقدون أنه حضارة فاسدة . . . فالتناقض حتمى وهو موجود يعبر عنه يومياً ، منذ الآن ، ومن كلا الطرفين . . .

ويجمع الكتاب الغربيون على حتمية (الصدام الحضاري) وعلى الصعيد الفكري فقد أطلق شرارته (صمويل هنتنجون) في كتابه المختصر (صدام الحضارات) منذ مطلع التسعينيات ، وهو كتاب قوبل ببعض الإمتعاض فور خروجه ، لأنه كشف مستوراً في الوجدان الغربي ، وهو مستور لم يرد كشفه ، لكن أفكار (هنتنجتون) تأكد قبولها ، بما شجعه على إعادة إصداره في طبعة موسعة تؤكد أطروحاته السابقة وتضيف العديد من الدلائل على صدقيتها[١٩٠] .

ونحن لانريد عرض أفكار (هنتنجتون) لأنها أصبحت شائعة ومعروفة ، غير أن مايجب التأكيد عليه هو حتمية الصراع من جهة وتأكيده على حتمية الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي بالذات من جهة أخرى ، فبين هذين النمطين من الحضارة عوامل تناقض حادة لاتمكن من التعايش .

لكن ذلك لايلغى تعدد الصراعات ، بين الغرب وغيره من الأمم والحضارات ، وهي صراعات ستعيد رسم الصيرورة التاريخية التي يهمنا زيادة تأكيدها .

والواقع أن (زبنغنيو برجنسكي) في كتابه الأخير (الفوضى) يرسم سيناريو شبه واقعي لصورة المستقبل ، وهو سيناريو ينطوى على التعددية الكونية في

١٩٠) يمكن الرجوع إلى كتابي (هنتنجون) - صدام الحضارات - مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق - ط١ - بيروت ١٩٩٥م - وصدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) ترجمة طلعت الشايب - ١٩٩٨م .

المراحل القريبة ، لكن هذه التعددية ستقود في نهاية المطاف إلى عالم ثنائي الأقطاب ينغمس في أتون الصراع .

فعالم الغد في نظر بريجنسكي ، سينقسم إلى ست كتل يطلق عليها (سلاسل القوى الكونية) وهي : - أمريكيا الشمالية ، أوربا ، شرق آسيا ، جنوب آسيا ، الهلال الإسلامي المتبعثر وسلسلة (آسيا - أوربا) أو الثغرة الجيوسياسية السوداء ، وبينما ستحظى السلاسل الثلاث الأولى بالتماسك الاقتصادي والسياسي ، فإن الثلاث الباقية ستكون هدفاً للتدخل .

وعلى الأرجح في نظره ، فإن العالم سيشهد صراع بين هذه الأطراف وفي داخلها ، وهو صراع لن يخلو من الصدامات العسكرية وعلى الرغم من إعتقاده في أن الولايات المتحدة ، ستكون على وجه شبه أكيد القوة المسيطرة فإن أوربا ستغدو عدوها الاقتصادي المؤكد[١٩١] .

٢٠١ - إننا نعتقد ، تأسيساً على كل ما سبق ، على أن الإستقرار في المدى المنظور في متناول اليد على المستوى العالمي ، لكن هذا الإستقرار الكوني يتنفس بالصراعات الإقليمية ، وذلك هو مكمن الخطورة ، فالإستقراروالسلام الغربي يدفع ثمنه الآخرون دائماً ، فسلام المائة عام الذي نعمت به أوربا وإزدهرت ، كان قرن الشقاء في العالم الثالث ، ففيه أستعمرت بلداننا وأنتهكت حرماتنا ، أما سلام أوربا القصير بين الحربين العالميتين فقد دفعنا ثمنه غالياً شهداء وضحايا وإهانة للشعوب تحت الحماية والوصاية والإنتداب . أما الحرب الباردة ، فقد كانت باردة في الغرب وحده ، أما تشنجاتها وحروبها فقد جرت على أراضينا ودفعنا ثمنها مزيداً من الشهداء .

---

١٩١) زبغنيو بريجنسكي (الفوضى) - ترجمة مالك فاضل - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان - الأردن ١٩٩٨ - ص١٧٧ وما بعدها .

إن علينا أن ننظر بحذر لأي سلام يصنعه العالم الغربي فيما بينه ، فحضارة الغرب ليست معنية إلاّ بشعوبها ، ومخطط قادتها هو تصدير التوترات نحو الأطراف خارج العالم الغربي . . .

وبما أن الشرق الأوسط هو أحد المناطق الملتهبة دائماً ، فإنه مرشح لمزيد من التوتر لضمان إستقرار العالم الغربي وتصدير صراعاته ، وفي كل المراحل المقبلة لدورة التاريخ هذه فإننا سنكون إحدى بؤر الصراع . . . وقد فشلنا في كل التجارب الماضية من الإستفادة بالوضع الإقليمي للإمساك بالميزان الدولي والتأثير فيه والتحكم في التوازن الإقليمي ، على الأقل ، للتأثير في التوازن العالمي والإستفادة منه وذلك حرصاً على مصلحة شعوبنا ، أم أننا سنفشل من جديد ، ونسقط مرة أخرى ، ضحية من ضحايا توازن القوى ؟

إن ذلك سيعتمد في المقام الأول على نوع الرجال الذين سيقودون شعوبهم في المرحلة المقبلة وعلى مقدار وعيهم بأصول وقوانين لعبة الأمم .

ومتى كان الأمر كذلك ، فلايبقى لمن يكتب سوى دعاء المؤمنين . . .

اللّهم ولِّ على الناس خيارهم . . .

قائمة بأهم المراجع

١ - د . إبراهيم أبو خزام - الديموقراطية الغربية العالم الثالث - منشورات مكتبة دار العلوم - بغداد ١٩٩٧م .

٢ - د . إبراهيم أبو خزام - العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين - منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية - طرابلس - ليبيا - ١٩٩٥م .

٣ - د . أديب نصور - ميزان الدول - جامعة قاريونس - بنغازي - ليبيا - ١٩٩١م .

٤ - إسماعيل صبري مقلد - الإستراتيجية والسياسة الدولية - مؤسسة الأبحاث العربية - لبنان -ط٢ - ١٩٩٨م .

٥ - إسماعيل صبري مقلد - العلاقات السياسية الدولية - منشورات ذات السلاسل الكويت - ط ٤ - ١٩٨٥م .

٦ - أكرم ديري - آراء في الحرب المؤسسة العربية للدراسات - بيروت - ط٤ ١٩٨٤م .

٧ - إلفن وهايدي توفلر - الحرب والحرب المضادة - تعريب د . صلاح عبد الله الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - ليبيا - ط١ - ١٩٩٥م .

٨ - برنارد ليدويدج - ديغول ماله وما عليه - ترجمة اللواء الركن محمد سميع السيد - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق - ١٩٨٥م .

٩ - بروستر -ك - ديني - نظرة شاملة على السياسة الخارجية الإمريكية - ترجمة د . ودودة عبد الرحمن بدر - الدار الدولية للنشر والتوزيع - القاهرة - بدون تاريخ .
١٠- د . بشرى قبيسي وموسى مخول - الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين - دار بيسان للنشر - لبنان - ط١ - ١٩٩٧م .
١١- بول كندي - نشوء وسقوط القوى العظمى - ترجمة مالك بديري - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان الأردن - ط١ - ١٩٩٤م .
١٢- جاك آتالي - ملامح المستقبل - ترجمة أحمد عبد الكريم - دار طلاس - دمشق -ط١ - ١٩٩١م .
١٣- جاك شيراك- فرنسا جديدة فرنسا للجميع - ترجمة أنطوان الهاشم وأحمد عويدات - منشورات عويدات - بيروت ط١ - ١٩٩٦م .
١٤- جون كونل - خط ماجينو الجديد - دار الحمراء - بيروت ط١-١٩٩٥م .
١٥- جيمس لي ري - الحروب في العالم- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية - ط١ - ١٩٩٥م .
١٦- خليل إسماعيل الحديثي - الوسيط في التنظيم الدولي - جامعة بغداد - ١٩٩١م .
١٧-خير الدين حسيب وآخرون - مستقبل الأمة العربية (التحديات والخيارات) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت -ط١-١٩٨٩م .
١٨- دانيال براو - العالم في القرن العشرين - ترجمة ونشر مركز الكتب الأردني - عمان ١٩٩٠م .
١٩- دانيال كولار - العلاقات الدولية - ترجمة د . خضر خضر - دار الطليعة بيروت

٢٠- روبرت كانتور - السياسة الدولية المعاصرة - ترجمة أحمد طاهر - مركز الكتب الأردني - عمان - ١٩٨٩م .
٢١- روبرت مكنمارا - مابعد الحرب الباردة - ترجمة محمد حسين يونس - دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان - ط١ - ١٩٩١م .
٢٢- ريتشارد نيكسون - ماوراء السلام -ترجمة مالك عباس - الأهلية للنشر والتوزيع -عمان ط١ - ١٩٩٥ .
٢٣- زبغنيو بريجنسكي - أوهام توازن القوى - ترجمة خاصة -
٢٤- زبغنيو بريجنسكي - الفوضى - ترجمة مالك فاضل - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان الأردن - ١٩٩٨م .
٢٥- سمير أمين - في مواجهة أزمة عصرنا - سينا للنشر - القاهرة - ط١٩٩٧١م .
٢٦-الجنرال شارل ديغول - حد السيف - ترجمة أكرم ديري والمقدم هيثم الأيوبي - دار الطليعة للطباعة - بيروت .
٢٧- الجنرال شارل ديغول - مذكرات الأمل - ترجمة سموحي فوق العادة - دار طلاس - دمشق .
٢٨- صامويل هنتنجتون - صدام الحضارات - مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق - بيروت -ط١ - ١٩٩٥م .
٢٩-صامويل هنتنجتون - صدام الحضارات (إعادة صنع النظام النظام العالمي) ترجمة طلعت الشايب ١٩٩٨م .
٣٠- عبد الوهاب الكيالي - موسوعة السياسة - الموسوعة العربية للدراسات والنشر - الكويت .
٣١- د . علي حيدر سليمان - تاريخ الحضارة الاوربية الحديثة -دار واسط

للدراسات والنشر والتوزيع – بغداد– ١٩٩٠م .
٣٢- عماد يوسف وأروى صباغ – مستقبل السياسة الدولية تجاه الشرق الأوسط – مركز دراسات الشرق الأوسط – عمان ط١-٦٩٩١م .
٣٣-فرانسوا جورج ديغورس – موسوعة تاريخ أوربا العام – ترجمة حسين حيدر – منشورات عويدات – بيروت ١٩٩٥م .
٣٤- فرنسيس فوكوياما – نهاية التاريخ وخاتم البشر – ترجمة حسين أمين – مركز الأهرام للترجمة والنشر – القاهرة – ط١ – ١٩٩٣م .
٣٥- كارك دويتش – تحليل العلاقات الدولية – ترجمة شعبان محمد محمود شعبان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٣م .
٣٦-كارلتون هيز – التاريخ الأوربي الحديث – ترجمة د . فاضل حسين – جامعة الموصل – العراق .
٣٧- د . كاظم هاشم نعمة – العلاقات الدولية – جامعة بغداد ١٩٧٩م .
٣٨-كولن باون وبيتر مونى – من الحرب الباردة حتى الوفاق – ترجمة صادق إبراهيم عودة – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان – ط١ – ١٩٩٥م .
٣٩- لستر ثرو – المتناطحون – ترجمة د . محمد فريد – مركز الإمرات للدراسات والبحوث الإستراتيجية – ط١٩٩٥١م .
٤٠- ليدل هارت – التاريخ فكراً إستراتيجياً – تعريب حازم طالب مشتاق – بغداد -ط١ – ١٩٨٨م – ليدل هارت – مذكراته – ترجمة بسام العسلي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ط١ – ١٩٧٨م .
٤١- مارتن فان كريفلد – حرب المستقبل – ترجمة د . السيد عطا – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٥م .
٣٢- محمد حسنين هيكل – ملفات السويس – مركز الأهرام للترجمة والنشر

- القاهرة ط١ - ١٩٨٦م .
٤٣- محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - مركز الإهرام للترجمة والنشر - القاهرة ط١ - ١٩٨٦م .
٤٤- د . مصطفى كامل محمد - التوازن الإستراتيجيفي الشرق الأوسط - مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة ط١٩٩٥١م .
٤٥- مصطفى مرجان (ريمون آرون) السلام المستحيل والحرب غير الممكنة (مقالة) - مجلة المنار - العدد ٤٣ - ١٩٨٨م .
٤٦- د . ممدوح محمود مصطفى منصور - سياسات تحالف القوى - مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٩٧م .
٤٧- ميشال البير - تناطح الرأسماليات دار الحمراء - بيروت ط١٩٩٧١م .
٤٨- ناعوم شومسكي - قراصنة وأباطرة - حوران للنشر - دمشق - ط١ ١٩٩٦م .
٤٩- نخبة من القادة العسكريين الفرنسيين - ٢١٤٩ يوماً من أيام الحرب العالمية الثانية - ترجمة الدار العربية للموسوعات - بيروت - ط١ - ١٩٩٤م .
٥٠- نيقولا ميكافيللي - الأمير - ترجمة د . فاروق سعد - دار الآفاق الجديدة - بيروت ط٣ - ١٩٨٢م .
٥١- نيقولا ميكافيللي - المطارحات - ترجمة خيري حماد - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط٣ - ١٩٨٢م .
٥٢- هانز - جي - مورجنتاو - السياسة بين الأمم - تعريب خيري حماد - الدار القومية للطباعة والنشر .
٥٣ - هربرت فيشر - تاريخ أوربا في العصر الحديث - ترجمة أحمد مجيد

هاشم ووديع الضبع – دار المعراف القاهرة – ط ٨ .
٥٤- هنري كيسنجر – الدبلوماسية ترجمة مالك فاضل البدري ج٢ – الأهلية للنشر والتوزيع – الأردن – ط١ ١٩٩٥ م .
٥٥- هنري كيسنجر – درب السلام الصعب – ترجمة دكتور علي مقلد – الدار العالمية للطباعة والنشر – بيروت ١٩٨٢ م .
٥٦- هنري كيسنجر – جدول أعمال ما بعد الحرب (مقالة) منشور في صبحي حديدي – حرب العالمين الأولى – منشورات الأرض – قبرص – ط١ – ١٩٩١م .
٥٧- هنري لورنس – اللعبة الكبرى – ترجمة د . محمد مخلوف – دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث – قبرص – ١٩٩٢م .

فهـرس الكتـاب

الصفحة

الحروب وتوازن القوى

دراسة شاملة لنظرية توازن القوى وعلاقتها الجدلية بالحرب والسلام

الكتاب والمؤلف

الحروب وتوازن القوى، كتاب جديد في موضوعه على مستوى الفكر العربي، فهو محاولة لمتابعة صيرورة الحروب وأسبابها وإثبات العلاقة الجدلية بين الحرب وتوازن القوى. فقد انقسم الفكر عموماً والفكر العربي بشكل خاص حول النتيجة التي يقود إليها توازن القوى، هل يؤدي إلى الحرب أم إلى السلام؟ فذهب بعضهم إلى أن توازن القوى هو المسؤول عن الحروب بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه الأداة الفعالة لصنع الاستقرار والسلام.

وهذا الكتاب هو محاولة لإزالة الحيرة وفك الإشتباك... وفرضيته الأساسية أن الحروب والسلام يرتبطان بأنماط محددة من توازن القوى، فتؤدي بعض أشكال للحروب بينما تقود أخرى للسلم والإستقرار... ويعتمد لإثبات هذه الفرضية على وقائع التاريخ...

أما الكاتب فهو باحث عربي ليبي حاصل على درجة الدكتوراه في القانون العام من جامعة قاريونس أعرق الجامعات الليبية، وهو أكاديمي وسياسي في الوقت نفسه... له عدة مؤلفات في القانون الدستوري والقانون الدولي، وتقلد عدة وظائف سياسية ودبلوماسية في بلاده زودته ببعض الخبرة للبحث في المسائل الفكرية والسياسية ومن ضمن هذه المسائل هذا الموضوع الخطير (نظرية توازن القوى).

ويأمل الناشر بأنه بهذا الإصدار الجديد يضيف ما هو مهم للفكر العربي والمكتبة العربية.

الناشر



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ● منشوراتنا في العام ١٩٩٩ م.
● الغلاف : زهير أبو شايب.